مكانة المرأة في الإسلام

للداعية الشيخ محمد متولي الشعراوي

أشرف عليه واعتنى به
أحمد الزعبي

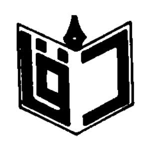


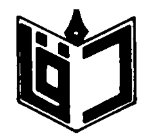
مَكَانَةُ المَرْأَةِ فِي الإِسْلَامِ

مكانة المرأة في الإسلام

للداعية الشيخ محمد متولي الشعراوي

أشرف عليه واعتنى به
أحمد الزعبي





دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع
تلفون : ٥٥٦٩٧٦ - ٥٥٦٩٧٨ - ص . ب . : ٣٨٧٤
فاكس : ٧٩١٢٩٨ / ٠١ كود بيروت : ٠٠٩٦١١



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد

لقد عرفت البشرية في تاريخها الطويل نوعين من مناهج التربية هما: المنهج الإلهي، ثم المناهج الأرضية على اختلافها وتعددها تبعاً لتصوراتها لطبيعة الحياة والإنسان، ولطبيعة العلاقة بين الفرد والمجتمع ودور كلٍّ في حركة الحياة.. من هنا نشأت الحاجة إلى التعرف على منهج الله تعالى في هذا الكون، خاصة فيما يتعلق منها بأحكام الأسرة وعلاقة الرجل بالمرأة، لأن الأسرة تشكل اللبنة الأولى في تكوين المجتمع.

هذا، وما من قضية أثارت جدلاً مثل قضية الأحكام الخاصة بالمرأة في الإسلام، وما حُورب الإسلام من خصومه مثلما حورب بقضايا المرأة في تعدد الزوجات، وميراث المرأة، وشهادتها، ولباسها وغير ذلك.

في هذا الكتاب يتعرض الإمام الداعية محمد متولي الشعراوي لتبيان الكثير من الأمور، وتوضيح الكثير من المفاهيم حول «المرأة في القرآن الكريم» من مثل: نظرة الإسلام إلى المرأة باعتبارها أحد نوعي الإنسان وهي مستخلفة في هذا الكون كالرجل لجهة العبادة والسعي وتلقي الدعوة، كما يتحدث عن مسؤولية التربية في الإسلام وهي مطلوبة من المرأة طبعاً، وعن صفات الزوجة الصالحة، كما يرد على شبهات تتعلق بتعدد الزوجات، وميراث المرأة، والحجاب والنقاب، وعن حكم الإسلام في عمل المرأة.. وغيرها من القضايا المثارة، ويستعرض خواطره حولها في ردٍ على كل متطاول على الإسلام.

إن «دار القلم» إذ تقدم هذا الكتاب ضمن مجموعة «إمام الدعاة» تأمل أن يلاقي من القراء الأفاضل القبول والرضا.

واللَّهَ نسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجزي مؤلفه خير الجزاء، وأن يحشرنا وإياه مع ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] إنه سميع مجيب.

بيروت في ٢٦ جمادى الثانية ١٤٢١هـ
٢٤ أيلول ٢٠٠٠م

وكتبه
أحمد الزعبي

القسم الأول

الدرس الأول

الرجل والمرأة
في ميزان الإسلام



أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمدك، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ.

الإنسان حين ينظر إلى موضوع من الموضوعات التي قد تختلف فيها العقول، يجب أن يبحث في موضوع مشابه له إتفقت فيه العقول، ولذلك يرد الحكم في الأول المختلف فيه على نظام الحكم في الثاني.

وكلمة إمرأة تعني أن لها مقابلاً وهو الرجل، إمرأة تعني أنثى، ورجل يعني ذكر، فلو نظرنا إليهما لوجدنا أن هنا جنساً يجمعهما وهو الإنسان، وحين أقول جنساً يجمعهما وهو الإنسان أقصد أن الجنس هو ما يمكن أن ينشأ منه نوعان، أي ينشأ منه أفراد متساوون، فأنا أقول: إنسان جنس لأنه ينشأ منه نوعان وهما ذكر وأنثى، وأن الذكر يأتي منه زيد وعمرو وعبيد، ولا إختلاف في تكوينهما الحقيقي.

وإذا نظرنا إلى جنس ينقسم إلى نوعين، فيجب أن نقول: إنه لم ينقسم إلى نوعين إلا لأداء مهمتين، وإلا لو كانت المهمة واحدة لظل الجنس واحداً، وإنقسامه إلى نوعين دل على أن كل نوعٍ له خصوصياته في ذاته، والجنس يجمع لهما معية خصوصية في ذاته مثلاً، فمثلاً الزمن جنس يشمل الليل والنهار، هذا نور وذلك ظلام، النهار والليل.

الليل والنهار كظاهرتين، قد يظن البعض أنهما متعارضتين أو متناقضتين، نقول له: لا، النور لم يأت ليعارض الظلام، ولا الظلام يعارض النور، ولذلك لا يصح أن نقارن بين نور وظلام لأن لكل واحد منهما مهمة يؤديها لا يستطيع الآخر أن يؤديها.

الزمن الذي ينقسم إلى ليل ونهار، نقول له: إن الزمن بجنسيته له معنى، وهو أنه ظرف لحدوث الأشياء فيه، هذا هو المعنى المشترك، وبعد ذلك إنقسم إلى نوعين: النهار والليل. إذاً، النهار له مهمة، والليل له مهمة أخرى.

الحق سبحانه وتعالى حين يعرض لهذه القضية، يعرضها عرضاً واضحاً معللاً فيقول:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧].

إذاً، جاءت علة الليل وهو للسكن والهدوء والراحة والاستقرار، والنهار للكدح والعمل، لا نستطيع أن نقول أن الزمن كنهار دائم ينفع، أو الزمن كليل دائم ينفع، وهذه أيضاً يعرضها القرآن الكريم إذ يقول:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢].

إذاً الحق سبحانه وتعالى من رحمته أنه جعل الزمن وهو كجنس، ظرف لحدوث الأشياء فيه إلى نوعين، كل نوع يؤدي مهمة، فلو أردنا أن نشبه الليل بالنهار، أو النهار بالليل نكون قد خرجنا بالنوعين عن المهمة الأصلية الموجودة لهما.

الرجل والمرأة نوعان لجنس واحد وهو، الإنسان، فكأن هناك أشياء تتطلب من كل نوع من جنس الإنسان، أشياء تتطلب من الرجل كرجل، ومن المرأة كامرأة بحيث نستطيع أن نقول: إنهما كنوعين من الجنس لهما مهمات، مهمات مشتركة كجنس، ومهمات مختلفة كنوعين.

والحق سبحانه وتعالى حينما عرض قضية الليل والنهار، وهي قضية كونية لا يختلف فيها أحد، ولا يمكن لأحد أن يعارض فيها لأننا جميعاً نجعل الليل للسكنى والراحة، والنهار للكدح، والحق سبحانه وتعالى يأتي في هذه القضية ليقدمها إيناساً بالقضية التي يمكن أن يختلف فيها وهي قضية الرجل والمرأة فقال:

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ١ ـ ٤].

إذاً، للزمن نوعان، ونوعا الزمن يمكن أن يختلف فيهما، فكأن لليل مهمة، وللنهار مهمة، وكأنه تبعاً لذلك للرجل مهمة وللمرأة مهمة ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾.

ويأتي في القضية العامة فيقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: ٣٢].

الرجل لا يتمنى أن يكون إمرأة، ولا المرأة تتمنى أن تكون رجلاً، ولذلك الحديث الشريف يقول:

«لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، ولعن الله المتشبهات من النساء بالرجال»[1].

لأنها خرجت عن النوعية المقصودة، وكذلك كل أزواج الحياة، ومن هنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وكذلك قول الله سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

أي خلق من جنسها زوجها.

إذاً، فعلة وجود الزوجية في الإنسان، وفي النبات، وفي الحيوان هو التكاثر، والتكاثر في هذه الأشياء لأجل أن يحفظ النوع.

والحق سبحانه وتعالى بين لنا أن لكل نوع من الجنس مهمة يؤديها، هذه المهمة التي يؤديها يجب أن يقف عندها، وإذا ما وقف عندها أمكن لكل نوع أن يؤدي مهمته بدون تعارض بل بتساوٍ وتعاطف، والذي يفسد الأمر أن نوعاً يريد أن يُغِير على حقوق نوع آخر، أو على واجبات نوع آخر، ومن هنا يحدث الفساد في نظام الكون.

* * *

(١) أخرجه البخاري في اللباس، باب المتشبهون بالنساء (٥٨٨٥).

بين المرأة والرجل قدر مشترك

القدر المشترك هو ما يطلب من الجنس كإنسان، بالنسبة إلى دين من الأديان هو الاعتقاد، المرأة مطلوب منها أن تعتقد العقيدة التي تقتنع بها، والرجل كذلك، ولا يمكن لرجل أن يفرض عقيدته على إمرأة، والقرآن الكريم أوضح هذه المسألة في أقوى صورها، ومثلاً، الرسل هم اللذين جاؤوا ليحملوا الناس على منهج الله، أولى بهم أن يحملوا زوجاتهم على منهج الله، ومع ذلك عرض القرآن هذا العرض إذ قال:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

الرسول مفروض فيه أن يهدي الناس، ومع ذلك قد لا يستطيع أن يحمل إمرأته على إتباع منهج الله. إذاً، فللمرأة أن تعتقد ما ترى كإنسان له حرية الاعتقاد.

الله سبحانه وتعالى بعد ذلك ضرب مثلاً للقضية المقابلة فقال:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: ١١].

فرعون الذي إدعى الألوهية لم يستطع أن يدخل هذه العقيدة في نفس زوجته التي قالت:

﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

إذاً، فالخاصية الأولى التي تهم الدين هي، خاصية حرية الاعتقاد، إن للمرأة أن تعتقد ما تشاء لأن هذا الاعتقاد سيلزمها بمنهج، فإن لم ترتبط بالعقيدة باختيارها فاقبالها على المنهج غير مأمون، وإن أقبلت إكراهاً، تقبل على المنهج حسب ما رآها القانون أو ما رآها المكره، لكن إذا خلت بنفسها يمكن أن تتحلل من هذا المنهج.

إذاً، فالمشترك الأساسي هو حرية ذلك المعتقد، حرية تَعَقُّل الأشياء، حرية الحكم على الأشياء.

والقرآن الكريم حين يعرض لنا مثل هذه الأمثال، فيعرض لنا مثل بلقيس،

مع أن الإسلام لا يرى أن المرأة ملك ـ أي تكون حاكمة على الأمة ـ ومع ذلك عرض لنا القصة ليعطي صورة هي أن المرأة لها أن تعقل، ولها أن تشير ولها أن تستشير، وصورة من عقلها ورجحاتها مثلاً، أرسل سليمان الكتاب بعد أن جاء به الهدهد فماذا كان موقف بلقيس، قالت:

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠، ٣١].

كما قالت:

﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢].

فماذا قال لها رجال جيشها؟..

﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ [النمل: ٣٣].

هذه مسألة سياسية، ونحن جيش قوي، تأمريننا بالحرب نحارب، ولكنك أنتِ التي تقدرين ماذا نعمل وماذا نصنع؟ قالت: سأرسل إليه هدية، فإن قبل الهدية أعلم أنه طالب دنيا.

إذاً، أمكن للمرأة أن تفكر التفكير السليم، الذي تعرف به طبيعة سليمان هذا، أهو ملك من جباري الدنيا، أم له مهمة أخرى؟ فأرسلت الهدية فكان من موقف سليمان..

﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦].

فقالت بلقيس: نذهب إليه، إنه إنسان لا يريد المال، فله منهج ودعوة.

وقال سليمان:

﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨].

وهنا ننظر إلى عقلية المرأة، كيف استطاعت أن تقف الموقف الدقيق، وتعبر التعبير الدبلوماسي، العرش عرشها، ولكن مسألة غريبة في كونها تركت العرش، وتأتي لتجد العرش فماذا تقول؟ قالت: «كأنه هو». إذاً، هذه صورة من صور عقلية المرأة.

كذلك يعرض القرآن أن الله سبحانه وتعالى يصطفي بعض النساء مثل الرجال تماماً، إصطفى مريم، واصطفى أم موسى وكلفها بأشياء فعلتها. المرأة من حيث كونها جنس محل الاعتقاد الحر، محل لاستعمال عقلها في الأمور التي يعجز عنها الرجال، محل لاصطفاء الله، وأن الله يخصها بشيء.

ويأتي الإسلام؛ للمرأة حياة حرة تملكها، حرة في رأيها فيمن تختار، حرة

في ملكيتها للأشياء، لها أن ترفض، كل هذا القدر المشترك بين الرجل والمرأة، لكن مهمة الحياة موضوع آخر.

مهمة المرأة في الحياة

قصة آدم، عندما قال الله سبحانه وتعالى لآدم وزوجته يحذرهما من الشيطان قال:

﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧].

العداوة مسبقة، لأن الشيطان رفض السجود، وهنا الخطاب للاثنين لآدم ولزوجه، فقد كان المفروض أن يقول القرآن، فتشقيا، لكن القرآن عبر التعبير الموحى، التعبير الذي يعطي لكل واحدٍ منهما مهمته، فتشقى، أي الشقاء لآدم وحده، فكأن آدم مخلوق للكفاح لمقابلة صعاب الحياة، والمرأة فقط مخلوقة سكن له.

آدم يتحرك حركته في الحياة، ويأتي ليهدأ عندها ـ عند المرأة ـ فهي مصدر العطف الذي يمسح بيده على كل متاعبه لتزول، فيستأنف الحياة بعد ذلك بشيء من النشاط، والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

المهمة الأساسية هي أن يسكن إليها الرجل، وكلمة يسكن إليها كلمة معبرة، معنى السكن إليها، أنه كان متحركاً، يكدح ويأتي ليسكن إليها، وبعد ذلك تجيء المهمة الثانية..

«واللَّهُ جَعَلَ بَيْنَكُم مَّوْدَّةً وَرَحْمَةً».

حيث يأتي بعد ذلك البنون والحفدة..

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾[النحل: ٧٢].

إذاً، فالمهمة الأساسية للمرأة هي أن يسكن إليها الرجل، ولو قدرت المرأة هذه المهمة، لوجدتها تستوعب كل وقتها، تعمل له، وتعد له ما يرتاح به، فيأتي ليجد بيته ساكناً مستقراً، كل أموره مرتبة، وبعد ذلك تكون وعاء للتكاثر.

* * *

في مهمة
المرأة شرف وإعتزاز

عمل الرجل هو التعامل مع أجناس الحياة، فهو يمكن أن يكون زارعاً يتعامل مع الأرض، وما إلى ذلك من أشياء أخرى، وهذه الأشياء كلها لخدمة الإنسان، والإنسان أرفع هذه الأجناس كلها.

ومهمة المرأة هي التعامل مع ذلك الجنس الراقي وهو الإنسان كزوج، وكجنين، كجنين في بطنها، وكوليد تحمله وتعطي له المثل والتربية. إذاً، فالرجل يتعامل مع الأشياء التي دون الإنسان، والمرأة تعاملها الأساسي هو مع الإنسان، وحين ننظر إلى طفولات الحيوانات نجدها كلها قليلة، وأطول طفولة هي للإنسان، الطفولة هذه هي ميدان عمل المرأة، وما دامت الطفولة زادت فهي تزيد بقدر المهمة.

والحيوانات الأخرى مهمتها دون مهمة الإنسان، وطفولة الإنسان تتناسب مع مهمته، لأن مهمته عالية، فهو أرفع الأجناس على الأرض ليستطيع أن يمد بكل المبادئ والقيم والأشياء التي تعينه على هذه المهمة.

من الذي يتعامل مع الطفل؟ الرجل يخرج إلى عمله، والطفل مع أمه إلى أن يذهب إلى المدرسة في سن السادسة مثلاً، ففي سن السادسة يكون العقل فارغاً، والمثل تبدأ تملؤه.

الأم إذا كانت مشغولة بأي عمل من الأعمال، يعني ذلك أنها ستتركه إلى راع، إلى خادمة مثلاً، والخادمة قد تكون أمينة، ولكن لا يمكن أن يكون لها قلب الأم، وقد قرأت في كتاب، «أطفال بلا أسر»، فقد وجدوا أن نمو الطفل متخلف لأنه يتعامل مع مربية، أما إذا كان الطفل في مجتمع مع أبيه، ومع أمه وإخوته المتفاوتين في الأعمار، ومع جدته وجده، فالطفل الصغير سيلتقط من كل جيل، وهذا سر القرآن في أنه قال: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾.

الطفل في هذا السن يتقبل من كل قطاعات الإنسان، القطاع الكبير، والمتوسط، والصغير.

والمرأة مهمتها هي تعاونها مع أرفع الأجناس على الأرض، فمهمة المرأة، سكن للزوج، وبعد ذلك حضانة للأطفال، وهذا يعطيها أشرف مهنة في هذا الوجود، ويجب أن تأخذها المرأة بشيء من الفخر، وبشيء من الاعتزاز.

المرأة في الواقع لم تخفف من شقاء الرجل، فهو ما زال في تعبه، والحقيقة أنه ما زال شقياً وإزدادت هي شقاء، الرجل لم يأخذ نصف عمل في الخارج فما زال يعمل عمله، المرأة إذا تعللت بمشاركة الزوج في عمله لتزيد الدخل لمستوى حياة أكبر، فليس المفروض في الإنسان الذي له قيم سماوية أن يفرض مستوى الحياة أولاً، وبعد ذلك يحمل الدخول عليه، لا، المفروض: على قدر دخله يحدد مستوى الحياة.

الذي يتعب الناس هو أنهم يحددوا أولاً مستوى الحياة، ثم إذا لم يكف الدخل يبدأوا في عمل الأشياء الأخرى، فقد ينحرفوا أو يرتشوا، فالمستوى لا يحدد إلا على أساس الدخل.

* * *

عمل المرأة

الدين الإسلامي لا يمنع عمل المرأة، لكن الإسلام واقعي، الذي خلق الإنسان يعرف أن هناك ظروفاً قد تضطر المرأة للعمل، ولكن الإسلام يعرضها في حدود الضرورة في إطارها، وهذا الإطار بَيَّنه لنا الله في قصة سيدنا موسى عليه السلام عندما ورد ماء مدين، ووجد عليه جمع من الناس يسقون، ووجد إمرأتين تذودان، تذودان بمعنى تمنعان ما ترعيان من الماء، فلأي شيء خرجتا؟.

إذاً، ما دامتا تمنعان ما ترعيان عن الماء، قال لهما سيدنا موسى: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ [القصص: ٢٣]، فكانت الإجابة أن:

﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ [القصص: ٢٣].

ذلك معناه، أن الفتاتين ـ إبنتا شعيب ـ وقفتا بعيداً لا تسقيان حتى ينتهي وينصرف الرجال من سقي ماشيتهم، وبعد ذلك يخلو البئر. إذاً، فالفتاتان أخذتا الضرورة بالقدر، ليس معنى أن الضرورة أخرجتهما، وبأن يتناسبا نوعيهما فهما يدركان أنهما نوع لا يصح أن يحتك ـ يختلط ـ بالنوع الآخر ـ الرجال ـ ثم عللتا سبب الخروج..

﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

فكأن ﴿أبونا شيخ كبير﴾، تبرير لهذا العمل. إذاً، فالآيات تحدد أن الضرورة قد تلجئ المرأة للعمل، ولكن حين تخرج لا تنسى نوعيتها، ولا تزدحم في إزدحام الرجال.

* * *

بعد ذلك جاءت لقطة أخرى وهي مهمة الرجل حين جرى ذلك، أو مهمة المجتمع ممثل في الرجل ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾.. أي أعانهما على أداء مهمتهما حتى يسرعا بالرجوع إلى البيت.. تلك مهمة المجتمع ممثلة في فرد منه.

المرأة التي إضطرتها ظروفها للخروج لعمل من الأعمال، شهامة الرجل تقتضيه أن يؤدي عنها هذه المهمة لتنتهي منها، ولا تجعلها تضطر أن تزدحم مع الناس في الحياة، إذاً.

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٤].

هذه لقطة من قصة سيدنا موسى تدلنا على أن القرآن عرض هذا العرض ليدلنا على أن المرأة قد تضطرها ظروفها إلى أن تخرج، ولكن ظروفها التي اضطرتها إلى أن تخرج، يجب ألا تخرجها عن نوعيتها بحيث تحسب نفسها رجلاً، بل تأخذه بقدرها ما أمكن، إلى أن ينتهي الرجال وتؤدي مهمتها، وبعد ذلك جاءت بالعلة ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.. وبعد ذلك جاءت بالمجتمع.

المجتمع سواء كان مجتمعاً قريباً أو مجتمعاً بعيداً، مجتمع الأسرة الذي يعتبر أن المرأة من لحمه ودمه، إذا خرجت لتعمل فيغار على هذا، أما إذا لم تجده فلا مانع في أن تذهب على أن تأخذ الضرورة بقدرها، وأن لا تزيد فيها.

ومسألة خروج المرأة، صحيح هي مُنِعَتْ من الزحام، وخروجها ومرورها يلزمها الله سبحانه وتعالى بشيء آخر، وهو أن تكون على هيئة غير مثيرة، وهذه هي الحدود على جديتها، والتشريعات دائماً حين تنظر إليها، لا تتعرض لعملية الإدراك، ولا تتعرض لعملية الوجدان، إنما تتعرض لعملية واحدة هي عملية النزوع.

علماء النفس قسموا مظاهر الشعور إلى ثلاثة أقسام قالوا:

أن الإنسان عندما يرى وردة جميلة في بستان، رؤيته للوردة تعني «إدراك».

فإذا أعجبته وأحبها فهذا «وجدان».

وجد في نفسه أثر لذلك الإدراك، فيذهب ليقطف تلك الوردة فهي عملية «النزوع».

وهنا يتدخل القانون. إذاً الشعور ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الإدراك، الوجدان، ثم النزوع، والتشريع إنما يتعرض لحالات النزوع، ولا يتعرض لحالات الإدراك والوجدان إلى في مسألة واحدة، وهي ما يتعلق برؤية الرجل للمرأة لأنه ليس من الممكن أن أُفَضِل عملية الوجدان على عملية النزوع.

إنسان رأى امرأة جميلة، هو رأى، إذاً أدرك، واستقر في نفسه إعجاب، هذا الإعجاب هو موتور داخلي أحدث في نفسه، عملية نزوعية فلا يمكن أن نفصل العملية الوجدانية عن العملية النزوعية كما نفصلها في حالة الوردة.

الإسلام يمنع عملية الإدراك من الأساس، فلو أبيح لك الإدراك، وحرم عليك النزوع ستعيش في قلق وفي تعب، ولأن الله سبحانه وتعالى هو المشرع الرحيم، العارف للنفوس يمنع الإدراك، لأنه لو نظر الرجل للمرأة وأعجبته ماذا يكون الموقف؟ الموقف يعلمه الله، ونعلمه جميعاً من واقع الحياة، ولذلك يقول الشاعر أحمد شوقي:

نظرة، فابتسامة، فسلام فكلام، فموعد، فلقاء

* * *

الإسلام يؤمن حياة المرأة

والتشريع منع الإدراك حتى لا يحدث وجدان لأنك لا تستطيع الفصل بين الوجدان والنزوع فقال الحق سبحانه وتعالى:

﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وقال: غض من طرفك، وأنت أيضاً يا إمرأة أريد أن أؤمن حياتك بهذا التشريع، فالإسلام يؤمن حياة المرأة، لماذا؟ لأن الإنسان المتزوج بامرأة ووصلت إلى سن الأربعين أو الخمسين، وإمرأته هذه تعرضت لعمليات الخدمة والولادة والرضاع، وأَثَّرَ الزمن في شكلها ونضارتها، ثم إذا خرج الرجل إلى الشارع، يرى فتاة في مقتبل عمرها على أحسن ما تكون من الزينة، وأحسن ما تكون من الشباب، ماذا يكون موقفه بالنسبة له حين يراها؟ ستلهب غرائزه بعد ما كانت غرائزه طبيعية مع أهله، أي أن هذا المنظر ألهب غرائزه.

عندما يعود الزوج إلى إمرأته، يبدأ في المقارنة، وهذه المسألة تؤدي إلى فساد أغلب البيوت. إذاً، المرأة في الحالة الأولى وهي البنت الجميلة، ستصل إلى هذه السن بعد خمسٍ أو عشرة أو عشرين سنة، فنقول لها، لا تتبرجي حتى لا تلهبي غرائز أناس، وتفسدين عليهم بيوتهم، حتى عندما تصلين إلى هذه السن فلا تأتي فتاة أخرى لتفسد عليك بيتك ورجلك، فالإسلام يقول لها، أمني حياتك الثانية، لأنه بعد خمس عشرة سنة ستصيرين إمرأة عادية يمكن أن تفسد عليك زوجك، أو إبنك فتاة في مثل سنك ومظهرك الآن.

الإسلام لكي يرحمها، ويؤمن حياتها يمنعها أن تفسد على الناس حياتهم حتى لا يأتي أحد ويفعل ذلك بها، والإسلام حين جاء ليحدد الإدراك، المسألة الوحيدة التي حدد فيها الإدراك هي مسألة النظر إلى المرأة، لأن العملية الوجدانية التي ينشأ عنها النزوع لا يمكن فصلها، وبعد ذلك تفسد البيوت.

فساد البيوت يأخذ ألواناً شتى، والسبب الأصيل موجود، ويجتمعون ليعالجوه في غير داء، ولذلك الإسلام يريد أن يكرم المرأة، ويجعلها في مكانها،

فحين يحظر الإسلام على المرأة أن تتبذل، وأن تتبرج، ولا تبدي زينتها إلا لزوجها، إلى آخر ما جاء في الآية الكريمة، فالإسلام يريدها أن تكون زوجاً تمثل السكن، وأماً تمثل الحضانة لأشرف جنس في الوجود وهو الإنسان.

* * *

الدرس الثاني

لباس المرأة المسلمة

صورة الحجاب الإسلامي

باديء ذي بدء يجب أن نقرر، أن أحكام الحجاب ما أثمرت ثمرتها، وفعلت فعلها في المجتمع الإسلامي الأول إلا لأنها كانت تحرك أناساً آمنوا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، وكفروا بكل أرباب الأرض حتى أشربوا قلوبهم روح الإسلام، ومقاصده وغاياته، وحتى غدت تصوراتهم، ومعاييرهم، ومقاييسهم إسلامية محضة، ما يؤثروا الله ورسوله، وما يفضلانه، وما يقرانه في دنياهم هو الحق المبين الذي لا ريب فيه، وسيأخذه المسلمون بكل قوة، وسيتمثلونه في حياتهم مهما كانت تصورات الناس مغايرة، ومهما كانت عاداتهم، وظلم تقاليدهم، وطغيانهم ما شاع وذاع بين ظهرانيهم.

المسلم يتلقى أمر ربه ورسوله ويتحرك به تواً، ويمضي في سبيله جاداً حاسماً لا يهمه ما هي عليه هذه الكتل البشرية التائهة الضالة، الذاهلة عن حقيقتها، وعن مصيرها الأسود.

هذا الإيمان الأصيل الذي خالط بشاشة قلوب الرعيل الأول من المؤمنين هو الذي دفع نساء الأنصار أن يقمن قول الله سبحانه وتعالى فور سماعه:

﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١].

يأتي نساء الأنصار فيشققن جلابيبهن، ويعتمرن بها حتى جئن في صلاة الغداة، وكأن على رؤوسهن الغربان، وكانت أثنت عليهن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فلم تتعلل واحدة بخوف ذهاب الأناقة عنها، ولم تتعلل أخرى بقسوة القيظ صيفاً في تلك الجزيرة المجدبة، ولم تقع منهن كلمات العصرية، وكانت أمهاتنا وكان الناس، فلم تتشدق واحدة قائلة: إقنعوني بضرورة هذا الأمر.

ما لاذت إحداهن بالتحريرية، والإنطلاقية وغيرها مما أملته الشياطين على أبناء هذا الزمن المنكوبين، يكفيهن أن أمرَ ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾، منزل من عند الله سبحانه وتعالى، وجاء من فوق سبع سموات ليحرك ذلك المجتمع المبارك في إتجاه يرضاه الله، ويمقت ما عداه مقتاً كبيراً.

إذا أردنا الآن أن نعيد التجربة بالنجاح نفسه، فلا بد من تهيئة أسباب هذا النجاح، ولا بد أن يكون جهاز الاستقبال معافاً من العطب حتى ينفعل بإشارات الإرسال بطريقة مرضية. إذاً، لا بد أن تكون الموجه إليهن هذه الأحكام، والتعليمات بالقوة الإيمانية، والخلقية ذاتها التي كانت عليه فضليات الإسلام الأوليات، وبقدر التفاوت في هذه القوة يأتي التباين في النتائج، فمنهن من سوف يذعن إذعاناً كاملاً لأمر ربهن وستكون حيث يريدها، وهؤلاء سيخلدن في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ومنهن من سوف تؤمن ببعض وتكفر ببعض وما جزاء من يفعل ذلك منهن إلا الخزي؟! ومنهن من سوف تكفر به كله وتتولى على أعقابها، وهؤلاء سيذقن عذاب الهون بكفرهن إنشاء الله.

وبعد ذلك فلنمض قدماً، ولنستعرض معاً صورة الحجاب الإسلامية من واقع كتاب الله، وسنة رسوله محمد ﷺ الصحيحة، وبالنظر في تأثير هذه الأحكام في المجتمع الأول المبارك، وكيف تحرك بها بعد فهمها إذ يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾.

كما يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

أولاً: فالخمار هو غطاء الرأس، والجيب هو النحر مع مقدم الصدر، والمطلوب أن يضرب غطاء الرأس على النحر والصدر، كيف؟ إنكن أكثر دراية منا في هذا الشأن، وهذه الآية الكريمة تعطي الصورة من أعلى ولكن أين حدودها من أسفل؟ والجواب في الآية الكريمة ذاتها إذ تقول:

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾.

زينة الأرجل هي الخلاخيل، ولما كن يخفينها بأثواب سابغة كما تدل الآية الكريمة فإنهن كن يضربن بأرجلهن حتى تعلن هذه الزينة عن نفسها من وراء حجاب. إذاً، فلا بد بموجب هذه الآية الكريمة، ستر الساقين حتى مكان الزينة منها أي العقبين.

ثانياً: يقول رسول الله ﷺ عندما دخلت عليه أسماء بنت أبي بكر بثياب رقاق قال: «يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصح أن يرى منها إلا هذا وهذا، وأشار ﷺ إلى وجهه وكفيه».

والسيدة عائشة رضي الله عنها تحكي فتقول: كن نساء المؤمنات يشهدن مع النبي ﷺ صلاة الفجر متلفعات بمروطهن ثم ينقلبن إلى بيوتهن حين يقضين الصلاة لا يعرفن من الغلس[1].

والحكاية الأخرى للسيدة عائشة التي أثنت فيها على نساء الأنصار لحسن إمتثالهن لأمر الله، ليدل على كيفية ترجمة هذه التوجيهات من الله ورسوله إلى سلوك وواقع في صفوف المؤمنين.

ثالثاً: ويقول الرسول ﷺ في حديثه: «لاَ يَنْظُرُ اللَّهُ إلى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاَءَ»[2].

- فترد أم سلمة: فكيف يضع النساء بذيولهن؟
- فيقول الرسول: يرخين شبراً.
- فتجيب أم سلمة: إذاً تنكشف أقدامهن!!
- فيقول النبي: فيرخينه ذراعاً لا يزدن عليه.

ومعنى هذا الكلام، أن الواحدة من المؤمنات كانت تجر ثوبها وراءها على الأرض، فحذر الرسول من أن تفعل إحداهن هذا للاختيال والدلال، ويرى ﷺ أن ترخي الواحدة ثوبها شبراً من نصف الساق أو الكعب، ولكن أم سلمة تخشى من ظهور القدم، والرسول يأبى أيضاً أن يظهر القدم، فيزيد القدر الذي يرخي إلى ذراع ولا زيادة لأن في ذلك ما يكفي لتغطية قدم الواحدة مهما بلغت من الطول، ويترك مجالاً للإختيار من شبر إلى ذراع حسب ما يقتضيه طول الواحدة.

إذاً، لا يجب أن يجر الثوب إختيالاً، ولا يجب كذلك أن يرى القدم، وعلى المسلمة أن تتميز السبيل الذي ينأى بها عن الوقوع في أحد هذين المحظورين.

ولكن هل ظهرت آثار هذه التعليمات في المجتمع كذلك؟ أم وضعت النساء أصابعهن في آذانهن، وإنقلبن على أعقابهن؟

نعرف الإجابة من هذه القصة، تأتي أم ولد لإبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف إلى أم سلمة وتسألها حيث تقول: إني إمرأة أطيل ذيلي وأمشي في المكان القذر، فترد أم سلمة: قال رسول الله ﷺ «يطهره ما بعده»، أم سلمة سمعت الإجابة آنفاً من رسول الله.

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة، باب وقت الفجر (٥٧٨).

(٢) أخرجه البخاري في اللباس، باب قول الله تعالى: ﴿قل من حرم زينة الله﴾ (٥٧٨٣)، ومسلم في اللباس، باب تحريم جر الثوب (٢٠٨٥).

إذاً، فلا بد أنه سئل عن حل لهذه المسألة من نساء أطلقن ذيولهن، وصادفهن القذر في الشوارع، وهذه الأخرى تلتمس حلاً عند أم سلمة، فلا مفر من التسليم بأنها كانت ظاهرة ماضية في هذا المجتمع الطاهر.

ومن هذا العرض السريع يبدو جلياً أن المسلمة لا يحل لها أن تظهر سوى:

* الوجه والكفين من أعلى.
* ولا تظهر حتى القدمين من أسفل.

وهناك شروط أخرى منها:

أولاً: ألا يكون الثوب نفسه زينة.

وهذا الشرط يستقى من مفهوم عموم قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾، وقوله أيضاً:

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقول رسول الله ﷺ:

«ثلاثة لا تسأل عنهم: رجل فارق الجماعة وعصى إمامه ومات عاصياً، وأمة أو عبد أبق فمات، وامرأة غاب عنها زوجها قد كفاها مؤونة الدنيا فتبرجت بعده؛ فلا تسأل عنهم».

ثانياً: أن يكون الثوب صفيقاً لا رقيقاً.

لقول رسول الله ﷺ:

«صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»[1].

ولقصة حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر عندما رأتها السيدة عائشة بخمار رقيق فشقته وقالت: أما تعلمين ما أنزل الله في سورة النور؟ ثم دعت لها بخمار فكستها.

ثالثاً: ألا يكون مجسداً لهيئة الجسم.

وقول أسامة بن زيد: كساني رسول الله ﷺ بقبطية كثيفة مما أهداها له دحية الكلبي فكسوتها إمرأتي فقال رسول الله ﷺ: ما لك لم تلبس القبطية؟ فقلت: كسوتها إمرأتي، فقال الرسول: مرها فتجعل تحتها غلالة فإني أخاف أن تصف حجم عظامها.

---

(١) أخرجه مسلم في اللباس، باب النساء الكاسيات العاريات (٢١٢٨).

الرسول محمد ﷺ يخشى على نساء أمته أن يلبسن ثياباً تصف الحجم، وهذا يختلف عن الشرط السابق الذي يخشى فيه ظهور اللون لرقة الثوب.

رابعاً: ألا يكون الثوب معطراً مبخراً.

رسول الله ﷺ يقول في حديثه الشريف بأنه:

«إذا استعطرت المرأة فمرت على القوم ليجدوا من ريحها فهي زانية».

خامساً: يجب ألا يشبه الثوب لباس الرجل.

لقول رسول الله ﷺ:

«لعن الله الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل، كما لعن المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال»[١].

سادساً: ألا يشبه الثوب زي الكافرات.

المسلمون مطالبون في كثير من آيات القرآن ألا يبتغوا أهواء الكفار بعد ما جاءهم من البينات من ربهم، وكان ﷺ يتحرى مخالفتهم في كل شيء حتى في الهيئات البسيطة مثل فرق الشعر أو إسداله، وقد قال عبد الله بن عمرو بن العاص لقد رأى رسول الله ﷺ عليَّ ثوبين معصفرين ـ عليها نقوش ـ فقال: أما هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها.

سابعاً: ألا يكون ثوب شهرة.

يقول رسول الله ﷺ:

«من لبس ثوب شهرة ألبسه الله يوم القيامة ثوباً مثله ثم ألهب فيه ناراً».

وبعد، فإني لا أعرف من تزعم الإيمان بالله، وباليوم الآخر وبعد كل هذا، تصر على ما هي فيه مستكبرة، وكأنها لم تسمع شيئاً.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧، ٨].

* * *

(١) أخرجه البخاري في اللباس، باب المتشبهون بالنساء (٥٨٨٥).

الدرس الثالث

مسؤولية
التربية في الإسلام

مناهج التربية
في مجـالات الحـيـاة

لقد عرفت البشرية في تاريخها الطويل نوعين من مناهج التربية هما: المنهج الإلهي، ثم المناهج الأرضية على إختلافها وتعددها تبعاً لتصوراتها لطبيعة الحياة والإنسان، ولطبيعة العلاقة بين الفرد والمجتمع، وبين المجتمعات بعضها ببعض، وللحق فما أثرت هذه المناهج الأرضية إلا عدواناً من الإنسان وعلى الإنسان، فقد رأينا:

أولاً: مناهج تتعامل مع الإنسان على أنه روح تبغي الخلاص فتدير رأسها للحياة والأحياء.

وثانياً: مناهج تتصوره جملة من الغرائز والشهوات الشرهة إلى الاشباع فيقع التصادم والصراع.

ثالثاً: مناهج تراه ترساً في آلة أو فرداً في قطيع.

رابعاً: مناهج تجعله سيداً مقدماً لا يحول بينه وبين رغائبه حائل ولو كانت عقائد الأمة وقيمها ومصالحها.

وغيرها من المناهج، ورغم الخلاف المديد بين هذه المناهج إلا أن القاسم المشترك بينها جميعاً هو فقدان التوازن والتكامل والاعتدال وذلك شأن كل بدع للبشر في مجال العقائد، والقيم، والمناهج والنظم.

من هنا نشأت الحاجة الماسة إلى التعرف على منهج الله، ليس في مجال التربية فحسب، وإنما في كل مجالات الحياة، ولا أعني بالتعرف عليه، معرفة خصائصه، ووسائله، وحسناته في عالم الأذهان، وإنما العيش به وجني ثماره في عالم الواقع، ولا أخال عاقلاً يخالفني، أن خالق النفس، وخالق الحياة هو أدرى بهما وأخبر.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ومن كانت هذه صفته كان بتنظيم الحياة أولى وأجدر.

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

الإسلام نظام كامل للحياة، والمسلمون أمة ذات رسالة، ففي قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

لذلك فإن منهج التربية في الإسلام يخدم هذا النظام، ويدفع نحو تلك الغاية، فهو يقيم الإسلام في نفسه قبل أن يدعو إليه الناس، ولما كان الفرد هو لبنة المجتمع فقد وجه له الإسلام عنايته أولاً، فعامله على أنه مادة، وعقل وروح لكل منها إحتياجه وضروراته، فكفل له زاده، إلا أنه ركز على ما يميزه عن سائر المخلوقات وهو العقل والروح، ففتح أمامه مدارج الرقي إلى غير ما حد، وبذلك عصمه من الهبوط والتدلي، وحماه من التمزق، وإنفصام الشخصية.

العقائد والقيم والعبادات بأنواعها ما هي إلا وسيلة للتربية الزكية وذلك في الآيات القرآنية الكريمة:

- ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].
- ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].
- ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].
- ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

والتربية الإجتماعية شرط تكوين المجتمع الفاضل، لذلك فقد أولاها منهج الله اهتماماً لا مزيد عليه، نوجزه في مجموعة من الآية الكريمة:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

ومن الأحاديث الشريفة لرسول الله ﷺ إذ يقول:

- «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[١].
- «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١٣)، ومسلم في الإيمان، باب نفي الإيمان عمن لا يحب لأخيه وجاره ما يحب لنفسه (٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب رحمة الناس (٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم (٢٥٨٥).

● «الناس سواسية كأسنان المشط».
● «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[1].

والعلاقة بين السلطة والرعية تتمثل في قول عمر رضي الله عنه: متى إستعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!

وقول الاعرابي: والله لو وجدنا فيك إعوجاجاً لقومناك بسيوفنا، ورد الفاروق عليه: الحمد لله الذي جعل في أمة محمد ﷺ من يقوم إعوجاج عمر بسيفه.

والعلاقة بين التربية والتشريع، علاقة تفاعل، وتكامل فقد رأينا من المسلمين من إقترف خطأ في جنح الظلام بعيداً عن الأعين والآذان، ثم جاء مختاراً معترفاً بخطئه طالباً للحد أن يقام عليه، وأيضاً فإن التشريع عباداته وحدوده وسيلة من وسائل التربية، بإحياء وازع في النفس، وإقامة رادع السيف، فإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

هذا المنهج لم يكن صوراً في الخيال أو كلاماً في الجدال، وإنما قامت به أمة فسعدت، وقادت به البشرية دهراً من الزمان غير قليل فأسعدها، واليوم يحتاج العالم إلى هذا المنهج أكثر من حاجته إليه يوم جاء الإسلام، فمن له غير المسلمين، فهل ينهضون؟.

* * *

(١) أخرجه البخاري في العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق (٢٥٥٤)، ومسلم في الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل (١٨٢٩).

مفاهيم في التربية

التربية معناها إيصال أَلْمُرَبَّى إلى مرتبة الكمال التي هي لها، والتربية هي حيثية إيماننا بألوهية الله، فنحن آمنا بالله معبوداً لأننا آمنا به رباً، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا أن نوجه الحمد لصاحب النعمة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وحيثية ذلك أنه ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

إذاً، فالتربية مأخوذة من حيثية إيماننا بالله، ولكن تربية المخلوق للمخلوق هي تربية من خُلِقَ لمن خُلِقَ، ولكن تربية الله للخلق هي تربية من خَلَقَ لمن خُلِقَ، فالفارق كبير جداً بين التربية التي أخذها خليفة الله، ومن التربية التي كانت له.

وإذا كانت التربية تعني إيصال أَلْمُرَبَّى إلى الكمال الذي هيء له، فلا بد أن يعرف أَلْمُرَبِّي ملكات أَلْمُرَبَّى حتى لا يربي ملكة على حساب ملكة، فيحصل التمزق في أَلْمُرَبَّى، والقلق النفسي بين ملكاته والتضارب بين مقوماته.

الإنسان هو كُلّ مركب من جزئين أساسيين، ولكنه مع كونه كلاً مركباً من جزئين أساسيين فهو جزئي أيضاً يعيش مع كُلّ مثله، فما هو الفرق بين الكل في الإنسان وبين الجزئية فيه؟ في الكل لا يصح لي أن أقول، الخشب كرسي، لأنه جزء فقط، وعن حقيقة الجزء الآخر، فمثلاً كلمة الكرسي الذي أجلس عليه كُلّ لأنه مكون من أجزاء، أجزاؤه الخشب والمسمار والجلد والطلاء الذي طلي به كل جزء من هذه الأجزاء، له مقوم خاص يختلف به عن المقوم الآخر، فإذا اجتمعت هذه الأجزاء وجد ذلك الكل، فأنا لا يصح لي أن أقول، الخشب كرسي لأنه جزء فقط، ولا المسمار كرسي، ولا الجلد كرسي، ولا الطلاء كرسي، ولكن مجموع ذلك هو الكرسي، فذلك معنى الكل.

كذلك الإنسان كل أجزائه الأساسية هي المادة والروح، الروح ليست من الأشياء التي تنفصل، ولها عناصرها لأنها من أمر الله، وذلك سر إستأثر الله به، ولكن المادة وهي الجسم مركبة من عناصر وأجزاء، هذه العناصر والأجزاء حينما تندمج معها الروح توجد فيها حياة، وحين توجد فيها حياة، توجد لذلك الإنسان ملكات نفسية وأجهزة متعددة: فله عقل، وله بطن، وله عواطف، وله غرائز، وله

وجدانات، وله مشاعر، وله أحاسيس، كل ذلك أثر لوجود الملكات المتعددة فيه.

والذي يقنن للإنسان على أنه بطن فقط، قد قنن لملكة فيه دون ملكة، وذلك هو المذهب المادي الاقتصادي. والذي يقنن للإنسان على أنه عقل فقط، تلك هي المدرسة العقلية، والذي يقنن للإنسان على أنه عاطفة فقط، ذلك أمر الأدباء والفنانين، والذي يقنن للإنسان على أنه غرائز فقط، ذلك أمر الوجوديين.

إذاً، فلا يمكن لإنسان أن يضع قانون التربية لذلك الكل، إلا إذا عرف حقيقة أجزائه المكونة له، حتى لا يقنن لملكة على حساب أخرى، وإنما يقنن لكل الملكات حتى يسير الإنسان في مستوى مستقيم متعاضد لا متعاند.

وبينما نجد الإنسان كلياً، نجده أيضاً جزئياً، وما معنى الجزئي؟ الجزئي هو أصل الكلي، والكلي شيء مكون من جزئيات كل جزئية من حقيقة الجزئية الأخرى، فالإنسان كُل جزئياته زيد ومحمد وبكر وعلي، زيد ومحمد وبكر وعلي لا يختلفون في شيء من حقيقة تكوين الإنسان على أنه ناطق. إذاً، فمن المعقول أن أقول: زيد إنسان، محمد إنسان، وعلي إنسان، ولكن لم أستطع قبل ذلك أن أقول في الجزء: الخشب كرسي ولا المسمار كرسي، فهذا هو الفارق بين الكل، وبين الكلي.

التربية الإسلامية حين نضع منهجها، إنما نضع منهج الله الذي خلق الإنسان، وما دام الله هو الذي خلق الإنسان، فصاحب الصنعة الذي صنعها هو أعلم بها، وهو الذي يقنن لها، أما أن يخلق رب، وبعد ذلك يأتي إنسان ليقنن لما خلق الله، إستحالة في عرف العقل، فإذا كان الحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق، فالحق أيضاً هو الذي قنن.

وحتى يعلم الإنسان حظه من التربية ككل، ويعلم حظه من التربية كجزئي لكلي، يجب أن نفرق بين التربية المادية، والتربية القيمية المعنوية.

التربية المادية تتعلق بالإنسان منشأ وإجتماعاً لعناصر تكوينه، وحملاً من المرأة، وإرضاعاً له، وحضانة وتربية لجسمه حتى يبلغ المستوى الذي يهئ له كماله الإنساني، هذه المسألة وضع الإسلام لها أصولاً، هذه الأصول لا تولد مع الوليد، ولكنها تسبق الوليد، لماذا؟ لأنها تعرضت إلى النوعين اللذين ينشأ عنهما ذلك الإنسان قبل أن يوجد ذلك الإنسان.

إذاً، النظرية الإسلامية قد إحتاطت جداً للوليد حتى قبل أن يوجد ذلك الوليد، إيماناً منها بأن الموروثات من النوعين، الذكور والإناث ليلتقيا معاً لإيجاد

إنسان، وإنجاب فرد بعد ذلك، فجاء الإسلام فبدأ مهمة التربية من اختيار النوعين الذكورة والأنوثة ليلتقيا لإيجاد أنساب وإنجاب فرد جديد، فماذا قالت النظرية الإسلامية؟.

النظرية الإسلامية قالت بالتكافؤ بين النوعين، ليس معنى التكافؤ في النظرة الحمقى كما يريدها كثير من الماديين بأن يكون التكافؤ في الغنى، وإنما التكافؤ في جواهر الأشياء، لا في أعراضها، تكافؤ نفسي، تكافؤ صحي، تكافؤ خلقي، تكافؤ قيمي.

الإسلام يضع هذه المسألة نصب عينيه قبل أن يبدأ في تربية الوليد، لأنه يريد أن يضمن للوليد وعاء صالحاً ينتج منه ذلك الولد، هذا الوعاء الصالح سيحمل بقانون الوراثة في نوعيه، أي في أبويه صفات، وهذه الصفات ستكون محور التربية فيما بعد، فلذلك يقول رسول الله ﷺ:

«تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس».

وبعد ذلك تعظنا السنة بعد أن وعظنا القرآن، في أن نتجنب القريبات حين نتزوج، لأن القريبات حين يتزوج منهن الإنسان يؤول أمر النسل إلى ضعف، أما إذا إغترب ـ أي تزوج من غير ذي قربى ـ فإنه يؤول أمر النسل إلى قوة، ولذلك يقول رسول الله ﷺ:

«إغربوا ولا تضووا».

وفي العلم التجريبي الحديث أجريت التجارب في عالم النبات على أن يكون النوعان بعيدين، وحصلت نتيجة سارة أتت من الذرة في أمريكا أضعاف أضعاف، ما كانت تؤتيه قبل تفرق الذكورة والأنوثة. التجربة التي أجريت هذه يسمونها، تربية الهجين، أي كلما ابتعد الجنسان، الذكورة والأنوثة، كلما كانت الحصيلة أقوى.

إذاً، نلمح بواسطة العلم التجريبي، أن القرآن حينما حرم زواج الأمهات، وزواج البنات، وزواج القريبات من الأدنى، إنما حرص على أن يوجد النسل القوي، وإذا ما ابتعد الإنسان بهذه القرابة كان ذلك معناه إيجاد نسل قوي، ففي قول رسول الله ﷺ: «إغتربوا ولا تضووا»، أي لا تهزلوا وتضعفوا.

ويقول في وصف الشجاع:

فتى لم تلده بنت عم قريبة فيضوى ... وقد يضوى سليل الأقارب

وحين يوجهنا القرآن، وتوجهنا السنة الشريفة إلى هذا، يكون قد لوحظ أول

شيء في التربية أن يكون الوليد، الذي يؤمل عطاؤه من الله أن يكون، وليداً قوياً في خصائصه لأنه لن يجمع خاصيته جنى واحد ولا نوع واحد فيما إذا كان تزوج بقريبة، ولكنه حين يتزوج من بعيدة، من غير الأهل يأخذ القوة، ومن هنا ينشأ ذلك الوليد القوي.

وبعد ذلك ينطلق الإسلام إنطلاقة وإن كانت هينة إلا أن لها تأثيراً قوياً في نفسية الوليد بعد أن يوجد.

* * *

اختيار اسم المولود

التشريع تدخل في اطلاق الاسم على الوليد، فالرسول ﷺ يقول:
«أحسنوا أسماءكم فإنكم ستدعون يوم القيامة بأسمائكم».

ويضع الرسول ﷺ تجربة تطبيقية، فيُنَفِرُ من الأسماء التي لا معنى لها، ولا تسر لها النفس، فمثلاً سار الرسول مرة في طريق، وكان ذلك الطريق بين الجبلين فسأل عن اسم الجبلين؟ فقيل له: ذلك مخزي، وهذا فاضح، فلم يسير الرسول ﷺ بين هذين الجبلين، المخزي والفاضح.

رسول الله ﷺ أراد أن تحلب له لقحة ـ شاة ـ فانتدب صحابياً ليحلبها..

فقال الرسول: من يحلب هذه اللقحة؟

قال الرجل: أنا.

وقال الرسول: ما اسمك؟

قال الرجل: مُرَّةٌ!

فقال الرسول: إجلس ... ثم انتدب آخر.

فقال الرسول: ما اسمك؟

قال: اسمي حرب.

وقال الرسول: إجلس ... ثم انتدب ثالثاً.

وقال الرسول: ما اسمك؟

قال الرجل: اسمي يعيش.

فقال الرسول: إحلب.

هذا يدل على أن من حق الوليد أن يحسن أبواه اسمه، وبعد ذلك تأتي مسألة الرضاع فيقرر القرآن الحق بأنه يجب أن يكون للوليد رضاعة فقال:

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

الطفل وعاطفة الأم

الدراسات النفسية والطبية دلت على أن الزمن الضروري حتى يتغذى الطفل من لبن أمه هو حولين كاملين ـ عامين ـ، وبعد ذلك يحرص على أن تكون الأم

هي المرضعة ولو كان ذلك بعد الإنفصال، وعلى الأب أن يدفع لها الرضاع ـ تكلفة الإرضاع ـ وبعد ذلك ينتقل من الرضاع إلى مرتبة الحضانة فيعطى الطفل لمن يناسب عمر تكوينه فيجعل الحق للأم لأن الطفل في صغره ليس محتاجاً إلى العقل الحازم الجازم، ولكنه يحتاج إلى حنان، إلى العاطفة الرقيقة التي تناسب طبيعة تكوين الأم.

الإسلام يسير في منهجه نحو التربية، فماذا تكون التربية؟ التربية لا يمكن أن يصلح لها فرد واحد، ولا جهد واحد، فللمادة من يقوم عليها، وللعقل من يقوم عليه، وللعواطف من يقوم عليها، وللعلم والمعرفة من يقوم عليهما. والوليد لا يحضر إلى المعلم إلا بعد فترة طويلة، هذه الفترة الطويلة ليس معناها أنه ليس أهلاً للتربية، ولا موضعاً لها، ولكنه أهل للتربية في موضع لا يحسن فيه إلا الأم، ولا يحسن فيه إلا الأب، ولا يحسن فيه القرابة المحيطة به لأن الحقائق التي تتواجد في نفس الطفل ليس من غرس المعلم فحسب، ولكنها توجد وقت أن تتفتح أذنه ليسمع، وعينيه ليرى، وحين يرى التصرفات من حوله فتنطبع في نفسه مقومات إنطباعاً وإن كان بطيئاً.

الإسلام يحرص على أن ينمي في الناس عاطفتهم نحو أبنائهم الصغار حتى لا يصابوا بشذوذ، ولا بإنحراف، ولا بعقد، ولا بمركب نقص.

الرسول ﷺ، وأنتم تعلمون أن الصلاة كانت قرة عينه، وأنه كان يقف بين يدي ربه إلى أن تتورم قدماه، ولكنه حين يكون في الصلاة، ويسمع بكاء طفل يسرع في صلاته، تلك تربية للعاطفة بالنسبة للطفل الصغير الذي لا يعرف أسباب ما يوجعه، ولا ما يؤلمه حتى يسرع الإنسان في علاج هذه الحالة.

الرسول ﷺ يسرع في صلاته حتى يقوم بهذه المهمة التربوية الأساسية، بعد ذلك يتجه إلى ناحية قوية، وهي ناحية المربي حين يفاضل بين المربين، لماذا؟

إمتياز الصغير بالحب

التفاضل بين المربين هو في أن يعطف على هذا، ولا يعطف على ذاك، يحب هذا ولا يحب ذاك، في تلك الأثناء تتربى عند الذي يأخذ الحق الأقل عقدة مركب النقص، وحين تتربى عنده عقدة مركب النقص يستشعر أنه ليس إنساناً سوياً، كذلك الإنسان الذي يحب أكثر.

القرآن يعرض في بعض اللقطات التي عرضها في قصص، ففي سورة يوسف هذه اللقطة.

﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: ٨].

إذاً، فإيثار فرد بالحب عن الآخرين، ينشيء في نفس الآخرين عقدة النقص، هذه العقدة قد تؤدي إلى أن يكون السلوك غير منطبق على المبدأ الخلقي، ولذلك حينما أحس إخوة يوسف بأن يوسف أحب إلى أبيهم منهم. ففكروا في ماذا؟ فكروا في أن يزيحوا ذلك المحب من طريقهم وقالوا؛ نحن عصبة.

الاخوة لو أنهم فهموا بعض الفهم ليعرفوا بأنهم جاؤوا بحيثية امتياز ذلك الصغير بالحب لأنهم عصبة، ولأنهم أشداء، وهو صغير من يعطف عليه؟ فلا تقيسوا العطف والحب هنا على العطف والحب عليكم لأنكم إجتزتم المرحلة التي يعوزكم فيها العطف والحب، وهو في المرحلة التي ينفع فيها العطف والحب.

الإنسان منا يحب صغيره قطعاً، لماذا يحبه؟ لأنه يعتقد أن ذلك الصغير بالنسبة لاخوته هو أقصرهم عمراً معه ـ مع أبيه ـ فيشعر مع ذلك الصغير الذي هو أقصر أبنائه عمراً معه، إنه في حالة من العجز إلى كثير من الحب، فلو أن الكبار فهموا تلك العلاقة لما جعلوها عيباً في الأب، ولا أخذوها سبب حقد على ذلك الابن.

ونلاحظ ظاهرة نفسية تبين لنا مدى عنصر الخير حين يفكر في الشر، ومدى عنصر الشر حين يفكر في الشر، الخير حين يفكر في الشر لا يصعد الشر، ولكنه يتنازل في الشر فبعد أن فكر إخوة يوسف في القتل، فكروا في إلقائه في الأرض، ثم فكروا في إلقائه في الجب ليلتقطه بعض السيارة ـ المارة ـ إذاً، فقد خففت المسألة. الذي يقول أن إخوة يوسف كانوا يفكرون في ذلك الشر نقول لهم، فكروا في الشر على ظاهرة أغيار الشر وإنفعال الخلق، ولكن انظر، هل وصلوا في الشر مبلغاً أعلا مما فكروا فيه أو لا، أم أنهم تدنوا في الشر؟ تلك طبيعة تدل على طبيعة الخير في نفوسهم.

* * *

المساواة بين الأبناء

الذي يدلك على أن العقدة التي تترسب في الإنسان من أي لون من ألوان الانفعال الخاص بالعاطفة تتركز فيه، وتسيطر على كل تصرفاته حتى بعد أن يكبر عقله. انظروا إلى إخوة يوسف بعد أن ذهبوا إلى أخيهم وقد صار عزيزاً لمصر ـ أي الوزير الأول لمصر ـ وبيده خزائن الأرض، ذهبوا ليطلبوا القوت، وبعد ذلك إحتال يوسف ليبقي أخاه عنده، ماذا قالوا؟ قالوا:

﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ [يوسف: ٧٧].

الأصل لا يزال موجوداً وهو الانفعال. إذاً، فالمنهج الإسلامي حينما يعرض فكرة المساواة بين الأبناء، أو بين القوم الذين وُكِّلَ إلى الإنسان تربيتهم، قد يكون في بعضهم مخايل تُحَبّ، وفي بعضهم مخايل لا تُحَبّ، ولكنهم في موضوع التربية سواء، وهذه التربية ليس معناها أن نسموا بأهل المواهب إلى ما فوق، ولكن أن نأخذ بيد العاجزين حتى نسير بهم إلى مرتبة المواهب، وبذلك يمتاز مُرَب عند مربٍ.

الأستاذ مثلاً يحب تلميذاً نجيباً، ولكنه ألا يشعر غير النجيب بأنه يُحب النجيب أكثر منه، ولكن عليه أن يعتذر لغير النجيب بأعذار ولو كانت أعذار صورية حتى يقتلع من نفسه فكرة أنه يحب هذا أكثر منه، لأنه إذا استقر في نفسه ذلك فسوف يكون الأستاذ مبغوض التوجيه، وسوف لا يحترمه الموجه، ولكنه إذا خلع على تقصير تلميذه سبباً من الأسباب التي تبرره كأن يقول له مثلاً: إنك لست اليوم عادياً، إنني أراك غير ملتفت، ولذلك يجب أن يبحث عما وراء ذلك من إنفعالات، فيسأله ما هي الظروف التي تمنعك أن تكون معي؟.

حين يستشعر المقصر أنك معه بعقلك، ومعه بعواطفك، ومعه بحبك، وسألته عن أموره الخلفية التي تجعله مقصراً يعلم أنك تحبه، وأنك حريص على أن تأخذ بيده، وأيضاً إذا ما قصر تلاميذ فيجب ألا يجابه المقصر مجابهة تشعره بموضعه من النقص لأنه سيتجمد على ذلك وبعدها لا يبالي مدحه أو ذمه، لأنه وضع في نفسه ذلك الوضع.

ولذلك فإن التربية الإسلامية حين يعرضها لنا حديث رسول الله ﷺ يقول: ما بال أحدكم يفعل كذا؟!. الرسول لم يواجه من فعل بفعله حتى لا يخجله، وحين لا يخجله يكون حريصاً على كرامته في المجتمع ولا ينذره، ويكفي أن يُعْلِمَ نفسه أنه قد قصر، لكن لا يعلم غيره أنه هو الذي قصر.

ويأتي رسول الله ﷺ بالمنهج الأساسي في التربية وهو أن يحسن المربي بأن يأخذ المُرَبيَّ من أقصر طريق إلى موضع الحق في أي قضية من القضايا. هذه القضايا قد تكون قضايا صعبة للعقل فيها وقفة، لكن لباقة الأستاذ وحسن استعداده، وإتساع ثقافته تجعل من هذه كلها أدوات تعينه على أنه يصل بالمربي إلى الحقيقة التي يريدها من أيسر طريق إلى الفهم وبأقل وسيلة في الاقناع.

* * *

أسلوب التربية

رسول الله ﷺ يجيئه رجل يحب النساء فيقول للرسول: يا رسول الله أأمرني بالنسبة للنساء أن أفعل كذا وكذا! الرجل صادق أمام نفسه لأن الرسول طبيب، وليس من العيب أن يجاهر المريض بدائه لأن إخفاء دائه لا يشفيه، ولكن المجاهرة بدائه تعين الطبيب على تشخيص مرضه، وقرب العلاج بالنسبة له، فيقول له الرسول: أتحب ذلك لأمك؟ الرسول ﷺ جاء له بأبغض شيء يكرهه، وهو أن يرى الإنسان أمه منحرفة مع منحرف، فاقشعر بدن الرجل.

ويقول له الرسول: أتحب ذلك لزوجتك؟

قال الرجل: لا.

وقال الرسول: أتحب ذلك لابنتك؟

قال: لا.

ثم قال الرسول: كذلك الناس يا أخا العرب لا يحبون ذلك لأمهاتهم ولا لزوجاتهم ولا لبناتهم.

فقال الرجل: فوالله ما همت نفسي بمعصية من ذلك النوع إلا ذكرت أن يفعل بأمي أو بزوجي أو بابنتي فأمتنع.

إذاً، الرسول ﷺ جاء له إلى تبشيع المسألة من أقرب طريق يتصل به، وبكرامته وبعواطفه وبمكانته وبمقامه، فإذا ما أراد أن يفعل ذلك تذكر ما يمكن أن يفعل به، ذلك هو أمر المربي.

ويأتي بعد ذلك دور أساسي في نقل حصيلة التجارب الإنسانية إلى ذهن الْمُرَبَّى. لأن الْمُرَبَّى لا يمكن أن يأخذ تجارب الحياة من أولها، بل هو يأخذ التجارب إلى نهاية العمر، ولكن هذه التجارب موصولة دائماً بمجربين كفء، فهو لا يبتدئ ليجرب أقضية الحياة، فمن الذي ينقل له التجربة نقلاً أميناً صادقاً؟ إنه العلم.

إذاً، العلم هو وسيلة التربية، ولكن العلم حين يربي يحارب ماذا؟ العلم يحارب أمرين: يحارب أمية، ويحارب جهالة. العلم دوره في محاربة الأمية أقل

خطراً من دوره في محاربة الجهالة، ولعل السطحيين في معرفة كنه الألفاظ يظنون أن الجهالة هي ألا تعلم وهي والأمية سواء، لا، الجهالة شيء والأمية شيء آخر!! والأمية هي ألا يعلم الإنسان نسبة ما، فيقال له: أمي، يعني كما ولد من بطن أمه، كما قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨].

إذاً، فالأمية أن لا تعلم نسبة من النسب، أو قضية من القضايا، أو حقيقة من الحقائق. ولكن الجهالة غير ذلك، الجهالة أن تعرف نسبة خطأ، وهنا يكون علاج الجهالة أقسى من علاج الأمية لأن علاج الجهالة يتطلب مجهودين.

الأول: أنك تزيح من نفسك ما أدرك من خطأ.

والثاني: تقرر في نفسه المقابل، وهو الحق.

إذاً، فهنا عمليتان تربويتان عقليتان، ولكن الأمية تكتفي بأن تعطي له الحقيقة وهي بأنه ليس عنده نسبة أبداً، ولذلك حينما تكلموا عن العلم تكلموا عما يقابل العلم.

نصيحة أم أياس لابنتها

وهذه نصيحة أم أياس العشرة لابنتها: أي بنية، إعلمي لو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أهلها لكنت أغنى الناس! ولكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال، ويا ابنتي إحفظي عني عشر خصال تكن لك ذخراً.

الأولى والثانية: فالمعاشرة له بالرضى، والقناعة، وحسن السمع، والطاعة.

الثالثة والرابعة: فالتفقد لموضع أنفه، وموضع عينه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشمن منك إلا ريح طيب.

الخامسة والسادسة: فالهدوء عند منامه، والتفقد لوقت طعامه، فإن مرارة الجوع ملهبة، وتنغيض النوم مغضبة.

السابعة والثامنة: فالاحتفاظ بماله، والارعاء على حشمه وعياله.

وأما التاسعة والعاشرة: فإياك أن تعصي له أمراً، أو تفشي له سراً، فإنك إن عصيت أمره أوغرت صدره، وإن أفشيت سره لم تأمني غدره.

وأعظك بعد ذلك من الفرح إن كان ترحاً، أو من الترح إن كان فرحاً.

القسم الثاني

الدرس الأول

صفات الزوجة الصالحة

حكمة وجود الزوجية

إن الزواج هو أساس المجتمع، وأية حركة في الحياة وفي المجتمع تستند في الأساس على مسألة الزواج.

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يضمن الاستقرار والسعادة للكائن الذي كرّمه وجعله خليفة في الأرض، وجعل كل الأجناس مسخَّرة لخدمته.

يريد الحق سبحانه أن يصدر ذلك الكائن عن ينبوع منهجي واحد، لأن الأهواء المتضاربة هي التي تفسد حركة الحياة، فأراد أن يصدر المجموع الإنساني كله عن ينبوع عقدي واحد، وأراد أن يحمي ذلك الينبوع من أن يتعثر بتعدد النزعات والأهواء؛ ولذلك ينبهنا سبحانه إلى هذا الموقف، وهو ـ عزّ وجلّ ـ يريد سلامة الوعاء الذي سيوجد ذلك الإنسان، بعد الزواج، فبالزواج ينجب الإنسان وتستمر الحياة بالتكاثر، ولذلك لا بدّ من الدقة في اختيار الينبوع الذي يأتي منه النسل، ومن هنا تأتي أهمية اختيار الرجل للزوجة المؤمنة الصالحة، وكذلك اختيار المرأة للزوج المؤمن الصالح.

إن للإنسان عمراً محدوداً في الحياة وسينتهي؛ لذلك يجب أن يستبقي الإنسان النوع في غيره، كيف؟ نحن نتزوج كي يرزقنا الله بالذرية والبنين والحفدة وتستمر حلقات، وهذا استبقاء للنوع الإنساني.

والحق سبحانه يريد أن يكون الاستبقاء للنوع كريماً؛ لذلك يأمرنا الحق سبحانه أن نستبقي النوع بأن نختار له الوعاء الطاهر، فإياك أن تستبقي نوعاً من وعاء خبيث نجسٍ، اختلطت فيه مياه أناس متعددين، فلا يدري أحد لمن ينسب الولد فيصير مضيعاً في الكون، مجهول النسب؛ فأوضح الله للإنسان أن يختار لنفسه الوعاء النظيف ليستبقي النوع بكرامة.

والحصول على الزوجية النظيفة يكون بالزواج. فيختار الرجل أنثى عفيفة ذات دين وترضى به زوجاً أمام أعين الناس جميعاً، ويصير معروفاً للجميع أن هذه امرأة هذا، وهذا زوجها، دخوله وخروجه غير ممقوت أو موقوت. وما ينشأ من الذرية بعد ذلك يكون قطعاً منسوباً إليه، ويخجل الإنسان أن يكون ابنه مهيناً أو

عارياً أو جائعاً أو غير معترف به؛ لذلك يحاول الأب أن يجعل من ابنه إنساناً مستوفياً لكل حقوقه مرفوع الرأس غير مهين، لا يقدحه واحد فَيَسُبَّهُ وينال منه قائلاً: جئت من أين؟ أو من أبوك؟ فلا يعيش الطفل كسير الجناح ذليلاً طوال عمره. فأراد سبحانه استبقاء النوع برابطة تكون على عين الجميع، وأن تكون هذه الرابطة بالطريق الشرعي.

ومن العجيب أننا نجد هذه المسألة ذات آثار واضحة في الكون، فالتي تحاول أن تزيل أثر جريمتها يجبرها الحنان الطبيعي كأم ألا تلقى ابنها الوليد في البحر بل أمام مسجد؛ فالطفل مربوط بحنان أمه ولكن الحنان غير شرعي ولذلك ترمي الأم الزانية بطفلها أمام المسجد حتى يلتقطه واحد من الناس الطيبين، فالزانية نفسها تعرف أنه لا يدخل المسجد إلا إنسان طيب قد يحن على الوليد ويأخذ هذا الطفل ويصير مأموناً عليه.

وهي لا تلقي بوليدها عند خمارة أو دار سينما، ولكن دائماً تضعه عند أبواب المساجد، فالحنان يدفعها إلى وضع الطفل غير الشرعي في مثل هذا المكان؛ لأنها تخاف عليه، لذلك تلفه وتضعه في أحلى الملابس، وإن كانت غنية فإنها تضع معه المال؛ لأن الحنان يدفعها إلى ذلك، والحياء من الذنب هو الذي يجعلها تتخلص من هذا الطفل.

إنها ـ كما قلنا ـ: تحتاط بأن تضعه في مكان يدخله أناس طيبون فيعثر عليه رجل طيب، يأخذه ويكون مأموناً عليه. إذن: فحتى الفاسق المنحرف عن دين الله يحتمى في دين الله؛ وهذا شيء عجيب.

والله سبحانه يريد أن يبني بقاء النوع على النظافة والطهر والعفاف ولا يريد لجراثيم المفاسد أن توجد في البيوت؛ لذلك يشرع العلاقة بين الرجل والمرأة لتكون زواجاً أمام أعين الناس، ويأخذ الرجل المرأة بكلمة الله.

ومثال ذلك أننا نجد الرجل الذي يحيا في بيت مُطلٍّ على الشارع وله ابنة وسيمة والشباب يدورون حولها، ولو عرف الرجل أن شاباً يجئ ويتعمد لينظر إلى ابنته فماذا يكون موقف الرجل من الشاب؟ إن الرجل قد يسلط عليه من يضربه أو يبلغ ضده الشرطة ويغلي الرجل بالغيظ والغَيْرة.

لكن ما موقف الرجل نفسه عندما تدق الباب أسرة شاب طيب يطلبون الزواج من ابنته؟ يفرح الرجل ويسأل الابنة عن رأيها، ويبارك للأم ويأتي بالمشروبات ويوجه الدعوات لحفل عقد القران، فما الفرق بين الموقفين؟

لماذا يغضب الأب من الشاب الذي يتلصص؟ لأن هذا الشاب يريد أن يأخذ البنت بغير حق الله، أما الشاب الذي جاء ليأخذ الابنة زوجة بحق الله وبكلمة الله فالأب يفرح به وينزل الأمر عليه برداً وسلاماً. وبعد ذلك يتسامى الأمر، ويتم الزفاف ويزور الأب ابنته صباح الزفاف ويرغب أن يرى السعادة على وجهها.

إن الفارق بين الموقفين هو ما قاله الرسول ﷺ: «الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم لا تكلِّفوهم ما لا يطيقون، الله الله في النساء فإنهن عَوان (أسيرات) في أيديكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»[1].

وما دام الله سبحانه هو الذي خلق الرجل والمرأة وشرع أن يجتمعا، تكون كلمة الشاب: «أريد أن أتزوج ابنتك» برداً وسلاماً على قلب الأب، ويكون الفرح والاحتفال الكبير؛ لأن هذه مسألة عفاف وطهر. والله تعالى يريد أن يجعل استبقاء النوع الإنساني استبقاءً نظيفاً لا يُخجل أن تجيء منه ولادة، ولا يخجل منه المولود نفسه، ولا يُذَم في المجتمع أبداً، إذا استبقينا النوع بهذا الشكل؛ فهذا هو الاستبقاء الجميل للنوع. واستبقاء النوع هو الذي تأتي من أجله العملية الجنسية، وأراد الله سبحانه أن يشرعها حلالاً على علم الناس ويعرفها الجميع.

وقد سألني سائل: لماذا تقوم العلاقة بين الرجل والمرأة على كلمات نحو: «زَوَّجتك موكِّلتي، أو تقول هي: زَوّجتك نفسي» ويقبل الرجل، وتنكسر العلاقة بكلمة «هي طالق»؟ وأجبته: لماذا يستبيح الرجل لنفسه أن يمتلك بُضْع الزوجة بكلمتين؟ ويستكثر أن تخرج من عصمته بكلمتين؟ فكما جاءت بكلمة تذهب بكلمة.

إن الحق سبحانه وتعالى كما استبقى الحياة بالعناصر التي تقدمت، يريد أن يستبقي النوع بالعناصر التي تأتي، وبيِّن لنا أن كل كائن يتكاثر لا بدّ له من إخصاب، والإخصاب يعني أن يأتي الحيوان المنوي من الذكر لبويضة الأنثى كي ينشأ التكاثر، والتكاثر في غير الإنسان يتم بعملية قسرية.

ففي الحيوانات نرى الأنثى وهي تجأر بالصوت العالي عندما تنزل البويضة في رحمها كالبقرة مثلاً، حتى يقول الناس جميعاً: إن البقرة تطلب الإخصاب، وعندما يذهب بها صاحبها إلى الفحل ليخصبها تهدأ، ولا تمكن فحلاً آخر منها بعد ذلك، وهكذا يتم حفظ النوع في الحيوانات.

أما في النباتات؛ فالأنثى يتم تلقيحها لو على بعد أميال، ونحن نعرف بعض

---

(١) أخرجه الدارقطني في «سننه» (٤٠٧).

ذكور النبات وإناثها مثل ذكر النخل والجميز، لكننا لا نع رف التفريق بين ذكورة وأنوثة بعض النباتات، وقد يعرفها المتخصصون فقط، وبعض النباتات تكون الذكورة والأنوثة في عود واحد كالذرة مثلاً؛ فالأنوثة توجد في «الشراشيب» التي توجد في «كوز» الذرة، وعناصر الذكورة توجد في السنبلة التي يحركها الهواء كي تنزل لتخصب الأنوثة، وكذلك القمح. وهناك أنواع من النباتات لا نعرف ذكورتها! فهل يوجد من عنده ذكر مانجو أو ذكر برتقال؟

إذن: هناك أشياء كثيرة لا نعرفها، لكن لا بدّ من أن تتلاقح إخصاباً لينشأ التكاثر، فيبيِّن لنا الحق سبحانه أن؛ اطمئنوا فقد جعلتُ الرياح حاملة لوسائل اللقاح، تأخذ الرياح اللواقح إلى النباتات، والنبات الذي يكون تحت مستوى الرياح يسخر الله له أنواعاً من الحشرات غذاؤها في مكانٍ مخصوصٍ من النبات وله لون يجذبها، فهناك حشرة يجذبها اللون الأحمر، وحشرة يجذبها اللون الأبيض؛ لأن الحشرة تذهب للذكورة فتعلق بها حبوب اللقاح، ثم تذهب إلى النبات الأنثى المتبرجة بالزينة، وهذه العملية تحدث وقد لا يشعر بها أحد.

من الذي يلقح؟ من الذي يعلمها؟ إنه الله القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، فاستبقى لنا الأنواع غريزيًا وقسرياً، بدون أن نعرف عن الكثير منها شيئاً، حتى المطر لا يمكن أن ينزل إلا إذا حدثت عملية تلقيح.

ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

إذن: فالله تعالى قد استبقى لك أيها الإنسان أنواع مقومات حياتك بما لا تعلم، وجعل هذه المسائل قسرية بحيث يؤدي كل كائن وظيفته وتنتهي المسألة، لكن حين كان لك اختيار، وتوجد مشقات كثيرة في الإنجاب وحفظ النوع، فقد قرن ـ سبحانه ـ حفظ النوع بالمتعة، وإياك أن تعزل حفظ النوع عن المتعة، فإن أخذت المتعة وحدها فقد أخذت الفرع وتركت الأصل، فلا بدّ أن تفعلها لحفظ النوع المحسوب عليك.

إذن: فإياك أن تلقى حيوانك المنوي إلا في وعاء نظيف، محسوب لك وحدك؛ كي لا تنشأ أمراض خبيثة تفتك بك وبغيرك، ولكيلا ينشأ جيل مطموس النسب، ولكيلا يكون مهيناً ولا مدنساً في حياته؛ فإياكم أن تأخذوا قضية حفظ النوع منفصلة عن المتعة فيها.

ولذلك فالحق سبحانه سيتكلم عن المرأة التي تتصل بامرأة بالسحاق، أو

الرجل الذي يكتفى بالرجل باللواط للمتعة، أو رجل ينتفع بامرأة على غير ما شرع الله. فعندما تنتفع امرأة مع امرأة، وينتفع الرجل بالرجل، نقول لها: أنت أيتها المرأة أخذتِ المتعة وتركت حفظ النوع، وأنت يا رجل أخذت المتعة وتركت حفظ النوع، والحق سبحانه يريد لك أن تأخذ المتعة وحفظ النوع معاً، ولا بدّ أن تكون المتعة في ضوء منهج الله.

والحق سبحانه هو القائل: ﴿وَٱلَّتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ١٥].

﴿وَٱلَّتِي﴾ اسم موصول لجماعة الإناث، وأنا أرى أن ذلك خاص باكتفاء المرأة بالمرأة.

وماذا يقصد الحق سبحانه بقوله: ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ﴾؟ إنه سبحانه يقصد به حماية الأعراض، فلا يلغ كل واحد في عرض الآخر، بل لا بدّ أن يضع لها الحق سبحانه احتياطاً قويًا، لأن الأعراض ستُجرح، ولماذا ﴿أَرۡبَعَةٗ﴾ في الشهادة؟ لأنهما اثنتان تستمتعان ببعضهما، ومطلوب أن يشهد على كل واحدة اثنان فيكونوا أربعة، وإذا حدث هذا ورأينا وعرفنا وتأكدنا: ماذا نفعل؟

قال الحق سبحانه: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ﴾ أي: احجزوهن واحبسوهن عن الحركة، ولا تجعلوا لهن وسيلة التقاء إلى أن يتوفاهن الموت ﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ وقد جعل الله.

والذين يقولون: إن هذه المسألة خاصة بعملية بين رجل وامرأة، نقول له: إن كلمة «واللاتي» هذه اسم موصول لجماعة الإناث، أما إذا كان هذا بين ذكر وذكر؛ ففي هذه الحالة يقول الحق سبحانه:

﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٦].

الآية الكريمة هنا تختص بلقاء رجل مع رجل، ولذلك تكون المسألة الأولى تخص المرأة مع المرأة، ولكن لماذا يكون العقاب في مسألة المرأة طلباً للمتعة هو الإمساك في البيوت حتى يتوفاهن الموت؟ لأن هذا شر ورياء يجب أن يُحاصَر، فهذا الشر معناه الإفساد التام، لأن المرأة ليست محجوبة عن المرأة؛ فلأن تحبس المرأة حتى تموت خير من أن تتعود على الفاحشة. ونحن لا نعرف ما الذي سوف يحدث من أضرار، والعلم ما زال قاصراً، فالذي خلق هو الذي شَرع أن يلتقي

الرجل بالمرأة في إطار الزواج وما يجب فيه من المهر والشهود، والحق سبحانه أعد المرأة للاستقبال، وأعد الرجل للإرسال، وهذا أمر طبيعي، فإذا دخل إرسال على استقبال ليس له، فالتشويش يحدث.

وإن لم يكن اللقاء على الطريقة الشرعية التي قررها مَنْ خَلَقنا فلا بدّ أن يحدث أمر خاطئ ومضرٌ، ونحن عندما نصل سلكاً كهربائياً بسلك آخر من النوع نفسه، أي: سالب مع سالب أو موجب مع موجب تشب الحرائق، ونقول: «حدث ماس كهربائي»، أي: أن التوصيلة الكهربائية كانت خاطئة. فإذا كانت التوصيلة الكهربائية الخاطئة في قليل من الأسلاك قد حدث ما حدث منها من الأضرار، أفلا تكون التوصيلة الخاطئة في العلاقات الجنسية مضرة في البشر؟

إنني أقول هذا الكلام، لأن العلم سيكشف ـ إنْ متأخراً أو متقدماً ـ أن لله سرًّا، وحين يتخصص رجل بامرأة على منهج الله فإن الحق سبحانه يجعل اللقاء طبيعيًّا. أما إن حدث اختلاف في الإرسال والاستقبال فلسوف يحدث ماسٌ صاعقٌ ضارٌ، وهذه هي الحرائق الاجتماعية.

إن الذين من قبلنا قد اهتدوا إلى نفحة من نفحات الله، ولم يركنوا إلى الكسل، بل هداهم الإيمان إلى أن يكونوا موصولين بالله سبحانه، ففطنوا إلى نفحات الله. والحق سبحانه هو القائل:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

فإذا كنا قد اهتدينا إلى معرفة أن اتصال سلك صحيح بسلك صحيح فالكهرباء تعطي نوراً جميلاً. أما إذا حدث خطأ في الاتصال، فالماس الكهربائي يحدث وتنتج منه حرائق، كذلك في العلاقة البشرية، لأن المسألة ذكورة وأنوثة.

والحق سبحانه هو القائل: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩].

فإذا كان النور الجميل يحدث من الاتصال الصحيح بين الموجب والسالب في غير الإنسان، وتحدث الحرائق إن كان الاتصال خاطئاً، فما بالنا بالإنسان؟

وفي بعض رحلاتنا في الخارج، سألنا بعضُ الناس:

ـ لماذا عَدَّدتم للرجل نساءً، ولم تعددوا رجالاً للمرأة؟

هم يريدون أن يثيروا حفيظة المرأة وسخطها على دين الله، حتى تقول المرأة الساذجة ـ متمردة على دينها ـ: «ليس في هذا الدين عدالة»؛ لذلك سألت من سألوني: أعندكم أماكن يستريح فيها الشباب المتحلل جنسياً؟

فكان الجواب: نعم هناك مثل هذه الأماكن.

قلت: بماذا احتطتم لصحة الناس؟

قالوا: بالكشف الطبي الدوري المفاجئ.

قلت: لماذا؟

قالوا: حتى نعزل المصابة بأي مرض.

قلت: أيحدث ذلك مع كل رجل وامرأة متزوجين؟

قالوا: لا.

قلت: لماذا؟ فسكتوا ولم يجيبوا، فقلت: لأن الواقع أن الحياة الزوجية للمرأة مع رجل واحد تكون المرأة وعاء للرجل وحده، وهذه العلاقة الزوجية لا ينشأ منها أمراض، ولكن المرض ينشأ حين يتعدد ماء الرجال في المكان الواحد.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يستبقى النوع بقاء نظيفاً؛ لذلك قال: ﴿وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥].

والمقصود بـ«نسائكم» هنا: المسلمات، لأننا لا نشرع لغير المسلمين، وطلب الشهادة يكون من أربعة من المسلمين، لأن المسلم يعرف قيمة العرض والعدالة، وإن شهدوا فَلْيُنَفَّذْ حكم الله بالحبس في البيوت.

وقد عرفنا ذلك فيما يسمى في العصر الحديث بالحَجْر الصحي الذي نضع فيه أصحاب المرض المعدي. وهناك فرق بين من أُصِبْن بـ«مرض مُعْدٍ» ومن أُصبن بـ«العطب والفضيحة».

فإذا كنا نعزل أصحاب المرض المعدي فكيف لا نعزل اللاتي أصبن بالعطب والفضيحة؛ ولذلك يجب أن تظل كل منهما في العزل إلى أن يأتي لكل منهن ملك الموت.

وحدثتنا كتب التشريع أن رسول الله ﷺ حمل الآية على أنها تختص بزنا يقع بين رجل وامرأة وليس بين امرأتين.

فعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «خُذوا عنِّي، خُذوا عنِّي: البكر بالبكر جَلْدُ مائة ونفي سنة، والثيِّب بالثيِّب جلد مائة والرجم»[1].

ثم جاء التشريع بعد ذلك فصفَّى قضية الحدود إلى أن البكر بالبكر جلد، والثيب بالثيب رجم.

---

(١) أخرجه مسلم في الحدود، باب حد الزنى (١٦٩١).

وبعض الناس يقول: إن الرجم لم يرد في القرآن.

ونقول لهؤلاء: ومن قال: إن التشريع جاء فقط في القرآن؟ لقد جاء القرآن الكريم معجزة ومنهجاً للأصول، وكما قلنا من قبل: إن الحق سبحانه قال:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧].

وبعد ذلك نتناول المسألة: حين يوجد نَصٌ ملزم بحكم، قد نفهم الحكم من النص وقد لا نفهمه، فإذا فهمنا فله تطبيق عملي في السيرة النبوية.

فإذا كان الرسول ﷺ لم يأت بالنص فقط ولكن جاء بالعمل نفسه، فالأسوة تكون بالفعل في إقامة الحد؛ لأن الفعل أقوى من النص، فالنص قد يوجد ولا يطبق لسبب كالنَّسْخ للحكم مثلاً، أما الفعل فإنه تطبيق، وقد رجم الرسول ﷺ ماعزاً والغامدية ورجم اليهودي واليهودية عندما جاء إليه اليهود يطلبون تعديل حكم الرجم الوارد في التوراة.

إذن: فالفعل من الرسول ﷺ أقوى من النص وخصوصاً أن الرسول مُشرِّع أيضاً.

وقد يقول قائل: إن الرجم لمن تزوج، فماذا نفعل برجل متزوج قد زنا بفتاة بكر؟

والحكم هنا: يُرجم الرجل وتُجلد الفتاة، فإن اتفقا في الحالة، فهما يأخذان حكماً واحداً. وإن اختلفا فكل واحد منهما يأخذ الحكم الذي يناسبه.

وحينما تكلم الحق سبحانه عن الحدِّ في الإماء ـ المملوكات ـ قال:

﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥].

ويفهم من ذلك: الجَلْد فقط، لأن الرجم لا يمكن أن نقوم بتقسيمه إلى نصفين، فالأَمَة تأخذ في الحد نصف الحرة، لأن الحرة البكر في الزنا تجلد مائة جلدة، والأَمَة تجلد خمسين جلدة.

وما دام للأَمَة نصف حد المحصنة، فلا يأتي ـ إذن ـ حَدٌّ إلا فيما يُنَصَّف، والرجم لا ينصَّف، والدليل أصبح نهائيًا من فعل رسول الله ﷺ وهو مشرع وليس مستنبطاً، وقد رَجَمَ رسولُ الله ﷺ. ولماذا تأخذ الأَمَة نصف عقاب الحرة؟ لأن الإماء مهدورات الكرامة، أما الحرائر فلا. ولذلك فهند امرأة أبي سفيان قالت: أوَ تزني الحرة؟ قالت ذلك وهي في عنف جاهليتها. أي: أن الزنا ليس من شيمة الحرائر، أما الأَمَةُ فمهدورة الكرامة نظراً لأنها مجترأ عليها وليست عرض أحد.

لذلك فعليها نصف عقاب المحصنات، وقد تساءل بعض الناس عن وضع الأمة المتزوجة التي زنت، والرجم ليس له نصف؟

نقول: الرجم فقدٌ للحياة فلا نصف معه، إذن: فنصف ما على المحصنات من العذاب، والعذاب هو الذي يؤلم. ونستشهد على ذلك بآية قرآنية كريمة لنبيِّن الرأي القاطع بأن العذاب شيء، والقتل وإزهاق الحياة شيء آخر، ونجد هذه الآية هي قول الحق سبحانه على لسان سليمان عليه السلام حينما تَفقَّد الطير ولم يجد الهدهد:

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ [النمل: ٢١].

إذن: فالعذاب غير الذبح، وكذلك يكون العذاب غير الرجم. فالذي يحتج به البعض ممن يريدون إحداث ضجة بأنه لا يوجد رجم؛ لأن الأمَة عليها نصف ما على المحصنات، والرجم ليس فيه تنصيف نقول له: إن ما تستشهد به باطل؛ لأن الله سبحانه فَرَّقَ بين العذاب والذبح، فقال على لسان سليمان: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ فإذا كان العذاب غير إزهاق الروح بالذبح، والعذاب أيضاً غير إزهاق الروح بالرجم؛ إذن: فلا يصح أن يحاول أحد الإفلات من النص وفهمه على غير حقيقته، ولنناقش الأمر بالعقل:

حين يعتدي إنسان على بكر، فما دائرة الهجوم على العرض في البكر؟ إنها أضيق من دائرة الهجوم على الثيب؛ لأن الثيب تكون متزوجة غالباً، فقصارى ما في البكر أن الاعتداء يكون على عرضها وعرض الأب والأخ. أما الثيب فالاعتداء يكون على عرض الزوج أيضاً، وهكذا تكون دائرة الاعتداء أكبر، إنه اعتداء على عرض الأب والأم، والإخوة والأعمام مثل البكر، وزاد على ذلك الزوج والأبناء المتسلسلون. فإذا كان الآباء والأمهات طبقة وتنتهي، فالأبناء طبقة تستديم؛ لذلك يستديم العار. واستدامة العار لا يصح أن تكون مساوية لرقعة ليس فيها هذا الاتساع، فإن سوينا بين الاثنين بالجلد فهذا يعني أن القائم بالحكم لم يلحظ اتساع جرح العرض.

إن جرح العرض في البكر محصور وقد ينتهي لأنه يكون في معاصرين كالأب والأم والإخوة، لكن ما رأيك أيها القائم بالحكم في الثيب المتزوجة ولها أولاد يتناسلون؟ إنها رقعة متسعة، فهل يساوي الله سبحانه ـ وهو العادل ـ بين ثيب وبكر بجلد فقط؟ إن هذا لا يتأتى أبداً.

إذن: فالمسألة يجب أن تؤخذ مما صفّاه رسول الله ﷺ وهو المشرّع الثاني

الذي امتاز لا بالفهم في النص فقط، ولكن لأن له حق التشريع فيما لم يرد فيه نص! فسنأخذ بما عمله وقد رَجَمَ رسولُ الله فعلاً، وانتهى إلى أن هذا الحكم قد أصبح نهائيًا، الثيب بالثيب هو الرجم، والبكر بالبكر هو الجلد، وبكر وثيب كل منهما يأخذ حكمه، ويكون الحكم منطقيًا تماماً، وبذلك نضمن طهارة حفظ النوع؛ لأن حفظ النوع هو أمر أساسي في الحياة باستبقاء حياة الفرد واستبقاء نوعه، فاستبقاء حياة الفرد بأن نحافظ عليه، ونحسن تربيته ونطعمه حلالاً، ونحفظ النوع بالمحافظة على طهارة المخالطة.

والحق سبحانه وتعالى يمدُّ خَلْقَهُ حين يغفلون عن منهج الله بما يلفتهم إلى المنهج، ويأتينا بالدليل من غير المؤمنين بمنهج الله، فيثبت لك أن المنهج سليم. وقد قال الحق سبحانه:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

فلا يقولن قائل: إن القرآن أخبر بشيء لم يحدث لأن الإسلام لم يطبق ولم يظهر على الأديان كلها!!.

ونرد عليه: لو فهمت أن الله تعالى قال: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

وقال سبحانه في موضع آخر من كتابه الكريم:

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

لقد بيَّن الحق سبحانه أن الإسلام يظهر ويتجلى مع وجود كاره له وهو الكافر والمشرك. ولم يقل سبحانه: إن الإسلام سيمنع وجود أيّ كافر أو مشرك.

وكيف يكره الكفار والمشركون إظهار الله تعالى للإسلام؟ إنهم لا يدينون بدين الإسلام؛ لذلك يحزنهم أن يظهر الإسلام على بقية الأديان. وهل يظهر الإسلام على الأديان بأن يسيطر عليها ويبطل تلك الأديان؟ لا، إنه هو سبحانه يبيِّن بالقرآن والسُّنَّة كما يبيِّن لأهل الأديان الأخرى:

إنكم ستُضطرون وتضغط عليكم أحداث الدنيا وتجارب الحياة فلا تجدون مُخلِّصاً لكم مما أنتم فيه إلا أن تطبِّقوا حكماً من أحكام الإسلام الذي تكرهونه.

وحين تضغط الحياة على الخصم فينفِّذ رأي خصمه فهذا دليل على قوة الحُجَّة، وهذا هو الإظهار على الدين كله ولو كره الكافرون والمشركون، وهذا قد

حدث في زماننا، فقد رُوِّعتْ أمة الحضارة الأولى في عالمنا الآن وهي الولايات المتحدة الأمريكية منذ سنوات بما يثبت صدق الإسلام في أنه حين ضمن ووضع للمخالطات التي تُبقى النوع نظاماً، وهو التعاقد العلني والزواج المشروع، فالحق سبحانه وتعالى قد ضمن صحة الخلق.

لكن الحضارة الأمريكية لم تنتبه إلى عظمة قانون الحق سبحانه فَرُوِّعت بظهور مرض جديد يسمى «الإيدز»، وكلمة «إيدز» مأخوذة من بدايات حروف ثلاث كلمات: حرف «A»، وحرف «I»، و«D».

ومعنى اسم المرض بالترجمة العربية الصحيحة: «نقص مناعي مُكتسَب» والوسيلة الأولى للإصابة به هي المخالطة الشاذة، ونشأت من هذه المخالطات الشاذة فيروسات، هذه الفيروسات ما زال العلماء يدرسون تكوينها، وهي تفرز سموماً وتسبب آلاماً لا حصر لها، وإلى الآن يعيش أهل الحضارة الغربية هول الفزع والهلع من هذا المرض.

ومن العجيب أن هذه الفيروسات تأتي من كل المخالطات الشاذة سواء أكانت بين رجل ورجل، أو بين رجل وامرأة على غير ما شرع الله.

لقد جعل الحق سبحانه وتعالى عناصر الزواج «إيجاباً» و«قبولاً» و«علانية» وجعل من الزواج علاقة واضحة محسوبة أمام الناس، هذا هو النظام الرباني للزواج الذي جعل في التركيب الكيميائي للنفس البشرية «استقبالاً» و«إرسالاً».

والبشر حين يستخدمون الكهرباء، فالسلك الموجب والسلك السالب ـ كما قلنا ـ يعطيان نوراً في حالة استخدامهما بأسلوب طبيعي، لكن لو حدث خلل في استخدام هذه الأسلاك فالذي يحدث هو ماس كهربائي تنتج منه حرائق. وكذلك الذكورة والأنوثة حين يجمعها الله بمنطق الإيجاب والقبول العلني على مبدأ الإسلام، فإن التكوين الكيميائي الطبيعي للنفس البشرية التي تُرسِل، والنفس البشرية التي تَستقبل تعطي نوراً وهو أمر طبيعي.

وأوضحنا من قبل أن الإنسان حين يجد شابًا ينظر إلى إحدى محارمه، فهو يتغير وينفعل ويتمنى الفتك به، لكن إن جاء هذا الشاب بطريق الله المشروع وقال والد الشاب لوالد الفتاة: «أنا أريد خطبة ابنتك لابني» فالموقف يتغير وتنفرج الأسارير ويقام الفرح.

إنها كلمة الله التي أثّرت في التكوين الكيميائي للنفس وتصنع كل هذا الإشراق والبِشر، وإعلان مثل هذه الأحداث بالطبول والأنوار والزينات هو دليل

واضح على أن هناك حاجة قد عُملت وأحدثت في النفس البشرية مفعولها الذي أراده الله من الاتصال بالطريق النظيف الشريف العفيف.

فكل اتصال على غير هذا الطريق الشريف والعفيف لا بدّ أن ينشأ عنه خلل في التكوين الإنساني يؤدي إلى أوبئة نفسية وصحية قد لا يستطيع الإنسان دفعها مثل ما هو كائن الآن.

وعلى هذا يكون قول الحق سبحانه:

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةً مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ١٥].

وكانت هذه مرحلة أولية إلى أن طَبّق الرسول ﷺ إقامة الحد.

ويقول الحق سبحانه:

﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٦].

والحق سبحانه وتعالى توّاب ورحيم، صفة المبالغة بالنسبة لله تعالى لا تعني أن هناك صفة لله تكون مرة ضعيفة ومرة قوية، فكل صفات الله سبحانه واحدة في الكمال المطلق.

إنني عندما أقول: «فلان أكّال» قد يختلف المعنى عن قولي: «فلان آكِل»، فمثل هذا القول مبالغة في وصف إنسان يأكل بكثرة، فهل هو يأكل كثيراً في الوجبة الواحدة، أو أن الوجبة ميزانها محدود لكن هذا الموصوف بعدد الوجبات، فبدلاً من أن يأكل ثلاث مرات فهو يأكل خمس مرات، عندئذٍ يقال له: «أكّال»، أي: أنّه أكثر عدد الوجبات، وإن كانت كل وجبة في ذاتها لم يزد حجمها.

أو هو يأتي في الوجبة الواحدة فيأكل أضعاف ما يأكله الإنسان العادي في الوجبة العادية، فيأكل بدلاً من الرغيف أربعة أرغفة، فنقول: إنه «أكول»، إذن: فصيغة المبالغة في الخَلْق إما أن تنشأ في قوة الحدث الواحد، وإما أن تنشأ من تكرار الحدث الواحد.

وقولنا: «الله توّاب» معناه أنه عندما يتوب على هذا وذاك وعلى ملايين الملايين من البشر، فالتوبة تتكرر. وإذا تاب الحق سبحانه في الكبائر أليست هذه توبة عظيمة؟ الله تواب ورحيم لأنه سبحانه وتعالى يتصف بعظمة الحكمة والقدرة على الخلق والإبداع، وهو الذي خلق النفس البشرية ثم قَنَّنَ لها قوانين، جَرَّمَ من يخالف هذه القوانين، وبعد أن جَرَّم الخروج عن القوانين وضع عقوبة على الجريمة.

والتقنين في ذاته يقطع العذر، فساعة أن قَنَّنَ الحق سبحانه لا يستطيع واحد أن يقول: «لم أكن أعلم»؛ لأن ذلك هو القانون، وحين يُجرِّم فهذا إيذان منه بأن النفس البشرية قد تضعف، وتأتي بأشياء مخالفة للمنهج، فنحن لسنا ملائكة، والله سبحانه حين يقنن يقطع العذر، وحين يُجرِّم فهو إيذان بأن ذلك من الممكن أن يحدث. وبعد ذلك يعاقب، وهناك أفعال مُجرَّمة، ولكن المشرِّع الأول لم يجرمّها ولم يضع لها قانوناً، لا عن تقصير منه، ولكن التجريم يأتي كفرع.

إن الحق سبحانه قدَّر أن النفس البشرية قد تفعل ذلك، كالسرقة ـ مثلاً ـ ولذلك فهو سبحانه وضع حَدًّا للسرقة، وقد تضعف النفس البشرية فتسرق، أو تزني؛ لذلك فالحد موجود، لكن هناك أشياء لا يأتي لها بالتجريم والعقوبة، وكأنه سبحانه يريد أن يدلنا من طرف خفيٍّ على أنها مسائل ما كان يتصور العقل أن تكون.

مثال ذلك اللواط، لم يذكر له حَدًّا، لماذا؟ لأن الفطرة السليمة لا تفعله، بدليل أن اللواط موجود في البشر وغير موجود في الحيوان.

لكن ليس معنى ألا يُجرِّم الحق عملاً أنه لا يدخل في الحساب، لا، إنه داخل في الحساب بصورة أقوى؛ لأن التجريم والعقوبة على التجريم تدل على أن الفعل من الممكن أن يحدث، وحين يترك هذه المسألة بدون تجريم، فمعنى ذلك أن الفطرة السليمة لا يصح أن تفعلها، ولذلك لم يضع لها حدًّا أو تجريماً، وترك الأمر لرسول الله ﷺ وهو المكلَّف بالتشريع أن يضع حدًّا لهذه المسألة.

إذن: فعدم وجود نص على جريمة أو عقوبة على جريمة ليس معناه ألا يوجد حساب عليها، لا، هناك حساب، فقد تكون العقوبة أفظع، وقد أمر الرسول ﷺ بإلقاء الفاعل للِّواط والمفعول به من أعلى جبل. إن عقوبتهما أن يموتا بالإلقاء من شاهق جبل، إذن: فالعقوبة هنا أكثر من الرجم.

وهكذا نعرف أن عدم التجريم وعدم التقنين بالعقوبة لأي أمر غير مناسب للعقل وللفطرة السليمة دليل على أنَّ هذا الأمر غير مباح، والحق سبحانه وتعالى لم يترك تلك الأمور سكوتاً عنها، ولكن هو إيحاء من طرف خفي أن ذلك لا يصح أن يحدث، بدليل أنها لا تحدث في الحيوانات التي هي أدنى من الإنسان.

وبعد ذلك قد يتعلل الإنسان الفاعل لمثل هذا القبح الفاحش بأنها شهوة بهيمية. نقول: يا ليت شهوتك المخطئة في التعبير عن نفسها بهيمية؛ لأن البهائم

لا يحدث منها مثل ذلك الفعل أبداً، فلا أنثى الحيوانات تقترب من أنثى أخرى، وكذلك لا يوجد ذكر حيوان يقترب من ذكر آخر، وإذا ما حملت أنثى الحيوان فإنها لا تسمح لأي ذكر من الحيوانات بالاقتراب منها.

إذن: فالقبح الفاحش من المخالطة على غير ما شرع الله سبحانه يمكن أن نسميها شهوة إنسانية، فالبهائم لا ترتكب مثل تلك الأفعال الشاذة، والذي يقول عن الشهوة إنها بهيمية فهو يظلم الحيوانات.

والحق سبحانه وتعالى ـ على الرغم من هذه الخطايا ـ يبيِّن لنا أنه التواب الرحيم، لماذا؟

انظر إلى الحكمة في التوبة وفي قبولها، فلو لم تحدث معصية من الإنسان الذي آمن، لفقَد التكليف ضرورته. فمعنى التكليف أنه عملية يزاحم الإنسان فيها نفسه ويجاهدها لمقاومة تنفيذ المعاصي أو لحملها على مشقة الطاعة.

فمقاومة الإنسان للمعاصي خضوعاً للتكليف الإيماني دليل على أن التكليف أمر صحيح، اسمه «تكليف» وإلا لخلقَنا الله كالملائكة وانتهت المسألة. وحين يشرع الله التوبة، فذلك يدل على أن الإنسان ضعيف، قد يضعف في يوم من الأيام أمام معصية من المعاصي، وليس معنى ذلك أن يطرده الله من عبوديته له سبحانه لم يُخرج الذي اختار الإسلام وعصى من حظيرة الإسلام أو التكليف، ولو فرضنا أن الحق سبحانه لم يقنن التوبة لصارت اللعنة مصير كل من يضعف أمام شهوة، ولصار العاصي متمرداً لا يأبه ولا يلتفت بعد ذلك إلى التكليف، يَلِغ في أعراض الناس ويرتكب كل الشرور.

إذن: فساعة شرع الله التوبة سَدَّ على الناس باب «الفاقدين» الذين يفعلون ذنباً ثم يستمرون فيه، ومع ذلك فهو سبحانه حين تاب على العاصي رحم من لم يعص، فهو القائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

ولو قال الحق إنه تواب فقط لأذنب كل واحد منا لكي يكون الوصف معه وقائم به لا محالة، ولكنه أيضاً قال: ﴿تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ أي: أنه يرحم بعضاً من خلقه فلا يرتكبون أية معصية من البداية؛ فالرحمة ألا تقع في المعصية.

وبعد ذلك يشرِّع الحق سبحانه وتعالى للتوبة فيقول:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

ولنلتفت إلى دقة الأداء القرآني، فالحق سبحانه يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾

وقد يقول قائل: ما دام الحق سبحانه شرع التوبة، فلأفعل ما أريد من المعاصي وبعد ذلك أتوب!

نقول له: إنك لم تلتفت إلى الحكمة في إبهام ساعة الموت، فما الذي أوحى لك أنك ستحيا إلى أن تتوب؟ فقد يأخذك الموت فجأة وأنت على المعصية، وعليك أن تلتفت إلى دقة النص القرآني:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

وفعل السوء بجهالة، أي: بعدم استحضار العقوبة المناسبة للذنب، فلو استحضر الإنسان العقوبة لما فعل المعصية؛ بل هو يتجاهل العقوبة؛ لذلك قال رسول الله ﷺ:

«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»[1].

فلو كان إيمانه صحيحاً ويذكر تماماً أن الإيمان يفرض عليه عدم الزنا، وأن عقوبة الزنا هي الجلد أو الرجم، لما قام بذلك الفعل.

والحق سبحانه يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ فهناك من يفعل المعصية ويخطط لها ويفرح بها ويُزْهَى بما ارتكب ويفخر بزمن المعصية، وهناك من تقع عليه المعصية وبمجرد أن تنتهي يظل نادماً ويضرب نفسه ويعذبها ويتساءل لماذا فعلت ذلك؟

وأضرب مثلاً للتمييز بين الاثنين: نجد اثنين يستعد كل منهما للسفر إلى باريس، واحد منهما يسأل قبل سفره عن خبرة من عاشوا في عاصمة فرنسا، ويحاول أن يحصل على عناوين أماكن اللهو والخلاعة، وما إن يذهب إلى باريس حتى ينغمس في اللهو، وعندما يعود يظل يفاخر بما فعل من المعاصي.

وأما الآخر فقد سافر إلى باريس للدراسة، وبينما هو هناك ارتكب معصية تحت إغراء وتزيين، إذن: هو إنسان وقعت عليه المعصية دون تخطيط، وبعد أن هدأت شِرَّة الشهوة غرق في الندم، وبعد أن عاد استتر من زمن المعصية.

وهكذا نرى الفارق بين المخطط للمعصية، ومن وقعت عليه المعصية!!

والحق سبحانه حين قدّر أمر التوبة على خَلْقه رَحِمَ الخَلْقَ جميعاً بتقنين هذه

---

(١) أخرجه البخاري في الحدود، باب السارق حين يسرق (٦٧٨٢).

التوبة، وإلا لغرق العالم في شرور لا نهاية لها، بداية من أول واحد انحرف مرة واحدة فيأخذ الانحراف عملاً له، والمهم في التائب أن يكون قد عمل السوء بجهالة، ثم تاب من قريب.

والرسول ﷺ حين حدد معنى «من قريب» قال:

«إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر».

* * *

الدرس الثاني

الذكر والأنثى

تكامل الرجل والمرأة

يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة آل عمران:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥].

هذا هو الدعاء وهكذا كانت الاستجابة:

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] وبعد ذلك تكلم الحق سبحانه عن الأشياء التي تكون من جهة التربية: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

كل ذلك متعلق بالتربية وبالربوبية، فساعة نادت امرأة عمران عرفت كيف تنادي ونذرت ما في بطنها. وبعد ذلك جاء الجواب من جنس ما دعت بقمة القبول وهو الأخذ برضا: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾.

فالحسن هنا زيادة في الرضا، لأن كلمة «قبول» تعطينا معنى الأخذ بالرضا، وكلمة «حسن» توضح أن هناك زيادة، وذلك مما يدل على أن الله سبحانه قد أخذ ما قدمته امرأة عمران برضا، وبشيء حسن، وهذا دليل على أن الناس ستلمح في تربيتها شيئاً فوق الرضا، إنه لي قبولاً عاديًا، إنه قبول حسن، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ مما يدل على أن امرأة عمران كانت تقصد حين نذرت ما في بطنها، ألا تربي ما في بطنها إلى العمر الذي يستطيع فيه المولود أن يخدم في بيت الله. ولكنها نذرت ما في بطنها من اللحظة الأولى للميلاد. إنها لن تتنعم بالمولود، ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾. وزكريا ـ عليه السلام ـ هو زوج خالة السيدة مريم ـ رضي الله عنها ـ بعد دعاء امرأة عمران، يجئ قول الحق الحكيم:

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

لقد جاء هذا القول منها، لأنها كانت قد قالت إنها نذرت ما في بطنها مُحرَّراً لخدمة البيت، وقولها: «مُحَرَّراً» يعني أنها أرادت ذكراً لخدمة البيت، لكن المولود جاء أنثى. فكأنها قد قالت: إن لم أُمَكَّنْ من الوفاء بالنذر، فلأن قدرك سبق لقد جاءت المولودة أنثى.

لكن الحق سبحانه يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ وهذا يعني أنها لا تريد إخبار الله تعالى، ولكنها تريد أن تظهر التحسر، لأن الغاية من نذرها لم تتحقق؟ ويقول الحق سبحانه: «وليس الذكر كالأنثى». فهل هذا من كلامها، أم من كلام الله؟

قد قالت: ﴿إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾ وقال الله سبحانه: ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾.

فكأن الحق سبحانه يقول لها: لا تظني أن الذكر الذي كنت تتمنينه سيصل إلى مرتبة هذه الأنثى، إن هذه الأنثى لها شأن عظيم. أو أن القول من تمام كلامها ﴿إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾، ويكون قول الحق سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ هو جملة اعتراضية، ويكون تمام كلامها ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾ أي أنها قالت: يا رب إن الذكر ليس كالأنثى، إنها لا تصلح لخدمة البيت.

وليأخذ المؤمن المعنى الذي يحبه، وسنجد أن المعنى الأول فيه إشراق أكثر، إنه تصور أن الحق الحكيم سبحانه قد قال: أنت تريدين ذكراً بمفهومك في الوفاء بالنذر، وليكون في خدمة البيت، ولقد وهبت لك المولود أنثى، ولكني سأعطي فيها آية أكبر من خدمة البيت، وأنا أريد بالآية التي سأعطيها لهذه الأنثى مساندة عقائد، لا مجرد خدمة رقعة تقام فيها شعائر.

إنني سأجعل من هذه الآية مواصلة لمسيرة العقائد في الدنيا إلى أن تقوم الساعة، ولأنني أنا الخالق، سأوجد في هذه الأنثى آية لا توجد في غيرها، وهي آية تثبت طلاقة قدرة الحق سبحانه.

وطلاقة القدرة تختلف عن القدرة العادية؛ إن القدرة تخلق بأسباب، ولكن من أين الأسباب؟ إن الحق سبحانه هو خالق الأسباب أيضاً.

إذن: فما دام الخالق للأسباب أراد خَلْقاً بالأسباب فهذه إرادته، ولذلك أعطانا الحق عزّ وجلّ القدرة على رؤية طلاقة قدرته؛ لأنها عقائد إيمانية، يجب أن تظل في بؤرة الشعور الإيماني، وعلى بال المؤمن دائماً.

لقد خلق الله تعالى بعض الخلق بالأسباب كما خلقنا نحن، وجمهرة الخلق عن طريق التناسل بين أب وأم، أما خلق الحق لآدم عليه السلام، فقد خلقه بلا أسباب. ونحن نعلم أن الشيء الدائر بين اثنين له قسمة عقلية ومنطقية، فما دام هناك أم وأب، ذكر وأنثى، فسيجئ منهما تكاثر.

إن الحق سبحانه يقول:

﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وعندما يجتمع الزوجان، فهذه هي الصورة الكاملة، وهذه الأولى في القسمة

المنطقية والتصور العقلي، وأما أن ينعدم الزوجان فهذه هي الثانية في القسمة المنطقية والتصور العقلي، أو أن ينعدم الزوج الأول ويبقى الطرف الثاني، وهذه هي الثالثة في القسمة المنطقية والتصور العقلي، أو أن ينعدم الزوج الثاني ويبقى الطرف الأول، وهذه هي الرابعة في القسمة المنطقية والتصور العقلي.

تلك إذن أربعة تصورات للقسمة العقلية، وجميعها جاء من اجتماع العنصرين: الرجل والمرأة. أما آدم عليه السلام فقد خلقه الله سبحانه وتعالى بطلاقة قدرته ليكون السبب، وكذلك خلق حواء من آدم، وأخرج الحق سبحانه من لقاء آدم وحواء نسلاً، وهناك أنثى ـ هي مريم ـ ويأتي منها المسيح عيسى بن مريم بلا ذكر. وهذه هي الآية في العالمين، وتثبت قمة عقدية. فلا يقولنّ أحد: ذكراً، أو أنثى، لأن نية امرأة عمران في الطاعة أن يكون المولود ذكراً، وشاء قدر ربكم سبحانه أن يكون أسمى من تقدير امرأة عمران في الطاعة، لذلك قال: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾. أي: أن الذكر لن يصل إلى مرتبة هذه الأنثى.

وقالت امرأة عمران: ﴿وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

إن امرأة عمران قالت ما يدل على شعورها، فحينما فات المولودة ـ بأنوثتها ـ أن تكون في خدمة بيت الله، فقد تمنت امرأة عمران أن تكون المولودة طائعة، عابدة، فسمتها «مريم» لأن مريم في لغتهم معناها: «العابدة».

وأول ما يعترض العبودية هو الشيطان، إنه هو الذي يجعل الإنسان يتمرد على العبودية. إن الإنسان يريد أن يصير عابداً، فيجيء الشيطان ليزيّن له المعصية. وأرادت امرأة عمران أن تحمي ابنتها من نزغ الشيطان لأنها عرفت بتجربتها أن المعاصي كلها تأتي من نزغ الشيطان، وقد سمتها «مريم» حتى تصيح «عابدة لله»، ولأن امرأة عمران كانت تمتلك عقلية إيمانية حاضرة وتحمل المنهج التعبدي كله لذلك قالت: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

إن المستعاذ به هو الله، والمستعاذ منه هو الشيطان، وحينما يدخل الشيطان مع خلق الله في تزيين المعاصي، فهو يدخل مع المخلوق في عراك، ولكن الشيطان لا يستطيع أن يدخل مع ربه في عراك، ولذلك قال عن الشيطان إنه إذا سمع ذكر الله فإنه يخنس أي: يتراجع، ووصفه القرآن الكريم بأنه «الخنّاس». إن الشيطان إنما ينفرد بالإنسان حين يكون الإنسان بعيداً عن الله، ولذلك فالحق سبحانه يُعَلِّمُ الإنسان:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

إن الشيطان يرتعد فرقاً (خوفاً) ورعشة من الاستعاذة بالله. وعندما يتكرر ارتعاد الشيطان بهذه الكلمة؛ فإنه يعرف أن هذا الإنسان العابد لن يحيد عن طاعة الله إلى المعاصي.

وقد علَّمنا رسولُ الله ﷺ كيف يجئ الرجل امرأته، ومجيء الأهل هو مظنة لمولود قد يجئ، فيقول العبد: «اللهم جَنِّبْنِي الشيطانَ وَجَنِّبِ الشيطانَ ما رزقتني» (من دعاء رسول الله ﷺ)[1].

إن من يقول هذا القول قبل أن يحدث التخلق؛ فلن يكون للشيطان ولاية أو قدرة على المولود الذي يأتي بإذن الله. ولذلك قالت امرأة عمران: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾. والذرية قد يفهمها الناس على أنها النسل المتكاثر، ولكن كلمة «ذرية» تطلق على الواحد وعلى الاثنين، وعلى الثلاثة أو أكثر. والذرية هنا بالنسبة لمريم عليها السلام هي عيسى عليه السلام، وتنتهي المسألة. وبعد دعاء امرأة عمران: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ يجيء قول الحق سبحانه:

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النساء: ٣٧].

وكلمة «آدم» حينما تتكلم بها تجدها ـ في اللغة ـ مذكرة، والمذكر يقابله المؤنث. وقد خلق الحق الأعلى سبحانه الذكورة والأنوثة؛ لأنه من تزاوجهما سيخرج النسل. إذن: فكان لا بدّ من التمييز بين النوعين للجنس الواحد. فالذكر والأنثى، هما بنو آدم، ومنهما ينشأ التكاثر، لكن العجيب أن الله تعالى حين سمى آدم ونطقناه اسماً مذكراً وسمى «حواء» ونطقناه اسماً مؤنثاً، وجعل سبحانه الاسم الأصيل الذي وُجِدَ منه الخلق هو «نفس»، لقد قال الحق سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

لقد سمى الحق سبحانه آدم بكلمة نفس، وهي مؤنثة، إذن: فليس معنى التأنيث أنه أقل من معنى التذكير، ولكن «التذكير» هو فقط علامة لتضع الأشياء في

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء، باب التسمية على كل حال (١٤١)، ومسلم في النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع (١٤٣٤).

مسميَّاتها الحقيقية وكذلك التأنيث. إن الحق سبحانه يطلق على كل إنسان منا «نفس» وهي كلمة مؤنثة، وحينما تكلم الحق سبحانه كلاماً آخر عن الخلق قال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وكلمة «ناس» تعني: مجموع الإنسان. وهكذا نعرف أن كلمة «إنسان» تُطلق مرة على المذكر، ومرة أخرى على المؤنث. إذن: فالحق سبحانه قد أورده مرة لفظاً مذكراً، ومرة أخرى أطلق لفظاً مؤنثاً، وذلك حتى لا نقول: إن المذكر أفضل وأحسن من المؤنث، ولكن ذلك وسيلة للتفاهم فقط، ولذلك يؤكد لنا الحق سبحانه أنه قد وضع الأسماء لمسمياتها لنتعارف بها:

﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾.

ومعنى «لنتعارف» أي: أن يكون لكل منا اسمٌ يُعرَف به عند الآخرين. وفي حياتنا العادية ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد رجلاً عنده أولاد كثيرون، لذلك يُطلق على كل ابن اسماً ليعرفه المجتمع به، والعجيب في هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ أننا نجد كلمة «شعوباً» مذكرة وكلمة «قبائل» مؤنثة. إذن: فلا تمايز بالأحسن، ولكن الكلمات هنا مسميات للتعارف، والحق الأعلى سبحانه يقول:

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

إذن: فما وضع النساء اللاتي آمنَّ؟ إنهن يدخلن ضمن «الذين آمنوا» ولماذا أدخل الله المؤنث في المذكر؟ لأن المذكر هو الأصل، والمؤنث جاء منه فرعاً. إذن: فالمؤنث هو الذي يدخل مع المذكر في الأمور المشتركة في الجنس.

ويقول الحق سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وهذا يعني أن «المؤنث» عليه أن يدخل في تكليف العبودية لله.

والمعنى العام يحدد أن المطلوب منه العبادة هو الإنسان كجنس، وبنوعيه: الذكر والأنثى. وفي الأمر الخاص بالمرأة، يحدد الله تعالى المرأة بذاتيتها. فالحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

لماذا؟ إن المسألة هنا تشمل النوعين من الجنس الواحد: الرجل والمرأة زوج وزوجة، فمثلاً نجد زوجاً يريد تطليق زوجته، فيأتي الحق سبحانه بتفصيل يوضح ذلك. وإذا كان هناك أمر خاص بالمرأة، فالحق سبحانه وتعالى يحدد الأمر فها هو ذا قوله الحكيم:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٣٢، ٣٣].

إن كل ما جاء في هذه الآية الكريمة يحدد المهام بالنسبة لنساء النبي ﷺ فالخطاب الموجه يحدد الأمر بدقة «لستن»، و«اتقيتن»، و«لا تخضعن»، و«قرن» و«لا تبرجن». والكلام في هذه الآية الكريمة يتعلق بالمرأة لذلك يأتي لها بضميره مؤنثاً.

ولكن إذا جاء أمر يتعلق بالإنسان بوجه عام فإن الحق سبحانه يأتي بالأمر شاملاً للرجل والمرأة وكون مذكراً، ولذلك فعندما قالت النساء: لماذا يكون الرجل أحسن من المرأة؟ وجاء قول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

هكذا حسم الحق الأمر، وقال سبحانه تأكيداً لذلك:

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ [النساء: ١٢٤].

إن الذكر والأنثى هنا يدخلان في وصف واحد هو: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ إذن فعندما يأتي الأمر في المعنى العام الذي يُطلب من الرجل والمرأة، فهو يُضم المرأة في الرجل لأنها مبنية على الستر والحجاب، مطمورة فيه، داخلة معه. فإن قال الحق سبحانه لمريم: ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ فالركوع ليس خاصًا بالمرأة حتى يقول: «مع الراكعات، ولكنه أمر عام يشمل الرجل والمرأة، ولذلك جاء الأمر الإلهي لمريم عليها السلام بأن تركع مع الراكعين في قوله تعالى:

﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

ويقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وساعة يدعو الله سبحانه الناس إلى تقواه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ ومعنى «اتقوا ربكم» أي: اجعلوا بينكم وبينه وقاية، وماذا نفعل لنتقي ربنا؟

أول التقوى أن تؤمن به إلهاً، وتؤمن أنه إله بعقلك، وهو سبحانه وتعالى يعرض لك القضية العقلية للناس فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ ولم يقل: اتقوا الله، لأن كلمة «الله» مفهومها العبادة، فالإله معبود له أوامر وله نواهٍ، لم يصل الحق سبحانه بالناس لهذه بعد، إنما هم لا يزالون في مرتبة الربوبية، والرب هو: المتولي تربية الشيء، وتربيته أن يجعل له قانون صيانة؟

إن من حقه ومسؤوليته أن يضع للمخلوق قانون صيانة. ونحن نرى الآن أن كل مخترع أو صانع يضع لاختراعه أو للشيء الذي صنعه قانون صيانة، فهل يخلق الله سبحانه البشر من عدم وبعد ذلك يتركهم ليتصرفوا كما يشاءون؟ أم يقول لهم: اعملوا كذا وكذا ولا تعملوا كذا وكذا، لكي تؤدوا مهمتكم في الحياة؟ إنه يضع دستور الدعوة للإيمان فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾.

إذن: فالمطلوب منهم أن يتقوا، ومعنى يتقوا: أن يقيموا الوقاية لأنفسهم بأن ينفذوا أوامر هذا الرب الإله الذي خلقهم، وبالله أيجعل خلقهم علة إلا إذا كان مشهوداً له بها؟ هو سبحانه يقول: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ كأن خَلْق ربنا لنا مشهود به، وإلا لو كان مشكوكاً فيه لقلنا له: إنك لم تخلقنا.

ولله المثل الأعلى: أنت تسمع من يقول لك: أَحْسِنْ مع فلان الذي صنع لك كذا وكذا، فأنت مُقرٌّ بأنه صنع أم لا؟ فإذا أقررت بأنه صنع ما صنع فأنت تستجيب لمن يقول لك مثل ذلك الكلام.

إذن: فقول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ فكأن خلق الله للناس ليس محل جدال ولا شك من أحد، فأراد ـ سبحانه ـ أن يجذبنا إليه ويأخذنا إلى جنابه بالشيء الذي نؤمن به جميعاً ـ وهو أن سبحانه قد خلقنا ـ إلى الشيء الذي يريده وهو أن نتلقى من الله ما يقينا من صفات جلاله، وجاء سبحانه بكلمة «رب»

ولم يقل: «اتقوا الله»، لأن مفهوم «الرب» هو الذي خلق من عَدَم وأمدَّ من عُدْ
وتعهد، وهو المربّي ويبلغ بالإنسان مرتبة الكمال الذي يراد منه وهو الذي خلق ا
الكون فأحسن الخلق والصنع، ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ
[العنكبوت: ٦١].

إذن: فقضية الخلق قضية مستقرة؛ وما دامت قضية مستقرة فمعناها: ما دم
آمنتم بأني خالقكم فلي قدرة إذن، هذه واحدة، وربيتكم؛ إذن: فلي حكمة، وإ
له قدرة وله حكمة، إما أن نخاف من قدرته فنرهبه وإما أن نشكر حكمته فنقر به
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾. لو لم يقل الحق سبحانه: ﴿وَخَلَقَ
زَوْجَهَا﴾ لما كملت، لماذا؟ لأنه سيقول في آيات أخرى عن الإيجاد:

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

إذن: فخلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها هنا، والناس تريد أ
تدخل في متاهة: هل ﴿خَلَقَ مِنْهَا﴾ المقصود به خلق حواء من ضلع آدم أي: م
نفس آدم؟ أناس قالوا ذلك، وأناس قالوا: لا، «منها» تعني: من جنسها، ودلل
على ذلك قائلين: حين يقول الله تعالى:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨].

هل أخذ الله محمداً ﷺ من نفوسنا وكونَّه؟ لا، إنما هو رسول من جنس
البشري، وكأنه سبحانه قد أشار إلى دليل؛ لأن خَلْق حواء قد انطمست المعا
عنه، ولأنه أعطانا بيان خلق آدم وتسويته من طين ومراحل خلقه إلى أن صا
إنساناً، ولذلك يجوز أن يكون قد جعل خلق آدم هو الصورة لخلق الجنس الأول
وبعد ذلك تكون حواء مثله، فيكون قوله سبحانه: ﴿خَلَقَ مِنْهَا﴾ أي: من جنسها
خلقها من طين ثم صورَّها، الخ؛ ولكن لم يعد علينا التجربة في حواء كما قالها ف
آدم، أو المراد من قوله: «منها» أي: من الضلع، وهذا شيء لم نشهد أوله
والشيء الذي لم يشهده الإنسان فالحجة فيه تكون مِمَّن شهده، وسبحانه أراد أ
يرحمنا من متاهات الظنون في هذه المسألة: مسألة كيف خُلقنا، وكيف جئنا؟

إن كيفية خلقك ليس لك شأن بها، فالذي خلقك هو الذي يقول لك فاسم
كلامه لأن هذه مسألة لا تتعلق بعلم تجريبي؛ ولذلك عندما جاء «دارون» وأراد أ
يتكبر ويتكلم، جاءت النظرية الحديثة لتهدم كلامه، قالت النظرية الحديثة لدارون
إن الأمور التي أثرت في القرد الأول ليكون إنساناً، لماذا لم تؤثر في بقية القرو

ليكونوا أناساً وينعدم جنس القرود؟! وهذا سؤال لا يجيب عليه دارون؛ لذلك نقول: هذا أمر لهم نشهده فيجب أن نستمع إلى من فعل، والحق سبحانه يقول:

﴿۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ [الكهف: ٥١].

وما دام لم يشهدهم، فهل يستطيع أحد منهم أن يأتي بعلم فيها؟ إن أحداً لا يأتي بعلم فيها، وبعد ذلك يرد على من يجيء بادعاء علم فيقول: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾، معنى مضلين: أنهم سيضلونكم في الخلق؛ كأن الله أعطانا مناعة في الأقوال الزائفة التي يمكن أن تنشأ من هذا عندما قال: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾، فقد بيَّنه لنا طبيعة من يضللون في أصل الخلق وفي كيفية الخلق، فهم لم يكونوا مع الله سبحانه ليعاونوه ساعة الخلق حتى يخبروا البشر بكيفية الخلق؛ فإن أردتم أن تعرفوا فاعلموا أنه سبحانه الذي يقول كيف خلقتم وعلى أية صورة كنتم، ولكن من يقول كذا وكذا، هم المضللون، و«المضللون» هم الذين يلفتونكم عن الحق إلى الباطل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ ولماذا لم يقل: خلقكم من زوجين؟ لأنه عندما يردّ الشيء إلى اثنين قد يكون لواحد من الاثنين هوى، وإنما هذه ردت إلى واحدة فقط، فيجب ألا تكون لكم أهواء متنازعة، لأنكم مردودن إلى نفس واحدة، أما عن نظرية «دارون» وما قاله من كلام فقد قيض الله لقضية الدين ـ وخاصة قضية الإسلام ـ علماء من غير المسلمين اهتدوا إلى دليل يوافق القرآن، فقام العالم الفرنسي «مونيه»، عندما أراد أن يرد على الخرافات التي يقولونها من أن أصل الإنسان كذا وكذا، وقال: أنا أعجب ممن يفكرون هذا التفكير، هل تُوجِد المصادفة ما نسميه «ذكراً» ثم تُوجِد المصادفة شخصاً نسميه «أنثى» ويكون من جنسه لكنه مختلف معه في النوع بحيث إذا التقيا جاءا بذكر كالأول أو بأنثى كالثاني؟

كيف تفعل المصادفة هذه العلمية؟

سنُسلِّم بأن المصادفة خلقت آدم، فهل المصادفة أيضاً خلقت له واحدة من جنسه، ولكنها تختلف معه في النوع بحيث إذا التقيا معا ينشأ بينهما سيال عاطفي جارف وهو أعنف الغرائز، ثم ينشأ منهما تلقيح يُنشئ ذكراً كالأول أو ينشئ أنثى كالثاني؟ أيّةُ مصادفة هذه؟ هذه المصادفة تكون عاقلة وحكيمة، هم سموها مصادفة ونحن نسميها الله.

لقد ظن «مونيه» أنه جاء بالدليل الذي يرد به على دارون، نقول له: إن القرآن قد مس هذه المسألة حين قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وهذه هي العظمة، إنه خلق الرجل وخلق الأنثى؛ وهي من جنسه، ولكنها تختلف عنه في النوع بحيث إذا التقيا معاً أنشأ الله منهما رجالاً ونساءً. إذن: فهذه عملية مقصودة، وعناية وغاية وحكمة، إذن: فالآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾. جاءت بالدليل الذي هُدِي إليه العالم الفرنسي «مونيه» أخيراً.

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ وانظروا عظمة الأسلوب في قوله: ﴿وَبَثَّ﴾ أي: «نشر» وسنقف عند كلمة «نشر» لأن الخلق يجب أن ينتشروا في الأرض، كي يأخذوا جميعاً من خيرات الله في الأرض.

و«النشر» معناه: تفريق المنشور في الحيز، فهناك شيء مطويٌّ وشيء آخر منشور، والشيء المطوي فيه تجمع، والشيء المنشور فيه تفريق وتوزيع، إذن: فحيز الشيء المتجمع ضيق، وحيز الشيء المبثوث واسع، معنى هذا أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ أي: من آدم وحواء ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ واكتفى بأن يقول: ﴿وَنِسَآءً﴾ ولم يقل: كثيرات لماذا؟ لأن المفروض في كل ذكورة أن تكون أقل في العدد من الأنوثة. وأنت إذا نظرت مثلاً في حقل فيه نخيل، تجدكم ذكراً من النخل وكم أنثى؟ ستجد ذكراً أو اثنين.

إذن: القلة في الذكورة مقصودة لأن الذكر مُخصِّب ويستطيع الذكر أن يخصِّب آلافاً، فإذا قال الله سبحانه: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا﴾ فالذكورة هي العنصر الذي يفترض أن يكون أقل كثيراً، فماذا عن العنصر الثاني وهو الأنوثة؟ لا بدّ أن يكون أكثر، والقرآن يكون أقل كثيراً، فماذا عن العنصر الثاني وهو الأنوثة؟ فلا بدّ أن يكون أكثر، والقرآن يأتي لينبهك إلى المعطيات في الألفاظ لأن المتكلم هو الله سبحانه، ولكن إذا نظرت لقوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ أي: من آدم وحواء وهما اثنان ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ فتكون جَمْعاً، وهذا؛ ليدلك على أن التكاثر يبدأ بقلة ثم ينتهي بكثرة.

ونريد أن نفهم هذه كي نأخذ منها الدليل الإحصائي على وجود الخالق سبحانه، فهو القائل: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ والجمع البشري الذي ظهر من الاثنين سيبث منه أكثر، وبعد ذلك يبث من المبثوث الثاني مبثوثاً ثالثاً، وكلما

امتددنا في البث تنشأ كثرة، وعندما تنظر لأي بلد من البلاد تجد تعداده منذ قرن مضى أقل بكثير جدًّا من تعداده الآن، مثال ذلك: كان تعداد مصر منذ قرن لا يتعدى خمسة ملايين، ومن قرنين كان أقل عدداً، ومن عشرة قرون كان أقل، ومن عشرين قرناً كان أقل، إذن: فكلما امتد بك المستقبل فالتعداد يزيد، لأنه سبحانه يبث من الذكورة والأنوثة رجالاً كثيراً ونساء وسيبث منهم أيضاً عدداً أكبر.

إذن: فكلما تقدم الزمن تحدث زيادة في السكان، ونحن نرى ذلك في الأسرة الواحدة، إن الأسرة الواحدة مكونة عادة من أب وأم، وبعد ذلك يمكن أن نرى منهما أبناء وأحفاداً وعندما يطيل الله في عمر أحد الوالدين يرى الأحفاد وقد يرى أحفاد. إذن: كلما تقدم الزمن بالمتكاثر من اثنين يزداد وكلما رجعت إلى الماضي يقل؛ فالذين كانوا مليوناً من قرن كانوا نصف مليون من قرنين، وسلسلها حتى يكونوا عشرة فقط، والعشرة كانوا أربعة، والأربعة كانوا اثنين والاثنان هما آدم وحواء.

فعندما يقول الحق سبحانه إنه خلق آدم وحواء، وتحاول أنت أن تسلسل العالم كله ستُرجعه لهما، وما دام التكاثر ينشأ من الاثنين، فمن أين جاؤوا؟ الحق سبحانه يبيِّن لنا ذلك بقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣] وهو بذلك يريحنا من علم الإحصاء. وكان من الضروري أن تأتي هذه الآية الكريمة كي تحل لنا اللغز في الإحصاء، وكلما أتى الزمن المستقبل كثر العالم وكلما ذهبنا إلى الماضي قل التعداد إلى أن يصير وينتهي إلى اثنين، وإياك أن تقول: إلى واحد، لأن واحداً لا يأتي منه تكاثر، فالتكاثر يأتي من اثنين ومن أين جاء الاثنان؟ لا بدّ أن أحداً خلقهما، وهو قادر على هذا، ويعلمنا الله ذلك فيقول عزّ وجلّ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ ونأخذ من ﴿وَبَثَّ﴾: «الانتشار»، ولو لم يقل الله هذا لكانت العقول الحديثة تتوه وتقع في حيرة وتقول: نسلسل الخلق حتى يصيروا اثنين، والاثنان هذان كيف جاءا؟ إذن: لا بدّ أن نؤمن بأن الله سبحانه قد أوجدهما من غير شيء.

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا﴾ لأن النشر في الأرض يجب أن يكون خاصًّا بالرجل، فالحق تبارك وتعالى يقول:

﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وهو القائل سبحانه:

﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥].

والأنثى تجلس في بيتها تديره لتكون سكناً يُسكن إليها، والرجل هو المتحرك في هذا الكون، وهي بذلك تؤدي مهمتها.

وبعدما قال: «اتقو ربكم» يقول: «اتقوا الله»، لقد قدَّم الدليل أولاً على أنه إله قادر، وخلقكم من عدم وأمدَّكم وسخَّر العالم لخدمتكمد وقدم دليل البث في الكون المنشور الذي يوضح أنه إله، فلا بدّ أن تتلقوا تعليماته، ويكون معبوداً منكم، أي: مطاعاً، والطاعة تتطلب منهجاً: افعل ولا تفعل، وأنزل الحق سبحانه القرآن كمنهج خاتم، ويقول: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾.

إنه ـ سبحانه وتعالى ـ بعد أن أخذهم بما يتعاملون ويتراحمون ويتعاطفون به بيَّن لهم: أنتم مع أنكم كنتم على فترة من الرسل إلا أن فطرتكم التي تتغافلون عنها تعترف بالله كخالق لكم.

وأنت إذا أردت إنفاذ أمر من الأمور، وتريد أن تؤثر على من تطلب منه أمراً، تقول: سألتك بالله أن تفعل ذلك، لقد أخذ الحق سبحانه منهم الدليل، فكونك تقول: سألتك بالله أن تفعل ذلك فلا بدّ أنك سألته بمعظَّم، إذن: فتعظيم الله أمر فطري في البشر، والمطموس هو المنهج الذي يقول: افعل ولا تفعل. والإنسان من هؤلاء الجاحدين عندما يسهو، ويطلب حاجة تهمه من آخر، فهو يقول له: سألتك بالله؛ أن تفعل كذا. وما دام قد قال: سألتك بالله فكأن هناك قضية فطرية مشتركة هي أن الله هو الحق، وأنه هو الذي يُسأل به، وما دام قد سُئل بالله فلن يخيِّب رجاء من سأله.

إنكم في الأمور التي تريدون بها تحقيق مسائلكم تسألون بالله وتسألون أيضاً بالأرحام وتقولون: بحق الرحم التي بيني وبينك، أنا من أهلك، وأنا قريبك، وأمُّنا واحدة، أرجوك أن تحقق لي هذا الأمر. ولماذا جاءت «الأرحام» هنا؟ لأن الناس حين يتساءلون بالأرحام فهم يجعلون المسؤولية من الفرد على الفرد طافية في الفكر، فما دمت أنا وأنت رحم واحدة، فيجب أن تقضي لي هذا الشيء. إذن: فمرة تسألون بالله الذي خلق، ومرة تسألون بالأرحام لأن الرحم هي السبب المباشر في الوجود المادي، ومثال ذلك قول الحق سبحانه:

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

لقد ذكر الحق سبحانه الوالدين اللذين هما السبب في إيجادنا، والله يريد من كل منا أن يبرَّ والديه، ولكن قبل ذلك لا بدّ أن ينظر إلى الذي أوجدهما، وأن يُصعِّد الأمر قليلاً ليعرف أن الذي أوجدهما هو الله سبحانه.

ويختم الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾، لأن كلمة «اتقوا» تعني: اجعل بينك وبين غضب ربك وقاية بإنفاذ أوامر الطاعة، واجتناب ما نهى الله عنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾، والرقيب من «رقب» إذا نظر ويقال: «مرقب»، ونجد مثل هذا المرقب في المنطقة التي تحتاج إلى حراسة، حيث يوجد «كشك» مبني فوق السور ليجلس فيه الحارس كي يراقب. ومكان الحراسة يكون أعلى دائماً من المنطقة المحروسة، وكلمة «رقيب» تعني: ناظراً عن قصد أن ينظر، ويقولون: فلان يراقب فلاناً أي: ينظره، صحيح أن هناك من يراه ذاهباً وآتياً من غير قصد منهم أن يروه، لكن إنْ كان مراقباً، فمعنى ذلك أن هناك من يرصده، وسبحانه يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾. فليس الله بصيراً فقط ولكنه رقيب أيضاً ـ ولله المثل الأعلى ـ.

ونحن نجد الإنسان قد يبصر ما لا غاية له في إبصاره، فهو يمر على كثير من الأشياء فيبصرها، لكنه لا يرقب إلا من كان في باله، والحق سبحانه رقيب علينا جميعاً كما في قوله:

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

وانظروا إلى قول رسول الله ﷺ فيما حكاه عن ربه سبحانه:

«أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واقرأوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السجدة: ١٧]».

وبذلك تنتقل الصورة إلى شيء جديد، وهو: التوازن بين أفراد الجنس الإنساني، كل هذا الكلام كي يُحفظ الجنس الإنساني مع بعضه، وبعد ذلك يريد الله أن يقيم توازناً ومصالحة إيمانية بين نوعي الجنس الإنساني، والجنس الإنساني فيه ذكورة وفيه أنوثة. ونعرف أن كل جنس من الأجناس لا ينقسم إلى نوعين إلا إذا كان فيه قدر مشترك يجمع النوعين من الجنس، وفيه شيء مفترق يجعل هذا نوعاً وذاك نوعاً أخر ولو لم يكن فيه شيء مشترك، وما دام الجنس الواحد قد انقسم لنوعين فكل نوع له مهمة. والذكورة والأنوثة هما نوعان لجنس البشر، فالذكر والأنثى يشتركان في مطلوبات الجنس، وبعد ذلك ينفردان في مطلوبات النوع، وبعد ذلك كل نوع ينقسم إلى أفراد، والأفراد أيضاً ليسوا مكررين، بل فيه قدر مشترك يجمع كل الأفراد، وبعد ذلك كل واحد له موهبة وله ريادة وله تفوُّق في مجال كذا وكذا، وبذلك يتكامل أفراد الجنس البشري.

وما دام الجنس البشري قد انقسم إلى نوعين، فيكون للرجال خصوصية

وللنساء خصوصية. وربنا سبحانه وتعالى لا يأتي ـ حتى في البنية العامة ـ ليجعل الجنسين مستويين في خصائص البنية، صحيح أن البنية واحدة: رأس وجذع وأرجل، إنما يميز بنية كل نوع بشيء، الرجل له شكل مميز، والمرأة لها شكل مميز. ولذلك فالذين يقولون: نُسوِّي الرجل بالمرأة أو المرأة بالرجل نقول لهم: المرأة لها تكوين خاص، والرجل له تكوينه الخاص، فإذا سويت المرأة بالرجل أعطيت لها مجالات الرجل، وبقيت مجالاتها ـ التي لا يمكن للرجل أن يشاركها فيها ـ معطلة لا يقوم بها أحد. إذن: فأنت حَمَّلتها فوق ما تطيق وأنت مخطىء؛ لأنك تأتيها بمتاعب أخرى.

إن الحق سبحانه وتعالى ساعة يخلق جنساً، وساعة يقسم الجنس إلى نوعين، يبيِّن: تنبهوا إلى أن كل نوع له مهمة وفيه شيء مشترك، المشترك بين الأنوثة والذكورة، ما هو؟ إن هذا إنسان وذلك إنسان، وإتن هذا من ناحية الإيمان مُطالَب أن يكون له عقيدة إيمانية ولا أحد يسيطر على الآخر في عقيدته الإيمانية، الاثنان متساويان فيها، ولا يفرضها واحد على الآخر، وضرب الله سبحانه وتعالى لنا مثلاً على تشخيص الذكورة وتشخيص الأنوثة في الأمر الأولي للإيمان، وإن اختلفت في الأمر الثانوي للأحكام، فيقول:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

وهذان رسولان، ومع ذلك لم يستطيعا إقناع زوجتيهما بالتوحيد، إذن: فكل إنسان له حرية العقيدة والتعقل، ولا أحد تابع لآخر في هذه المسألة أبداً. ويقول الحق سبحانه:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

فرعون الذي ادعى الألوهية لم يقدر أن يرغم امرأته على أن تكفر والحق سبحانه وتعالى قال فيها:

﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ [التحريم: ١١].

إذن: ففي مسألة العقيدة الكل فيها سواء ـ الذكورة والأنوثة ـ فيها عقل وفيها تفكير. ولعل المرأة تجيء برأي قد يعزّ على كثير من الرجال. ولنا المثل من زوج رسول الله ﷺ «أم سلمة» وموقفها في صلح الحديبية فعندما يأتي الرسول ﷺ ليعقد المعاهدة، ويحزن أصحابه ومنهم عمر ـ رضي الله عنه ـ الذي قال: أنقبل الدنية

في ديننا؟!! فيقول له سيدنا أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ: الزم غرزك يا عمر إنه رسول الله. فدخل رسول الله ﷺ مُغضباً، طبعاً من حمية عمر وحزن الصحابة، لأنها مسألة تعز على النفس البشرية، لكن رسول الله ﷺ يذهب فيجد أم سلمة فيقول لها: «هلك المسلمون، ألا ترين إلى الناس آمرهم بالأمر فلا يفعلونه وهم يسمعون كلامي وينظرون وجهي؟ فقالت يا رسول الله: لا تلمهم فإنهم قد داخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح، يا نبي الله أُخرُجْ إليهم ولا تكلِّم أحداً كلمة حتى تنحر بُدْنَك وتدعو حالقك فيحلقك».

لقد وقَّع رسول الله ﷺ صلح الحديبية وانتهت المسألة. ولكن رحمة الله بالمؤمنين الذين وقفوا أمام رسول الله في هذه المسألة، ورحمة الله لهم أم سلمة أوضح لهم الرسول ﷺ: سأبين لكم: أنتم لو دخلتم مكة وفيها أناس مسلمون لا تعرفونهم، إنهم يكتمون إيمانهم وإسلامهم، والبيت الكافر قد يكون فيه واحد مسلم، وقد تقتلون أناساً مسلمين لا تعرفونهم فتصيبكم معرة، أي: ما تكرهونه ويشق عليكم؛ مصداقاً لقول الحق تعالى:

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

لو تزيلوا أي: لو تميز المؤمنون في منطقة لعاقبنا الكافرين عقاباً شديداً. إذن: لقد بيَّن لهم العلَّة، فرضي الكل، ولنا أن نلتفت إلى أن المسألة جاءت من سيدتنا أم سلمة، وهذا دليل على أن الله لا يمنع أن يكون لامرأةٍ عقل وتفكير ناضج.

ولذلك نجد القرآن يؤكد ذلك في قصة بلقيس، لقد فكرت بلقيس في الرجل الآتي ليزلزل ملكها: يا ترى هل هو طالب مُلْك؟ فجاء على لسانها في القرآن الكريم:

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٢٩ ـ ٣٢].

فماذا قال القادة؟ قالوا: لا، هذه ليست مسألتنا، وجاء القرآن بقولهم:

﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣].

كان رجل الحرب يُؤمر فقط، يحارب أو لا يحارب، لكن الذي يقدِّر هذا هم الساسة الذين ليس عندهم حمية وحركية القتال. نقول لقائد الجند: أنت تنتظر

الأمر، وتجعل الساسة الهادئين يفكرون في عواقب الأمور؛ لذلك قال قادة الجند لبلقيس: ﴿نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ لقد وضعوا الأمر في رقبتها وهي امرأة، ففكرت: سأجرّب وأختبره وأنظر أهو طالب مُلك أم صاحب دين؛ فأرسلت هدية له، وقد جاء القرآن بما قاله سيدنا سليمان عندما تلقّى الهدية:

﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦].

فعرفت بلقيس أن المُلْكَ ليس هدفه، وبعد ذلك عرفت أنه صاحب رسالة، فقالت: أذهب له وأسلم، انظر أداء العبارة القرآنية عندما تصور إيمان ملكة قالت:

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

يعني: أنا وهو أصبحنا عبيداً لله، هذه رفعة الإيمان؛ فلا غضاضة ما دامت هي وهو عبيداً لإله واحد، وبلقيس امرأة ولم يحرمها الحق سبحانه من الرأي الحسن أيضاً ومن الأداء الجميل، وهي عندما ذهبت ووجدت عرشها وقد جاء به مَنْ عنده عِلْمٌ من الكتاب وأقامه، لقد تركت العرش في بلدها وجاءت إلى سليمان فوجدت عرشها، وكان لا بدّ أن يلتبس عليها الأمر، وقالوا لها: أهكذا عرشك؟

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ [النمل: ٤٢].

فأجابت إجابة دبلوماسية وكياسة:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ [النمل: ٤٢].

هي امرأة ولم يحرمها الله من تميز الفكر؛ لذلك لا يصح أن نحرم المرأة من أن يكون لها فكر. لكن المهم أن تعلم أن لها حدوداً في إطار نوعيتها، ولا تعتبر النقص في شيء للرجل أنه نقص فيها، فإذا ما كان عندها كمال لا يوجد عند الرجل فلتعلم أنه حتى في البنية يختلف الرجل عن المرأة؛ الرجل فيه خشونة وفيه صلابة وفيه قوة، والمرأة فيها رقة وفيها ليونة ولها عاطفة فياضة، وفيض حنان، والرجل فيه صلابة حزم وعزم، إذن: فكل واحد معدّ لمهمة. فلا يقولنَّ أحد: أنا ناقص في هذه، لكن انظر إلى غيرك، تجده ناقصاً في شيء وهو عندك كامل.

ويأتي الدين ليوضح: يا مؤمنون، الحرير حرام على الذكور وحلال للإناث، والذهب حرام على الذكور وحلال للإناث، أيُّ تدليل أكثر من هذا؟ لقد حرَّم على الرجال التمتع بالحرير والذهب وأحلَّه للنساء، والدين يطلب أن تكون المرأة سكناً للرجل، فالمفروض أن الرجل هو الذي يتحرك حركة الحياة خارجاً، وعندما يعود لمنزله فهو يسكن لزوجه، والذي يصقل السيف ويحده، مثل الشجاع الذي يضرب به تماماً. كل له عمل يكمل عمل الآخر، وكذلك الرجل عندما يدخل منزله ويجد

حياته مرتبَّة بفضل جهد زوجته فهو يرتاح ويشكر لها ما شاركته من أعباء الحياة.

ويقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

وجاءت كلمتا «ذكر» و«أنثى» هنا حتى لا يفهم أحد أن مجيء الفعل بصيغة التذكير في قوله (يعمل) أن المرأة مُعفاة منه؛ لأن المرأة في كثير من الأحكام نجد حكمها مطموراً في مسألة الرجل، وفي ذلك إيحاء بأن أمرها مبني على الستر.

لكن الأشياء التي تحتاج إلى النص فيها فسبحانه ينص عليها﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾. وجاء سبحانه هنا بلفظة «منْ» التي تدل على التبعيض، أي: على جزء من كلٍّ فيقول: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولم يقل: **﴿ومن يعمل الصالحات﴾** لأنه يعلم خلقه، فلا يوجد إنسان يعمل كل الصالحات، هناك من يحاول عمل بعض الصالحات حسب قدرته. والمطلوب من المؤمن أن يعمل من الصالحات على قدر إمكاناته ومواهبه.

وتبدأ الأعمال الصالحة من أن يترك الإنسان الأمور الصالحة على صلاحها، فإبقاء الصالح على صلاحه معناه: أن المؤمن لن يعمل الفساد، هذه هي أول مرتبة، وبعد ذلك يترقى الإنسان في الأعمال الصالحة التي تتفق مع خلافته في الأرض، وكل عمل تصلح به خلافة الإنسان في الأرض هو عمل صالح؛ فالذي يرصف طريقاً حتى يستريح الناس من التعب عمل صالح، وتهيئة المواصلات للبشر حتى يصلوا إلى غايتهم عمل صالح، ومن يعمل على ألا ينشغل بال البشر بأشياء من ضروريات الحياة فهذا عمل صالح.

كل ما يعين على حركة الحياة هو عمل صالح، وقد يصنع الإنسان الأعمال الصالحة وليس في باله إله كعلماء الدول المتقدمة غير المؤمنة وكذلك العلماء الملاحدة قد يصنعون أعمالاً صالحة للإنسان، كرصف طرق وصناعة بعض الآلات التي ينتفع بها الناس، وقاموا بها للطموح الكشفي، والواحد من تلك الفئة يريد أن يثبت أنه اخترع واكتشف وخدم الإنسانية ونطبق عليه أنه عمل صالحاً، لكنه غير مؤمن؛ لذلك سيأخذ هؤلاء العلماء جزاءهم من الإنسانية التي عملوا لها، وليس لهم جزاء عند الله.

أما من يعمل الصالحات وهو مؤمن فله جزاء واضح هو:

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

قد يقول البعض: إن عدم الظلم يشمل من عمل صالحاً أو سوءاً ونجد من يقول: من يعمل السوء هو الذي يجب أن يتلقى العقاب، وتَلَقِّيه العقاب أمر ليس فيه ظلم، والحق سبحانه هو القائل:

﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ [يونس: ٢٧].

ومن يصنع الحسنة يأخذ عشرة أمثالها، وقد يكون الجزاء سبعمائة ضعف ويأتيه ذلك فضلاً من الله، والفضل من الله غير مقيَّد وهو فضل بلا حدود، فكيف يأتي في هذا المقام قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ وهم قد أعطوا أضعافاً مضاعفة من الجزاء الحسن، ونقول: إن الفضل من الخلق غير ملزم لهم، مثل من يستأجر عاملاً ويعطيه مائة جنيه كأجر شهري، وفي آخر الشهر يعطيه فوق الأجر خمسين جنيهاً أو مائة، وفي شهر آخر لا يعطيه سوى أجره، وهذه الزيادة إعطاؤها ومنحها فضل من صاحب العمل. أما الفضل بالنسبة لله فأمره مختلف، إنه غير محدد ولا رجوع فيه. وهذا هو معنى ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾، فسبحانه لا يكتفي بجزاء صاحب الحسنة بحسنة، بل يعطي جزاء الحسنة عشرة أمثالها وإلى سبعمائة ضعف، ولا يتراجع عن الفضل؛ فالتراجع في الفضل ـ بالنسبة لله ـ هو ظلم للعبد. ولا يقارن الفضل من الله بالفضل من البشر؛ فالبشر يمكن أن يتراجعوا في الفضل، أما الله تعالى فلا رجوع عنده عن الفضل.

وهو سبحانه القائل:

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وأصحاب العمل الصالح مع الإيمان يدخلون الجنة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ والنقير هو: النقرة في ظهر النواة، وهي أمر ضئيل للغاية. وهناك شيء آخر يسمى «الفتيل» وهو المادة التي تشبه الخيط في بطن نواة التمر، وشيء ثالث يشبه الورقة يغلف النواة واسمه «القطمير».

وضرب الله الأمثال بهذه الأشياء القليلة لنعرف مدى فضله سبحانه وتعالى في عطائه للمؤمنين والمؤمنات من عباده.

* * *

الدرس الثالث

الزوجة الصالحة

الإيمان أولاً

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

إن الزواج هو أول شيء في بناء الأسرة والمجتمع، وإذا لم تكن الزوجة مؤمنة، فماذا سوف يحدث؟

إن الأم هي التي تشرف على تربية الأولاد، وإذا كانت مشركة فسوف يتناسب إشرافها على أطفالها مع مستوى عقيدتها الضالة.

ومهمة الأب لن تأتي بوضوح إلا بعد مدة طويلة في حياة الطفل تكون فيها المسائل قد غُرست في الأبناء؛ فإياكَ أن تكون ذلك الرجل، وإياكِ أن تكوني تلك المرأة، لأن هذا يخل بنظام الأسرة، فعمل الأم مع أولادها وملازمتها لهم يؤثر في أوليات تكوينهم، وفي قيمهم، وأخلاقهم التي تظل عالقة بهم بعد ذلك.

إن ذلك الأمر يبدأ منذ أول لحظة في حياة الطفل أي: منذ أن يبدأ يرى ما حوله ويعي الأشياء، والطفل يقضي سنواته الأولى في حضن أمه، وبعد ذلك يكبر، فيبدأ دور الأب، فإذا كانت الأم مشركة والأب مؤمناً فإن الإيمان لن يلحقه إلا بعد أن يكون الشر قد أخذ منه وتمكن وتسلط عليه.

ونحن نعرف أن الطفولة في الإنسان هي أطول أعمار الطفولة في كل الكائنات، فهناك طفولة تمكث ساعتين مثل طفولة الذباب، وهناك طفولة تستغرق شهراً، وأطول طفولة إنما تكون في الإنسان؛ لأن هذه الطفولة مناسبة للمهمة التي سيقوم بها الإنسان، وكل الطفولات الأخرى لها مهمة سهلة جدًا، إنما الإنسان هو الذي ستأتي منه القيم، ولهذا كانت طفولته طويلة، فهي تستمر حتى مرحلة بلوغ الحُلُم.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٩].

فكأن الطفل يظل طفلاً حتى يبلغ سن الحلم، فكم سنة ـ إذن ـ ستمر على الطفل؟ وكم سنة سوف يتغذى هذا الطفل من ينابيع الشرك إن كانت أمه مشركة؟

إنها فترة طويلة لا يمكن له بعد ذلك أن يكون مؤمناً غير مضطرب الملكات، وإن صلح مثل هذا الإنسان أن يكون مؤمناً فسيقوم إيمانه على القهر والقسر والولاية للأب، وسيكون مثل هذا الإيمان عملية شكلية ليست مرتكزة ولا معتمدة على أساس صادق.

إن الثمرات التي ينعم الناس بأكلها لا يكون نضجها إلا حين تنضج البذور التي تتكون منها أشجار جديدة، وقبل ذلك تكون مجرد فاكهة فجة ليس لها طعم.

وقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن ينبهنا إلى هذا الأمر ليحرص الإنسان على استبقاء الثمرة حتى تنضج ويصبح لها بذور.

والمرأة لا تكون ثمرة طيبة إلا إذا أنجبت مثلها ولداً صالحاً نافعاً، إذن: فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يكون النشء غير مضطرب الإيمان ولذلك يقول: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ أي: إياكم أن تنخدعوا بالمعايير الهابطة الفاسدة، وعلى كل منكم أن يأخذ حكم الله تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ لأن إعجاب الإنسان بالمرأة بصرف النظر عن الإيمان سيكون إعجاباً قصير العمر.

ونحن نعرف أن عمر الاستمتاع بالجمال الحسي للمرأة ـ إن جمعنا لحظاته ـ فلن يزيد مجموعه عن شهر من مجموع سنوات الزواج؛ فكل أسبوع يتم لقاء قد يستغرق دقائق وبعدها يذبل الجمال وتبقى القيم هي المتحكمة، ومن المعروف أن المرأة حين تتزوج ثم يبطئ بها الحمل، يصيبها القلق والتوتر والانزعاج وكذلك أهلها.

ولو كان الرجل قد تزوج امرأته لجمالها ووسامتها وقوامها وعينيها، إلى آخر ذلك من مظاهر الجمال الحسي، فهذا كله سوف يهدأ ويبرد ويختفي بعد فترة، ثم توجد مقاييس أخرى لاستبقاء الحياة، وعندما يلتفت إليها الإنسان ولا يجدها؛ يغرق في الندم، لأنها لم تكن في باله وقت اختيار الزوجة.

ولذلك تريد المرأة أن تُمكِّن لنفسها بأن يكون عندها ولد لتربط الرجل بها، وحتى يقول المجتمع لزوجها ـ عند حدوث أي خلاف ـ: «عليك أن تتحمل زوجتك من أجل الأولاد»..

فالرجل ـ بعد الزواج ـ يريد قيماً أخرى غير القيم الحسية التي كانت ناشئة

أولاً، ولذلك يحذرنا الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ وجاء قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ لأن الإسلام يجبُّ ما قبله فما دامت المرأة قد آمنت فقد انتهت المسألة.

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ أي: أن الأمة (الجارية) المسلمة خير وأفضل من الحرة المشركة ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ أي: ولو أعجبتكم المشركة بجمالها ومالها وحسبها وثقافتها ورشاقتها، وانتبهوا إلى دقة اللفظ القرآني في هذا الأمر فقد جاء قول الحق سبحانه وتعالى هنا بمقاييس الإعجاب الحسي ليلفتنا إلى أننا لا يصح أن نهمل مقاييس خالدة ونأخذ مقاييس فاسدة وزائلة.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى في نفس الآية الكريمة: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ وهذا هو النظير في الخطاب، وهو ليس متقابلاً فالحق سبحانه لم يخاطب المؤمنات ألا ينكحن المشركين وإنما قال: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وتلك دقة في الأداء؛ لأن الرجل له الولاية في أن يُنكح المرأة التي هو وليُّها، فيأمره الله تعالى ألا يُزَوِّج ابنته أو أخته ـ أو المرأة الخاضعة لولايته ـ لرجل مشرك. فالشريعة الإسلامية أعطت للرجل المسلم هذا الحق في الولاية على المرأة، كما أعطته حق القوامة على المرأة، وأوجبت عليه الانفاق عليها والدفاع عنها ومراعاة حقوقها وحقوق أولادها ـ حتى لو كانت غنية ـ فالرجل هو المسؤول عن الانفاق على زوجته وأولاده منها وعلى جميع متطلبات المنزل والأسرة.

والقاعدة الشرعية تقول: «لا نكاح إلا بوليٍّ» والله سبحانه وتعالى لم يوجه الكلام هنا للنساء؛ لأن المرأة قد تتحكم فيها عاطفتها، ولكن وليها ينظر للأمر من زوايا أخرى تحكم الموقف.

صحيح أننا نستأذن الفتاة البكر عند زواجها لكي نضمن أن عاطفتها لا ترفض هذا الزواج، لكن الأب أو ولي الأمر «الرجل» يقيس المسائل بمقاييس أخرى، فلو تركنا للفتاة مقياسها لتَهَدَّم الزواج بمجرد هدوء العاطفة.

وساعة تأتي المقاييس العقلية الأخرى فلن تجد ذلك الزواج مناسباً لها فتفشل الحياة الزوجية.

ولذلك يطالبنا الإسلام أن نستشير المرأة، كي لا نزوجها رجلاً، وهي له كارهة، فالزواج ينبغي أن يقوم على المودة والرحمة والألفة.

ولكن الذي يُزوِّجها هو أبوها أو أخوها أو ولي أمرها؛ لأن الولي هنا له مقاييس عقلية وخُلقية واجتماعية قد لا تنظر إليها الفتاة وقد لا تنتبه إلى أهميتها في

الحياة، لأن العاطفة قد تطغى على العقل فتحجب عنه الإطار السليم للحكم على الأمور، وهذا أمر معروف ومنتشر بين الناس في مجتمعنا، فقد تنبهر الفتاة بشاب بسبب حسن شكله وقوامه وجاذبية حديثه، لكن عندما تدخل المسألة في حركة الحياة ومشاكلها قد تجده إنساناً غير جدير بها.

ولكي تكون المسألة مزيجاً من «عاطفة البنت، وعقل الأب، وخبرة الأم» كان لا بدّ من استشارة الفتاة، وأن يستنير الأب برأي الأم؛ ثم يقول الأب رأيه أخيراً، وكل زواج يأتي بهذا الأسلوب هو زواج ناجح ويحالفه التوفيق والفلاح لأن المعايير كلها مشتركة، ولا يوجد معيار قد اختل؛ فالأب بنى حكماً على أساس موافقة ابنته، أما إذا رفضت الفتاة ـ حتى لو كانت معايير الأب صحيحة ورأيه صائباً ـ فلا يصح أن يتم الزواج في هذه الحالة، ما دامت الفتاة لا تتقبل الزواج من ذلك الرجل الذي تقدم للزواج منها، فمن حقها القبول أو الرفض، ولا يجوز لوليها إرغامها على الزواج من شخص تكرهه أو لا تريد الزواج منه.

وكثير من الزيجات قد فشلت لأننا لم نجد من يطبق منهج الله في الدخول إلى الزواج، وحين لا يطبق البعض منهج الله في الدخول إلى الزواج ثم يفشل الزواج، هنا فقط يصرخون ويطلبون من قواعد الإسلام أن تنقذهم.

نقول لهؤلاء: وهل دخلتم إلى مسألة الزواج على دين الله؟! إنكم ما دمتم قد دخلتم إلى الزواج بأفكاركم البعيدة عن منهج الله فيجب عليكم أن تحلوا المشاكل التي قد تحدث ـ بأفكاركم وعقولكم فأنتم قد احتكمتم إلى غير دين الله من البداية، فلا تطلبوا منه أن ينقذكم في النهاية، فالدين ليس مسؤولاً إلا عمن يدخل إلى الأمور بمقاييس الله ثم تريد من الله تعالى أو من القائمين على أمر الدين أن يحلوا لك المشاكل؛ فذلك ظلم منك لنفسك وللقائمين على أمر الدين.

ولو كانت هذه المشكلات لم تحدث لكنا قد اتهمنا منهج الله وقلنا: «قد تركنا منهج الله وسعدنا في حياتنا»..

ولذلك كان لا بدّ أن تقع هذه المشكلات.

إذن: فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ هذه قضية لها سبب، لكن العبرة فيها بعموم موضوعها لا بخصوص سببها، لقد كان السبب فيها هو ما رُوِيَ أنه كان هناك صحابي اسمه مرثد بن أبي مرثد الغنوي بعثه رسول الله ﷺ إلى مكة ليخرج منها ناساً من المسلمين، وكان يهوى امرأة في الجاهلية اسمها «عناق» وكانت تحبه، وساعة رأته أرادت أن تخلو به فقال لها: ويحك إن

الإسلام قد حال بيننا، فقالت له: تزوجني، فقال لها: أتزوجك لكن بعد أن أستأمر وأستأذن النبيَّ ﷺ، فلما استأمره نزل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾.

وقيل إن قوله تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ نزل في خنساء وليدة سوداء كانت لحذيفة بن اليمان، فقال لها حذيفة: يا خنساء قد ذكرت في الملأ الأعلى مع سوادك ودمامتك وأنزل الله ذكرك في كتابه، فأعتقها حذيفة وتزوجها.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾. إن المقاييس واحدة في اختيار شريك الحياة، إنها الرغبة في بناء الحياة الأسرية على أساس من الخير، وغاية كل شيء هي التي تحدد قيمته، وليست الوسيلة هي التي تحدد قيمة الشيء، فقد تسير في سبيل وطريق خطر وغايته فيها خير، وقد تسير في سبيل مفروش بالورود والرياحين وغايته شر، ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. والذين يدعون إلى النار هم أهل الشرك. أما الله تعالى فهو يدعو إلى الجنة، والمغفرة تأتي بإذن الله أي: بتيسير الله وتوفيقه، ونعرف جميعاً الحكمة التي قالها الإمام «علي» كرم الله وجهه: لا خير في خير بعده النار، ولا شر في شر بعده الجنة.

وقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يأتي كثيراً، هذا التذكر ماذا يفعل؟ إن التذكر يُشعرك بأن القضية كانت معلومة والغفلة هي التي طرأت، لكن الغفلة إذا تنبهت إليها، فهي تذكرك ما كنت قد نسيته من قبل، لكن إن طالت الغفلة، ونسي الأصل فهذه هي الطامة، التي تنطمس بها المسألة.

إذن: فالتذكر يشمل مرحلتين.

المرحلة الأولى: أن تعرف إن لم تكن تعرف، أو تعلم إن كنت تجهل.

والمرحلة الثانية: هي أن تتذكر إن كنت ناسياً، أو توائم بين ما تعلم وبين ما تعمل؛ فالتذكر يوحي لك بأن توائم ما بين معرفتك وسلوكك حتى لا تقع في الجهل، والجهل معناه أن تعلم ما يناقض الحقيقة، لقد أراد الله سبحانه أن يصون الإنسان الذي اختار الإيمان عندما حرم عليه الزواج بواحدة من أهل الشرك.

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يضمن لمن جعله خليفة في الأرض عقيدة واحدة يصدر عنها السلوك الإنساني؛ لأن العقائد إن توزعت حسب الأهواء

فسيتوزع السلوك حسب الأهواء، وحين يتوزع السلوك تتعاند حركة الحياة ولا تتساند.

فيريد الحق سبحانه وتعالى أن يضمن وحدة العقيدة بدون مؤثر يؤثر فيها؛ فشرط في بناء اللبنة الأولى للأسرة ألاّ ينكح مؤمن مشركة؛ لأن المشركة في مثل هذه الحالة ستتولى حضانة الطفل لمدة طويلة، هي ـ كما قلنا ـ أطول أعمار الطفولة في الكائن الحي. ولو كان الأب مؤمناً والأم مشركة فالأب سيكون مشغولاً بحركة الحياة فتتأصل عن طريق الأم معظم القيم التي تتناقض مع الإيمان.

وأراد الحق سبحانه وتعالى أيضاً ألا تتزوج المؤمنة مشركاً؛ لأنها بحكم زواجها من مشرك ستنتقل إليه وإلى بيئته المشركة وإلى أسرته، وسينشأ طفلها الوليد في بيئة شركية فتتأصل فيه الأشياء القيمية التي تناقض الإيمان. ويريد الحق سبحانه وتعالى بهذه الصيانة، أي: بعدم زواج المؤمن من مشركة، وبعدم زواج المؤمنة من مشرك، أن يحمي الحاضن الأول للطفولة، وحين يحمي الحاضن الأول للطفولة يكون الينبوع الأول الذي يصدر عنه تربية عقيدة الطفل ينبوعاً واحداً، فلا يتذبذب بين عقائد متعددة. لذلك جاء قول الحق سبحانه:

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

كل ذلك حتى يصون الحق سبحانه البيئة التي ينشأ فيها الوليد الجديد، وعلينا أن نفهم أن الحق سبحانه وتعالى رَخَّصَ للمؤمنين في أن ينكحوا أهل الكتاب بقوله الحق:

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

وقد وقف العلماء من مسألة ترخيص الحق للمؤمنين في أن يتزوجوا من أهل الكتاب موقفين:

الموقف الأول: هو موقف مانع؛ لأن بعض العلماء رأى أن أهل الكتاب قد ينحرفون في معتقداتهم إلى ما يجعلهم في الشرك، وقالوا: وهل هناك شرك أكثر من أن تُدَّعى الربوبية لبشر؟

والموقف الثاني: أجاز بعض العلماء أن يتزوج الإنسان من كتابية ويجب عليه

أن يسألها أهي تدين بألوهية أحد من البشر أم تدين بالله الواحد القهار؟ فإن كانت المسألة مجرد الخلاف في الرسول فالأمر يهون، أما إن كانت تؤمن بألوهية أحد من البشر بجانب الله فقد دخلت في الشرك وعلى المؤمن أن يحتاط.

وإذا كان للرجل الولاية وله أن يتزوج بكتابية فهو غالباً ما ينقلها إلى بيئته هو وستكون البيئة المؤثرة واحدة، ووجود الولاية للأب مع الوجود في البيئة الإيمانية سيؤثر ويخفف من تأثير الأم الكتابية على أولادها، وإن كان على الإنسان أن يتيقظ إلى أنّ هناك مسالك تتلطف وتتسلل ناحية الشرك، فمن الخير أن يبتعد المسلم عن ذلك، وأن يتزوج ويعصم ويعفّ فتاة مسلمة.

وحين يحمي الحق سبحانه وتعالى الحاضنة الأولى للطفل فهو يريد أن يربي في الطفل عدم التوزع، وعدم التمزق، وعدم التنافر بين ملكاته، وحين نضمن للطفل الوجود والنشأة في بيئة متآلفة فهو ينشأ طفلاً سويًا، والإسلام يريد أن يحافظ على سويَّة هذا الطفل، ويقول بعض الناس: ولماذا لا نوجد محاضن جماعية؟ وكأنهم بذلك يريدون أن يحلوا الاشكال.

نقول لهم: إن الاشكال لم يحل عند الذين فعلوا ذلك من قبلنا، ولذلك فعندما نقرأ مؤلفاتهم مثل كتاب «أطفال بلا أسر» فسنجد أن الطفولة عندهم معذبة. ولماذا نذهب بعيداً؟ إننا عندما نتتبع كيفية النشأة الجماعية للأطفال في «إسرائيل» فالبحوث العلمية تؤكد على أن الأطفال يعيشون في بؤس رهيب لدرجة أن التبول اللاإرادي ينتشر بينهم حتى سن الشباب.

وكيف يغيب عن بالنا أن الطفل يظل حتى تصل سنه إلى عامين أو أكثر وهو يطلب ألا يشاركه في أمه أحد، حتى وإن كان أخاً له فهو يغار منه فما بالك بأطفال متعددين تقوم امرأة ليست أمهم برعايتهم؟ ولا يغني عن حنان الأم حنانُ مائة مربية؛ فليس للمربيات جميعاً قلب الأم التي ولدت الطفل، فالحنان الذي تعطيه الأم ليس حناناً شكليًا ولا وظيفيًا، ولكنه طبيعة حياة خلقها الله لتعطي العطاء الصحيح، لذلك لا بدّ من إعطاء الطفل فترة يشعر فيها بأن أمه التي ولدته له وحده، ولا يشاركه فيها أحد حتى لو كان أخاً له، وتمر عليه فترة بعد أن يخرج من مهد الطفولة الأولى إلى الشارع ليجد حركة الحياة، ويجد القائمين على حركة الحياة هم الرجال وآباء أمثاله من الأطفال فيجب بعد ذلك أن يُنسب إلى أب له كيان معروف في المجتمع الخارجي.

فمن مقومات تكوين الطفل أن يشعر أن له أمًا لا يشاركه فيها أحد، وأنّ له

أباً لا يشاركه فيه أحد، وإن شاركه فيهما أحدٌ فهم إخوته ويضمهم ويشملهم جميعا حنان الأم ورعاية الأب، لقد اعترف أهل العلم بتربية الأطفال أن احتياج الطفل لأمه هو احتياج أساسي للتربية لمدة عامين وبضعة من الشهور، والحق تبارك وتعالى حين أنزل على رسوله ﷺ قبل أكثر من أربعة عشر قرناً من الآن؛ القول الحكيم الصادق بيَّن هذه الحقيقة واضحة في أجلى صورها:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

إن الأم هي الحاضنة الطبيعية للطفل كما أرادها الحق سبحانه، إذن: فالحق تبارك وتعالى يريد أن يحمي اللبنة الأولى في تكوين المجتمع وهي الأسرة في البناء العَقَدي من أن تتأثر بالشرك، ويريد أن يحفظ للأسرة كياناً سليماً.

ويعالج الحق سبحانه بعد ذلك قضية التواصل مع المرأة أثناء فترة الحيض فيأتي التشريع ليقنن هذه المسألة لأن الإسلام جاء وفي الجو الاجتماعي تياران:

تيار يرى أن الحائض هي امرأة تعاني من قذارة، لذلك لا يمكن للزوج أن يأكل معها أو يسكن معها أو يعاشرها أو يعيش معها في بيت واحد وكذلك أبناؤه.

وتيار آخر يرى المرأة في فترة الحيض امرأة عادية لا فرق بينها وبين كونها غير حائض أي: تباشر حياتها الزوجية مع زوجها دون تحوط أو تحفظ، كان الحال ـ إذن ـ متأرجحاً بين الإفراط والتفريط، فجاء الإسلام ليضع حداً لهذه المسألة فيقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

حين تقرأ «هو أذى» فقد أخذت الحكم ممن يُؤمَنُ على الأحكام، ولا تناقش المسألة، ومهما قال الطب من تفسيرات وتعليلات وأسباب نَقُلْ له: لا، الذي خلق قال: ﴿هُوَ أَذًى﴾. والمحيض يطلق على الدم، ويراد به ـ أيضاً ـ مكان الحيض، ويراد به زمان الحيض.

وقول الحق سبحانه عن المحيض إنه أذى يهيِّئ الذهن لأن يتلقى حكماً في هذا الأذى، وبذلك يستعد الذهن للحظر الذي سيأتي به الحكم، وقد جاء الحكم بالحظر والمنع بعد أن سبقت حيثيته.

إن الحق سبحانه وتعالى ـ وهو الخالق ـ أراد أن تكون عملية الحيض في المرأة عملية كيماوية ضرورية لحياتها وحياة الإنجاب، وأمر الرجال أن يعتزلوا النساء وهن حوائض؛ لأن المحيض أذى لهم، لكن هل دم الحيض أذى للرجال أم للنساء؟ إنه أذى للرجال والنساء معاً؛ لأن الآية أطلقت الأذى، ولم تحدد من المقصود به.

والذي يدل على ذلك أن الحيض يعطي قذارة للرجل في مكان حساس هو موضع الإنزال عنده، فإذا وصلت إليه الميكروبات تصيبه بأمراض خطيرة.

والذي يحدث أن الحق سبحانه قد خلق رحم المرأة وفي مبيضيها عدد محدد معروف له وحده ـ سبحانه وتعالى ـ من البويضات، وعندما يفرز أحد المبيضين البويضة فقد لا يتم تلقيح البويضة، فإن بطانة الرحم المكون من أنسجة دموية تقل فيها نسبة الهرمونات التي كانت تثبت بطانة الرحم، وعندما تقل نسبة الهرمونات يحدث الحيض.

والحيض هو دم يحتوي على أنسجة غير حية، وتصبح منطقة المهبل والرحم في حالة تهيج، لأن منطقة المهبل والرحم حساسة جداً لنمو الميكروبات المسببة للإلتهابات سواء للمرأة، أم للرجل إنْ جامع زوجته في فترة الحيض، والحيض يصيب المرأة بأذى في قوتها وجسدها؛ بدليل أن الله سبحانه رَخَّصَ لها ألاّ تصوم وألاّ تصلي في هذه الحالة.

إذن: فالمسألة منهكة ومتعبة لها، فلا يجوز أن يرهقها الرجل بأكثر مما هي عليه.

إذن: فقوله تعالى: ﴿هُوَ أَذًى﴾ تعميم بأن الأذى يصيب الرجل والمرأة، وبعد ذلك بيّن الحق الأعلى سبحانه أن كلمة «أذى» حيثية تتطلب حكماً يأتي، إما بالإباحة وإما بالحظر، وما دام هو أذى فلا بدّ أن يكون حظراً.

يقول الحق عزّ وجلّ: ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ والذي يقول: إنّ المحيض هو مكان الحيض يبني قوله بأن المحرم هو المباشرة الجنسية، لكن ما فوق السرة وما فوق الملابس فهو مباح، فقول الحق سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي: لا تأتوهن في المكان الذي يأتي منه الأذى وهو دم الحيض. ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾. ﴿يَطْهُرْنَ ۖ﴾: من الطهور، مصدر طَهر يطهر، وعندما نتأمل قوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ نجد أنه لم يقل: «فإذا طهرن»، فما الفرق بين «طهر» و«تطهر»؟

إنّ كلمة «يطهرن» معناها: امتنع عنهن الحيض، و«تطهرن» يعني: اغتسلن من الحيض؛ ولذلك نشأ خلاف بين العلماء، هل بمجرد انتهاء مدة الحيض وانقطاع الدم يمكن أن يباشر الرجل زوجته، أم لا بدّ من الانتظار حتى تتطهر المرأة بالاغتسال؟

وخروجاً من الخلاف نقول: إن قول الحق تعالى: ﴿تَطَهَّرْنَ﴾ يعني: اغتسلن فلا مباشرة قبل الاغتسال، ومن عجائب ألفاظ القرآن أن الكلمات تؤثر في استنباط الحكم، ومثال ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩].

ما المقصود إذن؟ هل المقصود أن القرآن لا يمسكه إلا الملائكة الذين طهرهم الله من الخبث، أو أن للبشر أيضاً حق الإمساك بالمصحف لأنهم يتطهرون؟ بعض العلماء قال: إن المسألة لا بدّ أن ندخلها في عموم الطهارة، فيكون معنى ﴿إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ أي: الذين طهرهم مَن شرع لهم التطهير؛ ولذلك فالمسلم حين يغتسل أو يتوضأ يكون قد حدث له أمران: التطهر، والطهر.

فالتطهر بالفعل هو الوضوء أو الاغتسال، والطهر بتشريع الله، فكما أن الله تعالى طهر الملائكة أصلاً فقد طهرنا معشر الإنس تشريعاً، وبذلك نفهم الآية على إطلاقها ونرفع الخلاف، وقول الحق سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ أي: حتى يأذن الله لهن بالطهر، ثم يغتسلن استجابة لتشريع الله لهن بالتطهر ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني: في الأماكن الحلال.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ وأراد الحق تبارك وتعالى أن يدخل عليك أنساً، فكما أنه طلب منك أن تتطهر ماديًا فهو سبحانه قبل أيضاً منك أن تتطهر معنويًا بالتوبة، لذلك جاء بالأمر حسيًا ومعنويًا، وبعد ذلك جاء الحق سبحانه وتعالى بحكم جديد، هذا الحكم ينهي إشكالاً أثاره اليهود.

وقد كان اليهود يثيرون أن الرجل إذا أتى امرأته من خلف ولو في قُبلها ـ بضم القاف ـ جاء الولد أحول. و«القُبل» هو مكان الإتيان، وليس معناه الإتيان في الدبر ـ والعياذ بالله ـ كما كان يفعل قوم لوط. ولمّا كان هذا الإشكال الذي أثاره اليهود لا أساس له من الصحة فقد أراد الحق تعالى أن يرد على هذه المسألة فقال:

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

إن الحق سبحانه وتعالى يفسح المجال للتمتع للرجل والمرأة على أي وجه

من الأوجه شريطة أن يتم الإتيان في محل الإنبات، وقد جاء الحق بكلمة «حرث» هنا ليبيِّن أن الحرث يكون في مكان الإنبات. ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾ وما هو الحرث؟ الحرث مكان استنبات النبات، وقد قال تعالى:

﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

فأتوا المرأة في مكان الزرع، زرع الولد، أما المكان الذي لا ينبت منه الولد فلا تقربوه، وبعض الناس فهموا خطأ أن قوله: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ معناها: إتيان المرأة في أي مكان، وذلك خطأ؛ لأن قوله سبحانه: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ عني: محل استنبات الزرع، والزرع بالنسبة للمرأة والرجل هو الولد، فَأْتِها في المكان الذي ينجب الولد على أي جهة شئت.

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: إياك أن تأخذ المسألة على أنها استمتاع جنسي فحسب، إنما يريد الحق سبحانه وتعالى ـ بهذه اللذة الجنسية ـ أن يحمي متاعب ما ينشأ من هذه اللذة؛ لأن الذرية التي ستأتي من أثر اللقاء الجنسي سيكون لها متاعب وتكاليف، فلو لم يربطها الله سبحانه وتعالى بهذه اللذة لزهد الناس في الجماع.

ومن هنا يربط الحق سبحانه وتعالى بين كدح الآباء وشقائهم في تربية أولادهم بلذة الشهوة الجنسية حتى يضمن بقاء النوع الإنساني، ومع هذا يحذرنا الحق سبحانه أن نعتبر هذه اللذة الجنسية هي الأصل في إتيان النساء فقال: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾، يعني: انظروا جيداً إلى هذه المسألة على ألا تكون هي الغاية، بل هي وسيلة، فلا تقلبوا الوسيلة إلى الغاية، ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: ادخروا لأنفسكم شيئاً ينفعكم في الأيام المقبلة.

إذن: فالأصل في العملية الجنسية الإنجاب. ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: لا تأخذوا المتاع اللحظي العاجل على أنه هو الغاية، بل خذوه لما هو آت. وكيف نقدم لأنفسنا؟ أو ماذا نفعل حتى لا نشقى بمن يأتي؟ عليك أن تتبين هذه العملية فقدم لنفسك شيئاً يريحك، وافعل ما علمنا رسول الله ﷺ، ساعة تأتي لهذه النعمة وتقترب من زوجتك لا بدّ أن تسمى الله وتقول: «اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني»، وعندما يأتي المسلم أهله وينشأ وليده فلن يكون للشيطان عليه دخل. وقال بعض العلماء: لا يمكن أن يؤثر فيه سحر، لماذا كل ذلك؟

لأنك ساعة استنبتَّه أي: زرعته، ذكرتَ المُنبِتَ وهو الله عزّ وجلّ، وما دمت ذكرت المنبت الخلاّق فقد جعلت لابنك حصانة أبدية، وعلى عكس ذلك ينشأ الطفل

الذي ينسى والده الدعاء إلى الله عندما يباشر أهله فيقع أولاده فريسة للشياطين.

﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: قدموا لها ما يريحكم وما يطيل أمد حياتكم وأعمالكم في الحياة؛ لأنك عندما تقبل على المسألة بنية إنجاب الولد، وتذكر الله وتستعيذ من الشيطان فينعم عليك الخالق سبحانه بالولد الصالح، هذا الولد يدعو لك، ويعلِّم أولاده أن يدعوا لك، وأولاد أولاده يدعون لك، وتظل المسألة مسلسلة فلا ينقطع عملك إلى أن تقوم الساعة، وهنا تكون قدمت لنفسك أفضل ما يكون التقديم.

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معنى ﴿اتقوا الله﴾ أي: إياكم أن تغضبوا ربكم في أي عمل من هذه الأعمال، وكن أيها المسلم في هذه التقوى على يقين من أنك ملاقي الله سبحانه وتعالى، ولا تشك في هذا اللقاء أبداً، وما دمت ستتقي الله وتكون على يقين أنك تلاقيه لم يبق لك إلا أن تُبشَّر بالجنة، وبعد ذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

وفي الآية ثلاثة أشياء:

أولاً: أن تبروا، أي: أن تفعلوا البر، والبر قد يكرهه الإنسان لأنه شاق على النفس.

ثانياً: أن تتقوا، أي: أن تتجنبوا المعاصي، والتقوى تكون أيضاً شاقة في بعض الأحيان.

ثالثاً: أن تصلحوا بين الناس، أي: أن تصلحوا ذات البيْن وقد يكون في الإصلاح بين الناس مئونة وذلك بعد أن تمتنعوا أن تجعلوا الله عُرضة للقسم.

وحين يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ فالعرضة هي الحجاب، وهي ما يعترض بين شيئين، ﴿وعرضة﴾ هي ـ أيضاً ـ الأمر الصالح لكل شيء، فيقال: «فلان عرضة لكل المهمات» أي: صالح لها. والعرضة ـ كما عرفنا ـ هي ما اعترض بين شيئين، كأن يضع الإنسان يده على عينيه فلا يرى الضوء، هنا تكون اليد «عُرضة» بين عيني الإنسان والشمس، إن الإنسان يحجب بذلك عن نفسه الضوء.

كأن الحق سبحانه يقول: «أنا لا أريد أن تجعلوا اليمين عرضة بين الإنسان وفعل الخير والبر والتقوى». فعندما يطلب منك واحد أن تبر من أساء إليك فقد

تقول: «أنا أقسمت ألا أبر هذا الإنسان» إنك بذلك جعلت اليمين بالله مانعاً بينك وبين البر.

ويريد الحق سبحانه بذلك القول أن ينبهنا إلى أن القسم به لا يجوز في منع البر أو صلة الرحم أو إصلاح بين الناس، ومن حلف على شيء فرأى غيره خيراً منه فليفعل الخير وليكفِّرْ عن يمينه، لماذا؟ لأن المؤمن عندما يحلف على ألا يفعل خيراً فهو يضع الله مانعاً بينه وبين الخير، وبذلك يكون قد ناقض المؤمن نفسه بأن جعل المانع هو الحلف بالله، إن الله تعالى هو صاحب الأمر بالبر والتقوى والإصلاح بين الناس، لذلك فالحق تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ أي: أن الحق سبحانه يريد أن يحمي عمليات البر والتقوى والإصلاح بين الناس.

إنك إن حلفت أيها المؤمن ألا تفعل الخير فالحق سبحانه يريد لك أن تحنث في هذا القسم وأن تفعل البر والتقوى والإصلاح بين الناس حتى لا تتناقض مع تشريع الله، ونحن عندما نجد المجتمع وقد صنع فيه كل فرد البر، واتقى فيه كل إنسان المعاصي، ورأى فيه كل إنسان نزاعاً بين جماعتين فأصلح هذا النزاع، أليس هذا دخولاً في السلم كافة، إذن: فالحق سبحانه يريد أن يستبقي للناس ينابيع الخير وألا يسدّوها أمام أنفسهم.

إن الحق تعالى هو الآمر بألا يجعل المؤمن اليمين مانعاً بين الإنسان والبر، أو بين الإنسان والتقوى، أو بين الإنسان والإصلاح بين الناس، ويتساهل الإسلام في مسألة التراجع والحنث في البر فيقول السلف الصالح: «لا حنث خير من البر». إذن: فالمجتمع الذي فيه صنع البر، وتقوى المعاصي، والصلح بين المتخاصمين يدخل في إطار:

﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

والإنسان قد يتعلل بأي سبب حتى يبتعد عن البر أو التقوى أو الإصلاح بين الناس، بل يعمل شيئاً يريحه ويخلع عليه أنه ممتثل لأمر الله، ولنضرب لذلك مثلاً: سيدنا أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ بعد أن جاء مسطح بن أثاثة واشترك مع من خاضوا في الإفك الذي اتهموا فيه أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها.

وخلاصة الأمر أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ زوجة رسول الله ﷺ، كانت قد خرجت مع الرسول الكريم ﷺ في غزوة «بني المصطلق» وكان الأمر بالحجاب قد نزل، لذلك خرجت عائشة رضي الله عنها في هودج.

وقام الرسول ﷺ بغزوته وحان وقت العودة، وفقدت عائشة عقداً لها، وكانت ـ رضي الله عنها ـ خفيفة الوزن؛ لأن الطعام في تلك الأيام كان قليلاً، راحت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تبحث عن عقدها المفقود، وعندما حملوا هودج عائشة ـ رضي الله عنها ـ لم يفطنوا أن عائشة ليست فيه، ووجدت عائشة عقدها المفقود، وكان جيش رسول الله قد ابتعد عنها، وظنت أنهم سيفتقدونها فيرجعوا إليها، وكان خلف الجيش صفوان بن المعطل السلمي وعرفته عائشة وأناخ راحلته وعادت عائشة إلى المدينة، ودار حديث الإفك بوساطة عبد الله بن أُبَيّ بن سلول رأس النفاق.

وكان الغم والحزن يصيبان السيدة عائشة طوال مدة كبيرة وبيّن الحق كذب هذا الحديث، وذاع ما ذاع عن أم المؤمنين عائشة وهي زوجة رسول الله ﷺ قبل أن تكون بنت أبي بكر، وأبو بكر صديق رسول الله ﷺ ولو أن غير عائشة حدث لها ما حدث لعائشة لكان موقف أبي بكر هو موقفه عندما جاء قريبه مسطح بن أثاثة واشترك في حديث الإفك مع من اشتركوا ثم يبرئ الله سبحانه وتعالى عائشة وينزل القول الكريم الذي يثبت براءة أم المؤمنين في حديث الإفك، وحين يبرئها الله سبحانه يأتي أبو بكر وكان ينفق على مسطح فيقطع عنه النفقة ويقول: «والله لا أنفق عليه أبداً» لماذا؟ لأنه اشترك في حديث الإفك، والمسألة في ظاهرها ورع.

لذلك سيمتنع عن النفقة على مسطح بن أثاثة لأن مسطحاً خاض في الإفك، لكن انظر إلى مقاييس الكمال والجمال والفضائل عند الله سبحانه فقد بيّن الحق تبارك وتعالى أن هذا طريق، وذاك طريق آخر، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

فإن كنت تحب أن يغفر الله لك، أفلا تغفر لمن فعل معك سيئة؟ وما دمت تريد أن يغفر الله لك فاغفر للناس خطأهم، قالها الحق عزّ وجلّ لأبي بكر؛ لأنه وقف موقفاً من رجل خاض في الإفك مع من خاض ومع ذلك يبلغه أن ذلك لا يصح.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟﴾ لا تقل: إني حلفت بالله على ألاّ أفعل ذلك الخير، لا. أفعله فالله سبحانه يرضى لك أن تحنث وتكفّر عن يمينك.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ﴾. إن الله عزّ وجلّ يبلغنا: أنا لا أريد أن تجعلوا الحلف بي عُرضة، يعني: حاجزاً أو مانعاً عن فعل الخير، مثلاً لو طُلب منك أن تبر شخصاً أساء إليك فلا تقل: حلفت ألا أبرّ به لأنه لا يستحق، عندها تكون قد جعلت اليمين بالله مانعاً للبر. وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يقول لك: لا، أنا متجاوز عن اليمين بي؛ إن حلفت ألا تبر أو لا تتقي أو لا تصل رحماً أو لا تصلح بين اثنين، أنا تسامحت في اليمين.

والحديث: يقول: «مَنْ حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفِّرْ عن يمينه»[1] وهكذا يحمي الحق سبحانه وتعالى فعل البر ويحمي التقوى ويحمي عمليات الإصلاح بين الناس، ولو كانت قد حلفت بالله ألا تفعلها، لماذا؟ لأنك عندما تحلف بالله ألا تفعل، وتجعل الله سبحانه وتعالى هو المانع، فقد ناقضت التشريع نفسه؛ لأن الله تعالى هو الآمر بالبر والإصلاح والتقوى، فلا تجعل يمين البشر مانعاً من تنفيذ منهج رب البشر.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ إن حلفت على ترك واجب وجب أن ترجع في اليمين، احنثْ فيه وكفِّرْ عنه، والحكم نفسه يسري على الذي يمنع ممتلكاته كالدابة أو الماكينة أو السيارة من انتفاع الناس بها بحجة أنه حلف ألا يعيرها لأحد، وذلك أمر يحدث كثيراً في الأرياف.

ويختم الحق سبحانه وتعالى الآية بالقول الكريم: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إنه سبحانه سميع باليمين الذي حلفته، وعليم بنيتك إن كانت خيراً أم شرًا فلا تتخذ اليمين حجة لأن تمنع البر والتقوى والإصلاح. والحق سبحانه وتعالى عندما يتكلم عن اليمين يعطينا أصلاً من أصول اعتبار اليمين هل هو يمين حقًا أم لغو؟ ومن رحمة الله أنه سبحانه وتعالى لم يأخذ إلا باليمين الذي عُقد القلب عليه، أي: الذي يقصد صاحبه ألا يحنث فيه، أما لغو اليمين فقد تجاوز الله عنه.

مثلاً: الأيمان الدارجة على ألسنة الناس كقولهم: «والله لو لم تفعل كذا لفعلت معك كذا»، «والله سأزورك»، «والله ما كان قصدي» أو الحلف بناءً على الظن؛ كأن تحلف بقولك: «والله حدث هذا» وأنت غير متأكد من تمام حدوثه، لكن ليس في مقصدك الكذب.

أما اليمين الغموس فهي الحلف والقسم الذي تعرف كذبه وتحلف بعكس ما

---

(١) أخرجه مسلم في الأيمان، باب ندب من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها أن يأتي الذي هو خير (١٦٥٠).

تعرف، كأن تكون قد شاهدت واحداً يسرق أو يقتل وتحلف بالله أنه لم يسرق أو لم يقتل، من أجل ذلك كله يحسم الله سبحانه وتعالى هذه القضية بقوله:

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

وكان من المناسب أن تأتي هذه الآية بعد كل ما سبق لأنه سبحانه بيَّن لنا اليمين التي لا تقع وكأنه قال لنا: ارجعوا فيها واحنثوا وسأقبل رجوعكم في مقابل أن تبروا وتتقوا وتصلحوا، فإذا كان قد قبل تراجعنا عن هذا اليمين فلأن له مقابلاً في فعل الخير، وقول الحق سبحانه: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ هو المعنى نفسه لقوله تعالى:

﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩].

أي: الشيء المعقود في النفس والذي رسخ داخل نفسك، لكن الشيء الذي يمر على اللسان فلا يؤاخذنا الله به. ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ والأيمان جمع يمين، واليمين: هو الحلف أو القسم، وسمي يميناً؛ لأنهم كانوا قديماً إذا تحالفوا ضرب كل امرئٍ منهم يمينه على يمين صاحبه، وذلك لأن اليمين هي الجارحة الفاعلة.

وبالمناسبة، فالجارحة الفاعلة إياك أن تظن أنها تفعل بالرياضة والتدريب، وإنما هي تفعل بالخلق أي: كما خلقها الله، فهي مجبرة على الفعل حسب خلقتها.

ولذلك عندما تجد إنساناً ويده اليمنى لا تعمل ويزاول أعماله بيده اليسرى فلا تحاول أن تجعله يستخدم اليمنى بدلاً من اليسرى؛ لأن محاولتك عبث لن يجدي؛ لأن السبب في أنه يستخدم اليسرى بدلاً من اليمنى سبب خلقي، فالجهاز الخاص بالتحكم في الحركة في المخ هو الذي يقرُّ هذا الأمر.

لذلك تجد الذي يكتب بيده اليسرى يتقن الكتابة بها أفضل من الذي يكتب باليمنى في بعض الأحيان، ومن هنا نقول: إنه من الخطأ أن تحاول تغيير سلوك الذي يعمل بيده اليسرى بدلاً من اليمنى؛ لأن ذلك عبث لن يصل لنتيجة.

وأحياناً تجد الجهاز المتحكم في حركة اليدين موجوداً في منتصف ووسط المخ فيرسل حركات متوازنة لليد اليمنى واليد اليسرى معاً، ولذلك تجد شخصاً يكتب بيديه اليمنى واليسرى معاً بالسرعة نفسها وبالإتقان نفسه، ويؤدي بهما الأعمال بتلقائية عادية، ولله في خلقه شؤون، فهو يعطينا الدليل على أنه لا تحكمه

قواعد، فهو سبحانه قادر على أن يجعل اليد اليمنى تعمل، وقادر على أن يجعل اليد اليسرى تعمل، أو يجعلهما يعملان معاً بالقوة نفسها، أو يجعل كلتا اليدين غير قابلتين للعمل، إنها ليست عملية آلية خارجة عن إرادة الله، بل كل شيء خاضع لإرادته سبحانه.

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ المقصود به الحلف، والحلف من معانيه التقوية، وهي مأخوذة من الحِلْف، وهو أن يتحالف الناس على عمل ما، ونحن عندما نتحالف على عمل فنحن نقسِّم العمل بيننا، وعندما نفعل ذلك يسهل علينا جميعاً أن نفعله.

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ والكسب عملية إرادية، لأنك ساعة تقسم بالله دون أن تقصد فهو لا يؤاخذك، وهذا دليل على أن الله سبحانه واسع حليم.

* * *

الدرس الرابع

زينة الحياة الدنيا

زينة الحياة الدنيا

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

الموضع الذي تأتي فيه هذه الآية الكريمة هو موضع ذكر المعركة الإسلامية التي جعلها الله آية مستمرة دائمة؛ لتوضح لنا أن المعارك الإيمانية تتطلب الانقطاع إلى الله، وتتطلب خروج الإنسان المؤمن عما ألف من عادة تمنحه كل المتع.

والمعارك الإيمانية تجعل المؤمن الصادق يضحِّي بكثير من ماله في تسليح نفسه، وتسليح غيره أيضاً.

فمن يقعد عن الجهاد في سبيل الله إنسان تغلبه شهوات الدنيا، فيأتي الحق سبحانه بهذه الآية بعد ذكر الآية التي ترسم طريق الانتصارات المتجددة لأهل الإيمان؛ وذلك حتى لا تأخذنا شهوات الحياة من متعة القتال في سبيل الله ولإعلاء كلمته يقول سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ وكلمة ﴿زُيِّنَ﴾ تعطينا فاصلاً بين المتعة التي يُحلّها الله، والمتعة التي لا يرضاها الله؛ لأن الزينة عادة هي شيء فوق الجوهر، فالمرأة تكون جميلة في ذاتها وبعد ذلك تتزين، فتكون زينتها شيئاً فوق جوهر جمالها.

فكأن الله سبحانه يريد أن نأخذ الحياة ولا نرفضها، ولكن لا نأخذها بزينتها وبهرجتها، بل نأخذها بحقيقتها الاستبقائية فيقول: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، وما الشهوة؟ هي ميل النفس بقوة إلى أي عمل ما.

وحين ننظر إلى الآية فإننا نجدها توضح لنا أن الميل إذا كان مما يؤكد حقيقة استبقاء الحياة فهو مطلوب ومقبول، ولكن إن أخذ الإنسان الأمر على أكثر من ذلك فهذا هو الممقوت.

إن أعنف غرائز الإنسان هي غريزة الجنس. والحيوان يَفْضُل الإنسان فيها، فالحيوان أخذ العملية الجنسية لاستبقاء النوع بدليل أن أنثى الحيوان إذا تم لقاحها

من فحل لا تُمكّن فحلاً آخر منها، والفحل أيضاً إذا ما جاء إلى أنثى وهي حامل فهو لا يُقبل عليها، إذن: فالحيوانات قد أخذت غريزة الجنس كاستبقاء للحياة، ولم تأخذها كالإنسان لذة متجددة.

ومع ذلك فنحن البشر نظلم الحيوانات، ونقول في صفة شهوة الإنسان: إن عند فلان شهوة بهيمية، ويا ليتها كانت شهوة بهيمية بالفعل؛ لأن البهيمة قد أخذتها على القدر الضروري، لكن نحن فلسفناها، إذن: فخروجك بالشيء عما يمكن أن يكون مباحاً ومشروعاً يسمى دناءة شهوة النفس.

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يضمن للكون بقاءه، والبقاء له نوعان: أن تبقى حياة الإنسان بالمطعم والمشرب، وتبقى حياة النوع الإنساني بالتزاوج.

ولكن إن نظرت إلى المسألة وجدت الخلاّق حكيماً عليماً، إنه يعلم أن طفولة أي حيوان بسيطة بالنسبة لأبيه وأمه، ومثال ذلك: الحمامة تطعم فرخها إلى أن يستطيع الطيران، ثم لا تعرف أين ـ بعد ذلك ـ ذهب فرخها، لكن حصيلة الالتقاء بين الرجل والمرأة، والتي أراد الله سبحانه لها أن تنتج الأولاد تحتاج إلى شقاء حتى يبلغ الولد، وذلك ليكون هناك تكافؤ وتناسب بين ما يحرص عليه الإنسان من شهوة، وما يتحمل من مشاق ومتاعب في سبيل الاستمتاع بها واستبقائها، فقول الحق سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ فمن المزين؟ إن كان في الأمر الزائد على ضروريات الأمر، فهذا من شغل الشيطان، وإن كان في الأمر الرتيب الذي يضمن استبقاء النوع فهذا من شغل الشيطان، وإن كان في الأمر الرتيب الذي يضمن استبقاء النوع فهذا من الله سبحانه وتعالى.

ونجد الحق سبحانه وتعالى يضيف «البنين» إلى مجال الشهوات ويقصد بها الذكران، ولم يقل: البنات، لماذا؟ لأن البنين هم الذين يُطلبون دائماً للعزوة ـ كما يقولون ـ ولا يأتي منهم العار، وكان العرب يئدون البنات ويخافون العار، والمحبوب لدى الرجل في الإنجاب حتى الآن هو إنجاب البنين، حتى الذين يقولون بحقوق المرأة وينادون بها، سواء أكان رجلاً أم امرأة إن لم يرزقه الله بولد ذكر فإنه ـ أو إنها ـ تريد ولداً ذكراً.

ولكي يبيِّن الحق سبحانه وتعالى آداب العلاقة بين الزوج والزوجة يقول في كتابه العزيز:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا

وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

يبيِّن لنا الحق سبحانه هنا آداب التعامل بين الزوجين في أثناء الصيام، ويأتي هذا التداخل والامتزاج بين الموضوعات المختلفة في القرآن لنفهم منه أن الدين وحدة متكاتفة تُخاطب كل الملكات الإنسانية، ولا يريد الحق سبحانه أن تظهر أو تطغى ملكة على ملكة أبداً.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ وساعة تسمع ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ فكأن ما يأتي بالتحليل كان مُحرَّماً من قبل، والذي أحله الله في هذا القول كان محرماً في الصيام، لأن الصيام إمساك بالنهار عن شهوة البطن وشهوة الفرج، فكأن قبل أن تنزل هذه الآية كان الرفث إلى النساء في أيام الصيام ـ نهاراً وليلاً ـ حراماً، فقد كان الصيام في بدايته إمساكاً عن الطعام من قبل الفجر إلى لحظة الغروب، ولا اقتراب بين الزوجين في الليل أو النهار، فكان الرفث في ليلة الصيام محرماً، وكان يحرم عليهن الطعام والشراب بعد صلاة العشاء وبعد النوم حتى يفطروا.

وجاء رجل وقال لرسول الله ﷺ: ذهبت فلم أجد أهلي قد أعدوا لي طعاماً، فنمت، فاستيقظت يا رسول الله فعلمت أني لا أقدر أن آكل ولذلك فأنا أعاني من التعب، فأحل الله مسألتين:

المسألة الأولى: هي الرفث إلى النساء في الليل.

والمسألة الثانية: قول الحق سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ أي: كلوا واشربوا إلى الفجر حتى ولو حصل منكم نوم، وهذه رخصة جديدة لكل المسلمين مثلها مثل الرخصة الأولى التي جاءت للمسافر أو المريض، كانت الرخصة الأولى بخصوص مشقة الصوم على المسافر أو المريض، أما الرخصة الجديدة فهي عامة لكل مسلم وهي تعميق لمفهوم الحكم.

وقد ترك الحق سبحانه هذا الترخيص مؤجلاً بعض الشيء لكي يدرك كل مسلم مدى التخفيف، لأنه سبق له أن تعرض إلى زلة المخالفة، ورفعها الله عنه، وانظر للآية القرآنية وهي تقول: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾.

كلمة ﴿تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ

لَكُمْۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ هذه تعلمنا أن الإنسان لم يقو على الصوم كل الوقت عن شهوة الفرج، فعندما تركك تختان نفسك، ثم أنزل لك الترخيص، هنا تشعر بفضل الله عليك.

إذن: فبعض الرخص التي يرخص الله سبحانه لعباده في التكاليف: رخصة تأتي مع التشريع، ورخصة تخفيفية تأتي بعد أن يجيء التشريع، لينبه الحق سبحانه أنه لو لم يفعل ذلك لتعرّضتم للخيانة والحرج.

وانظر الشجاعة في أن عمر ـ رضي الله عنه ـ يذهب إلى النبي ﷺ ويقول له: «أنا يا رسول الله ذهبت كما يذهب الشاب»، والذي جاع أيضاً يقول للرسول ﷺ: إنه جاع، وجاء التشريع ليناسب كل المواقف، فنمسك نهاراً عن شهوتي البطن والفرج، وليلاً أحل الله لنا شهوتي البطن والفرج، وهذا التخفيف إنما جاء بعد وقوع الاختيان ليدلنا على رحمة الله في أنه قَدَّر ظرف الإنسان، ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ﴾، و﴿ٱلرَّفَثُ﴾ هو الاستمتاع بالمرأة، سواء أكان مقدمات أو جماعاً ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ﴾.

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا عملية التحام الرجل والمرأة بكلمة الله، و﴿اللباس﴾ هو الذي يوضع على الجسم للستر، فكأن المرأة لباس للرجل والرجل لباس للمرأة، واللباس أول مدلولاته ستر العورة، فكأن الرجل لباس للمرأة أي: يستر عورتها، والمرأة تستر عورته، فكأنها عملية تبادلية، فهذا يحدث في الواقع فهما يلتفان في ثوب واحد، ولذلك يقول: ﴿بَٰشِرُوهُنَّ﴾ أي: هات البشرة على البشرة.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعلمنا أن المرأة لباس ساتر للرجل، والرجل لباس ساتر للمرأة، ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يظل هذا اللباس ستراً بحيث لا يفضح شيئاً من الزوجين عند الآخرين، ولذلك فالنبي ﷺ يحذرنا أن يحدث بين الرجل وأهله شيء بالليل وبعد ذلك تحكيه المرأة نهاراً، أو يحكيه الرجل، فهذا الشيء محكوم بقضية الستر المتبادل.

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ﴾ وما دام هن لباس لكم وأنتم لباس لهن، فيكون من رحمة الله بالإنسان ـ وقد ضَمَّ الرجلَ والمرأة لباس واحد ـ وبعد ذلك نطلب منهما أن يمتنعا عن التواصل.

إذن: فقوله تعالى: ﴿تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ مسألة حتمية طبيعية، ولذلك قال الحق تعالى بعدها: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ ومعنى «تاب عليكم» هو إخبار من الله بأنه تاب، وحين يخبر الله بأنه تاب، أي: شرع لهم التوبة، والتوبة ـ كما نعرف ـ تأتي على ثلاث مراحل:

يشرع الله التوبة... أولاً.

ثم تتوب أنت... ثانياً.

ثم يقبل الله التوبة... ثالثاً.

﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ لأنه ما دام قد جعل هذه العملية لحكمة إبراز سمو التشريع الإسلامي في التخفيف، فيكون القصد أن تقع هنا وأن يكون العفو منه سبحانه.

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فلم يشأ أن يترك المباشرة على عنانها فقال: أنت في المباشرة لا بدّ أن تتذكر ما كتبه الله، وما كتبه الله تبارك وتعالى هو الإعفاف، والإنجاب، فالمرأة تقصد إعفاف زوجها حتى لا تمتد عينه إلى امرأة أخرى، وهو يقصد أيضاً بهذه العملية أن يعفها حتى لا تنظر إلى غيره. والله سبحانه يريد الإعفاف في تلك المسألة لينشأ الطفل ـ من هذا اللقاء ـ على أرض صلبة من الطهر والنقاء.

وحتى لا يتشكك الرجل في بضع منه هم أبناؤه، والحق سبحانه يريد طهارة الإنسان، فكل نسل يجب أن يكون محسوباً على من استمتع، وبعد الاستمتاع، عليه أن يتحمل التبعة والمسؤولية، فلا يصح لمسلم أن يستمتع ويتحمل سواه تبعة ذلك، فالمسلم يأخذ كل أمر بحقه.

﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: ما كتب الله من أن الزواج للإعفاف والإنجاب، وفي ذلك طهارة لكل أفراد المجتمع، ولذلك قال رسول الله ﷺ:

«وفي بضع أحدكم صدقة. قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له أجر؟! قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»[1].

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ أي: إلى أن يتضح لكم الفجر الصادق، وكان هناك على عهد رسول الله ﷺ أذانان للفجر: كان بلال يؤذن بليل، أي: وما زال الليل موجوداً، وكان ابن أم

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١٠٠٦).

مكتوم يؤذن في اللحظة الأولى من الفجر، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «فإن سمعتم أذان ابن أم مكتوم فأمسكوا» لكن أحد الصحابة ـ وهو عدي بن حاتم ـ قال: أنا جعلت بجواري خيطاً أبيض وخيطاً أسود، وأظل آكل حتى أتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، فقالوا له: إنك لعريض القفا «أي: قليل الفطنة» فالمراد هنا بياض النهار وسواد الليل.

ويقول الحق عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾. لقد كانوا يفهمون أن المباشرة في الليل حسب ما شرع الله لا تفسد الصوم، ولكن كان لا بدّ من وضع آداب للسلوك داخل المسجد أو لآداب سنة الاعتكاف التي سَنَّها رسول الله ﷺ في العشر الأواخر من رمضان.

لهذا بيَّن الحق سبحانه أن حلال المباشرة بين الرجل وزوجته هو لغير المعتكف وفي غير ليل رمضان، أما المعتكف في المسجد فذلك الأمر لا يحل له، ومعنى الاعتكاف هو أن تحصر حركتك في زمن ما على وجودك في مكان ما، ولذلك يقولون: «فلان معتكف هذه الأيام» أي: حبس حركته في زمن ما في مكان ما، وليس معنى ذلك أن الاعتكاف مقصور على العشر الأواخر من رمضان فقط، ولكن للمسلم أن يعتكف في بيوت الله في أي وقت.

واختلف العلماء في الاعتكاف، بعضهم اشترط أن يكون المرء صائماً حين يعتكف، واشترطوا أيضاً أن يكون الاعتكاف لمدة معينة، وأن يكون بالمسجد، وقالوا: إن أردت الاعتكاف، فاحصر حركتك في مكان هو بيت الله.

وكثير من العلماء يقولون: إنك إذا دخلت المسجد تأخذ ثواب الاعتكاف ما دمت قد نويت سنة الاعتكاف؛ بشرط ألا تتكلم في أي أمر من أمور الدنيا؛ لأنك جئت من حركتك المطلقة في الأرض إلى بيت الله في تلك اللحظة، فاجعل لحظاتك لله تعالى.

ولذلك حينما رأى رسول الله ﷺ رجلاً ينشد ضالَّته في المسجد ـ أي: شيئاً قد ضاع منه ـ فقال له: «لا ردَّها الله عليك فإن المساجد لم تُبنَ لهذا».

لماذا؟ لأن المسجد مكان للعبادة، ولذلك أقول لمن يحدثني في المسجد بأي شيء يتعلق بحركة الحياة: «أبشرْ بأنها لن تنفع»؛ لأنك دخلت المسجد للعبادة فقط، إن لحظة دخولك المسجد هي لحظة جئت فيها لتقترب من ربك سبحانه وتناجيه، وتعيش في حضن عنايته، فلماذا تأتي بالدنيا معك؟ وليكن لنا في أحد الصحابة قدوة حسنة؛ كان يقول: كنا نخلع أمر الدنيا مع نعالنا، وزاد

صحابي آخر فقال له: وزِدْ يا أخي أننا نترك أقدارنا مع نعالنا.

انظر إلى الدقة، إن الصحابي المتبع لا يخلع الدنيا مع نعله فقط على باب المسجد، ولكن يخلع أيضاً قَدْره في الدنيا، فيمكن أن تأخذك الدنيا اليوم الكثيرة، والمسجد لن يأخذ منك إلا الوقت القليل، فضع قدرك مع نعلك خارج المسجد، وادخل بلا قَدْر إلا قَدْر إيمانك بالله، واجلس في المكان الذي تجده خالياً، فلا تتخطَّ الرقاب لتصل إلى مكان معين في المسجد، فأنت تدخل بعبودية لله وقد يأتي مجلسك بجانب من يخدمك، والصغير يقعد بجانب الكبير، ولا تلحظ لك قدراً إلا قدرك عند الله.

إن النبي ﷺ كان يجلس حيث ينتهي به المجلس أي: عندما يجد مكاناً له، وهذا خلاف زماننا حيث يحجز إنسان مكاناً لإنسان آخر بالسجادة، وقد يدخل إنسان ليتخطى الرقاب، ليجلس في الصف الأول وهو لا يعلم أن الله قد صف الصفوف قبل أن يأتي هو إلى المسجد، وما دُمنا سنترك أقدارنا فلا تقل أين سأجلس وبجوار من؟ بل اجلس حيث ينتهي بك المجلس ولا تتخط الرقاب، وانْوِ الاعتكاف ولا تتكلم في أي أمر من أمور الدنيا حتى لا تدخل في دعوة رسول الله ﷺ بألا يبارك الله لك في الضالة التي تنشدها وتطلبها.

وكان رسول الله ﷺ يعتكف في المسجد في العشر الأواخر من رمضان، فهل معنى ذلك أن الاعتكاف لا يصح إلا في المساجد؟ لا؛ إن الاعتكاف يصح في أي مكان، ولكن الاعتكاف بالمسجد هو الاعتكاف الكامل؛ لأنك تأخذ فيه بالزمان والمكان معاً.

يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ﴾ ومعنى «الحد»: هو الفاصل المانع من اختلاط شيء بشيء، وحدود الله هي محارمه.

والرسول ﷺ يقول:

«... ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله تعالى في أرضه محارمه»[1].

إذن: فالمحارم هي التي يضع الله لها حدًّا فلا نتعداه، ولنا أن نلحظ أنه ساعة

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢)، ومسلم في المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩).

ينهى الله عن شيء فهو يقول: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ وساعة يأمر بأمر يقول سبحانه: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾؛ وفي ذلك رحمة من الله بك أيها المؤمن.

فلا تجعل امرأتك تأتيك وأنت في معتكفك؛ فقد تكون جميلة، صحيح أنك لا تنوي أن تفعل أي شيء، لكن عليك ألا تقرب أسباب النواهي، ومثال ذلك: تحريم الخمر، لقد أمر الحق سبحانه باجتنابها أي: ألا تقرب حتى مكان الخمر، لأن الاقتراب قد يُزين لك أمر احتسائها، إذن: فلكي تمنع نفسك من تلك المحرمات فعليك ألا تقرب النواهي، وفي الأوامر عليك ألا تتعداها.

ويقول الحق سبحانه وتعالى في سورة المائدة:

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

يبدأ الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ ليؤكد على أن الإنسان لا يصح أن ينظر إلى الأمر الطيب ألا من زاوية أنه مُحلَّل من الله.

والحق سبحانه يقول: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ فهل كل طعام أهل الكتاب حل لنا؟ إن بعضهم يأكل الخنزير. لا، بل الحلال من طعام أهل الكتاب هو الطعام الذي يكون من جنس ما حلل الله لكم، ولا يستقيم أن يستنكف الإنسان من أنه طعام أهل كتاب؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يجعل من الإنسان الذي ارتبط بالسماء ارتباطاً حقيقيًا كالمسلمين، ومن ارتبطوا بالسماء وإن اختلف تصورهم لله، يريد سبحانه أن يكون بينهم نوع من الاتصال لأنهم ارتبطوا جميعاً بالسماء، ويجب أن يعاملوا على قدر ما دخلهم من إيمان باتصال الأرض بالسماء.

إياك أن تقول بمقاطعة أهل الكتاب. لا، ولكن انظر إلى طعامهم فإن كان من جنس الطعام المحلل في الإسلام فهو حلال، ولا يصح أن تمنع واحداً من أهل الكتاب من طعامك؛ لأن الله سبحانه يريد أن ينشئ شيئاً من الألفة يتناسب مع الناس الذين سبق أن السماء لها تشريع فيهم ويعترفون بالإله وإن اختلفوا في تصوره.

وضرب لنا الحق سبحانه المثل مع رسول الله ﷺ، ففي أول مجيء الدعوة الإسلامية، واجهت معسكراً ملحداً يعبد النار، ولا يؤمن بالإله وهو معسكر

فارس؛ ومعسكراً يؤمن بالإله وهو معسكر الروم؛ كانت هناك قوتان في العالم: قوة شرقية وقوة غربية، وعندما يأتي رسول ليأخذ الناس إلى طريق الله، فلا بدّ أن يكون قلبه ـ وقلوب المؤمنين معه ـ مع الذين آمنوا بإله وبمنهج ورسالة، ولا يكون قلبه مع الملاحدة الذين يعبدون غير الله.

ولنر العظمة الإيمانية في الرسول ﷺ نجد الذين يؤمنون بالله ويكفرون به كرسول أَوْلَى عنده ممن يكفرون بالله، ولذلك عندما قامت الحرب بين فارس والروم كانت الغلبة أولاً لفارس، وكانت عواطف الرسول ﷺ والذين آمنوا معه مع الروم؛ لأنهم أقرب إلى معسكر الإيمان الوليد ـ وإن كانوا يكفرون بمحمد ـ فقد كانوا يؤمنون بالله، وأن هناك منهجاً وهناك يوم بعث، ولذلك يضربها الحق سبحانه وتعالى مثلاً في القرآن ليعطينا عدة لقطات، وأولى هذه اللقطات هي أن المسلمين في جانب من عنده رائحة الإيمان، فيقول سبحانه:

﴿الٓمٓ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١ ـ ٥].

وتبدأ هذه الآيات بخبر عن هزيمة الروم، ثم نبوءة من الحق سبحانه وتعالى بأنهم سيَغلبون في بضع سنين، ويوم نصرهم سيفرح المؤمنون بنصر الله، وتنظر القوة الإسلامية التي جاءت لتؤسس ديناً واسعاً جامعاً مانعاً إلى معركة بين دولتين عظميين كلتيهما على أقصى ما يكون من الرقي الحضاري، هذه القوة الإسلامية تتعاطف مع الروم ويحزن المسلمون لأن الفرس قد غَلَبت، فيأتي الحق سبحانه بالخبر اليقين وهو انتصار الروم.

من الذي يستطيع أن يحكم في نهاية معركة بين قوتين عظميين؟ إنه حكم لا يستغرق يوماً، حتى ولو كان قائله عرف أن هناك مدداً قادماً للقوة التي ستنتصر، إنه حكم يستغرق بضع سنين، فمن الذي يستطيع أن يتحكم في معركة ستحدث بعد بضع سنين؟ لكن الأمر يأتي كخبر موثق من الله تعالى:

﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ فِي بِضۡعِ﴾ [الروم: ٣، ٤].

وهذا كلام موثق، لأنه قرآن مسطور يقرأه المؤمنون تعبداً، وعندما سمع أبو بكر الصديق هذه الآية، قال: لقد أقمت رهاناً بأن الروم ستنتصر بعد ثلاث سنين، وطالبه الرسول ﷺ أن يمد مدة الرهان لأن الله سبحانه قال: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع، ولذلك قال النبي ﷺ لسيدنا أبي بكر ـ رضي

الله عنه ـ: فَزايدْهُ في الخطر ومادّه في الأجل فجعلت مائة قلوص «ناقة» إلى تسع سنين، كأن هذا الأمر قد لقي الوثوق الكامل من المؤمنين؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد أخبر بالنصر.

لقد أوردنا ذلك هنا حتى نفهم أن عواطف الرسول ﷺ كانت مع الذين يؤمنون بكتاب وبرسول، ونحن هنا نجد الحق سبحانه يحلل لنا مطاعمة أهل الكتاب حتى تكون هناك صلة بيننا وبين من يؤمن بإله وبمنهج السماء: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾.

وبيَّن الحق سبحانه ذلك في آيات أخرى حينما قال:
﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

فالحق سبحانه يريدنا أن نوازن في أسلوب تعاملنا فلا نساوي بين ملحد مشرك ومؤمن برسالة سماوية ـ وإن كفر برسول الله ـ وأن يكون هناك قدر محدود من التواصل الإنساني، فالذي يحل للمؤمنين من طعام أهل الكتاب هو الذي يكون حلالاً في منهج الإسلام، ويجب أن ينتبه المسلم إلى أن بعض أطعمة أهل الكتاب تدخلها الخمور وعليه الامتناع عن كل ما هو محرم في ديننا وليأكل من طعامهم ما هو حلال لنا، فلا يشرب المسلم خمراً، ولا يأكل المؤمن لحم الخنزير.

والطعام ـ كما نعلم ـ وسيلة لاستبقاء الحياة، وها هو ذا سبحانه ينتقل إلى استبقاء النوع وهو التناسل؛ فقد أحل الله تبارك وتعالى لنا أن نتزوج من بناتهم ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾.

والمحصنة لها معنيان: وهي إما أن تكون الحرة في مقابل الأَمة، وإما أن تكون المتزوجة؛ لأن الإحصان يعني: الوقاية من أن تختلط اختلاطاً غير شريف، وكانت الحرة قديماً لا تفعل الفعل القبيح، وكان البغاء مقصوراً على الإماء؛ لأن الأمة لا أب لها ولا أخ ولا عائل، وهي مُهْدَرة الكرامة، ولذلك نجد أن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان عندما سمعت عن الزنا من رسول الله ﷺ تساءلت: يا رسول الله أَوَ تزني الحرة؟! كأن الحرة لم تكن لتزني في الجاهلية؛ لأن الحرة تستطيع أن تمتنع عكس غيرها.

والمحصنة أيضاً هي المتزوجة، ويساوي الحق سبحانه بين المحصنة من

المؤمنات والمحصنة من أهل الكتاب، والمراد هنا الحرة العفيفة، ويشترط المهر لكل واحدة منهن.

وبعض العلماء يقول: عندما تتزوج مسلمة يكفي أن تسمى لها المهر، لأن الدين الواحد يعطي الأمان العهدي، أما الزواج من كتابية فيجب أن يحدد الإنسان المهر وأن يقرره وأن يوفى بذلك، فالإيتاء هو أن يسمى الإنسان المهر ويقرره ويشهد عليه الشهود. ويستطيع أن يجعل الإنسان المهر كله مؤخراً، وبشرط أن يكون الرجل محصناً أي: متعففاً.

ويحدد الحق سبحانه الأمر بقوله: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ﴾ أي: صدائق لهم دون زواج، والسفح: هو الصب. والمرأة البغي هي من يسفح معها أي رجل، والخدن: هي الخليلة أو العشيقة دون زواج، والخدن كذلك يطلق على الذكر كما يطلق على الأنثى، وإياك أن تفكر في أمر إقامة علاقة زواج متعة، بل لا بدّ أن يكون الإقبال على الزواج بنية الزواج المستمر لا الزواج الاستمتاعي.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ لأن فائدة الإيمان أن يستقبل المؤمن الأحكام ممن آمن به إلهاً وينفذها، فإن سترت شيئاً من أحكام الله التي آمنت بها فقد كفرت بالإيمان، والحق سبحانه لا يضره أن يكفر الناس جميعاً؛ لأنه هو الذي خلق الخلق بداية وهو مُتّصف بكل صفات القدرة والكمال.

إذن: فالغلم كله لا يضيف إلى الله شيئاً، فقبل أن يخلق الله سبحانه الإنسان كانت كل صفات الكمال موجودة لله، وكل ثمار الطاعة والعبادة والإيمان إنما تعود على الإنسان، فإن جاء الإنسان إلى الأحكام التي شرعها الله له، وستر حكماً منها فكأنه كفر بقضية الإيمان، وإن أنكر جزئية من جزئيات الإيمان، فهذا لون من الكفر، ويا ليت من يفعل ذلك أن يقول: «إن هذه الجزئية صحيحة ولكن لا أقدر على نفسي».

ففي هذه الحالة يكون الإنسان مؤمناً عاصياً يستغفر الله أو يتوب، أما الكفر فلا. والكفر بالإيمان يؤدي إلى حبط العمل، وهذا دليل على أن الحق سبحانه يخاطب إنساناً يلتزم في بعض الأشياء ولا يلتزم في البعض الآخر، وهنا يبيّن الحق سبحانه للإنسان: إن ما أديت من خير في أعمالك سيذهب بثوابه ويحبط جزاءه ما منعت تنفيذه من أحكام الله، وجاء الحق سبحانه بكلمة «حبط» التي تدل على أن العمل بطل وذهب ذهاباً لا يعود، فالماشية حين تأكل طعاماً لم ينضج بعد وإن كان

من جنس ما تطعم مثل البرسيم في بدايته ويسمى «الرِّبة»، هذا اللون من الطعام عندما ترعى فيه البهائم يحدث لها انتفاخ في البطن وتموت.

والعرب تسمي هذا الداء الحُبَاط، فالحَبَط ـ إذن ـ هو انتفاخ البطن في الماشية التي تأكل أكلاً غير مناسب لها، ويظن صاحبها أنها قد سمنت بينما هي تموت.

وكذلك يكون العمل على غير ما شرع الله سبحانه وتعالى.

* * *

الدرس الخامس

حقوق الزوجة على زوجها

حقوق الزوجة

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤].

والمقصود بـ﴿صَدُقَـٰتِهِنَّ﴾ هو المهور، و﴿النِّحلة﴾ هي العطية، وهل الصداق عطية؟ لا. إنه حق وأجر بضع، ولكن الله سبحانه يريد أن يبيِّن لنا: أَيْ: فليكنْ إيتاء المهور للنساء نحلة، أي: وازع دين لا حكم قضاء.

وانظر إلى اللمسات الإلهية والأداء الإلهي للمعاني، لأنك إن نظرت إلى الواقع فستجد الآتي:

الرجل يتزوج المرأة، وللرجل في المرأة متعة، وللمرأة أيضاً متعة أي: أن كُلاً منهما له متعة وشركة في ذلك، وفي رغبة الإنجاب، وكان من المفترض ألا تأخذ شيئاً، لأنها ستستمتع وأيضاً قد تجد ولداً لها، وهي ستعمل في المنزل والرجل سيكدح خارج البيت، ولكن هذه عطية قررها الله سبحانه كرامة للنساء ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ﴾ والأمر في ﴿آتوا﴾ لمن؟ إما أن يكون للزوج فقوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ﴾ يدل على أن المرأة صارت زوجة الرجل، وصار الرجل ملزماً بالصداق، ومن الممكن أن يكون دَيناً إذا تزوجها بمهر في ذمته يؤديه لها عند يساره، وإمَّا أن يكون الأمر لولي أمرها فالذي كان يزوجه أخته مثلاً، كان يأخذ المهر له ويتركها دون أن يعطيها مهرها، والأمر في الآية ـ إذن ـ إما أن يكون للأولياء، وحين يُشرِّع الحق سبحانه لحماية الحقوق فإنه يفتح المجال لأريحيات الفضل.

لذلك يقول سبحانه: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾.

لقد عَرّف الحق سبحانه الحقوق أولاً بمخاطبة الزوج أو ولي الأمر في أن مهر الزوجة لها لأنه أجر البضع، ولكنه سبحانه فتح باب أريحية الفضل فإن تنازلت الزوجة فهذا أمر آخر، وهذا أدعى أن يؤصل العلاقة الزوجية وأن يؤدم بينهما، والمراد هنا هو طيب النفس، وإياك أن تأخذ شيئاً من مهر الزوجة التي تحت ولايتك بسبب الحياء، فالمهم أن يكون الأمر عن طيب نفس ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾.

والهنيء هو الشيء المأكول وتستسيغه حين يدخل فمك، لكنك قد تأكل شيئاً هنيئاً في اللذة وفي المضغ وفي الأكل ولكنه يورث متاعب صحية. إنه هنيء، لكنه غير مريء، والمقصود هو أن يكون طيب الطعم وليس له عواقب صحية رديئة، وهو يختلف عن الطعام الهنيء غير المريء الذي يأكله الإنسان فيطلب بعده العلاج.

إذن: فكل أكل يكون هنيئاً ليس من الضروري أن يكون مريئاً، وعلينا أن نلاحظ في الأكل أن يكون هنيئاً مريئاً.

والإمام علي بن أبي طالب ـ رضوان الله عليه وكرم وجهه ـ جاء له رجل يشتكي وجعاً، والإمام عليٌّ ـ كما نعرف ـ مدينة العلم والفتيا، وهبه الله تعالى مقدرة على إبداء الرأي والفتوى.

لم يكن الإمام عليٌّ طبيباً، لكن الرجل كان يطلب علاجاً من فهم الإمام عليٍّ وإشراقاته.

قال الإمام عليٌّ للرجل: خذ من صداق امرأتك درهمين واشتر بهما عسلاً، وأذب العسل في ماء مطر نازل لساعته ـ أي: قريب عهد بالله ـ واشربه فإني سمعت الله يقول في الماء ينزل من السماء:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ [ق: ٩].

وسمعته سبحانه وتعالى يقول في العسل: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩].

وسمعته يقول في مهر الزوجة: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء: ٤].

فإذا اجتمع في دواء البركة والشفاء الهنئ والمرئ عافاك الله إن شاء الله. لقد أخذ الإمام عليٌّ ـ رضوان الله عليه وكرّم الله وجهه ـ عناصر أربعة ليمزجها ويصنع منها دواءً ناجعاً، كما يصنع الطبيب العلاج من عناصر مختلفة وقد صنع الإمام عليٌّ علاجاً من آيات القرآن.

ويقول الحق سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

وقلنا: ساعة ينادي الحق سبحانه عباده الذين آمنوا به يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فمعناها: يا من آمنتم بي بمحض اختياركم، وآمنتم بي إلهاً له كل

صفات العلم والقدرة والحكمة والقيومية، ما دمتم قد آمنتم بهذا الإله اسمعوا من الإله الأحكام التي يطلبها منكم. إذن: فهو لم يناد غير مؤمن وإنما نادى من آمن باختياره وبترجيح عقله فالحق سبحانه يقول:

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يعالج قضية تتعلق بالنساء باستضعافهن، لقد جاء الإسلام والنساء في الجاهلية في غَبْن وظلم وحيف عليهن، فقال الحق سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ﴾ وكلمة «ورث» تدل على أن واحداً قد توفي وله وارث، وهناك شيء قد تركه الميت ولا يصح أن يرثه أحدٌ بعده؛ لأنه عندما يقول: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ﴾، فقد مات مورِّث؛ ويخاطب وارثاً.

إذن: فالكلام في الموروث، لكن الموروث مرة يكون حلالاً، ولذلك شرع الله تقسيمه، لكن الكلام هنا في متروك لا يصح أن يكون موروثاً، ما هو؟

قال سبحانه: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ﴾، فهل المقصود ألاّ يرث الوارث من مورثه إماء تركهن؟ لا، إن الوارث يرث من مورثه الإماء اللاتي تركهن، ولكن عندما تنصرف كلمة «النساء» تكون لأشرف مواقعها أي: للحرائر، لأن الأخيرات تعتبر الواحدة منهن ملك يمين، ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ﴾، وهل يوجد ميراث للنساء برضى؟ وكيف تورث المرأة؟

ننتبه هنا إلى قوله سبحانه: ﴿كَرْهًاۖ﴾، وكان الواقع في الجاهلية أن الرجل إذا مات وعنده امرأة جاء وليه، ويلقي ثوبه على امرأته فتصير ملكاً له، وإن لم تقبل فإنه يرثها كرهاً، أو إن لم يكن له هوى فيها فهو يحبسها عنده حتى تموت ويرثها، أو يأتي واحد ويزوجها له ويأخذ مهرها لنفسه؛ كأنه يتصرف فيها تصرف المالك؛ لذلك جاء القول الفصل:

﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾.

و«العضل» في الأصل: هو المنع، ويقال: «عضلت المرأة بولدها»، ذلك أصل الاشتقاق بالضبط، فالمرأة ساعة تلد فمن فضل الله عليها أن لها عضلات تنقبض وتنبسط، تنبسط فيتسع مكان خروج الولد، وقد تعضل المرأة أثناء الولادة، فبدلاً من أن تنبسط العضلات ـ لتفسح للولد أن يخرج ـ تنقبض، فتأتي هنا العمليات التي يقومون بها مثل القيصرية.

إذن: فالعضل معناه مأخوذ من عضلت المرأة بولدها أي: انقبضت عضلاتها ولم تنبسط حتى لا يخرج الوليد، وعضلت الدجاجة ببيضها أي: أن البيضة عندما تكون في طريقها لتنزل فتنقبض العضلة فلا تنزل البيضة، لأن اختلالاً وظيفياً قد حدث نتيجة للحركة الناقصة، ولماذا تأتي الحركة ناقصة؟ لأن الحق سبحانه وتعالى لم يشأ أن يجعل الأسباب في الكون تعمل آلياً وميكانيكياً بحيث إذا وجدت الأسباب تحدث النتيجة، لا ففوق الأسباب مسبِّب إن شاء قال للأسباب: قفي فتقف.

إذن: فكل المخالفات التي نراها تتم على خلاف ما تؤديه الأسباب إنما هي دليل طلاقة القدرة الإلهية، فلو كانت الأشياء تسير هكذا ميكانيكياً، فسوف يقول الناس: إن الميكانيكا دقيقة لا تتخلف، لكن الحق سبحانه يلفتنا إلى أنه يزوال سلطانه في ملكه، فهو لم يزاول السلطان مرة واحدة، ثم خلق الميكانيكا في الكون والأسباب ثم تركها تتصرف، لا، هو يبيِّن لنا: أنا قيوم لا تأخذني سِنَةٌ ولا نوم، أقول للأسباب اعملي أو لا تعملي، وبذلك نلتفت إلى أنه هو سبحانه المسيطر.

وتجد هذه المخالفات في الأشياء الشاذة في الكون، حتى لا نُفتن برتابة الأسباب، ولنذكر الله باستمرار، ويكون الإنسان على ذِكْرٍ من واهب الأسباب ومن خالقها، فلا تتولد عندنا بلادة من أن الأسباب مستمرة دائماً، ويلفتنا الحق سبحانه إلى وجوده، فتختلف الأسباب لتلفتك إلى أنها ليست فاعلة بذاتها، بل هي فاعلة لأن الله سبحانه هو الذي خلقها وتركها تفعل، ولو شاء لعطلها.

وحدث مثل هذا في معجزة إبراهيم ـ عليه السلام ـ حيث ألقاه قومه في النار ولم يُحرق، وكان من الممكن أن ينجي الله سبحانه إبراهيم بأية طريقة أخرى، ولكن هل المسألة نجاة إبراهيم؟ إن كانت المسألة كذلك كان ليمكِّنهم منه، لكنه سبحانه مكنهم منه وأمسكوه ولم يفلت منهم، وكان من الممكن أن يأمر السماء فتمطر عندما ألقوه في النار، وكان المطر كفيلاً بإطفاء النار، لكن لم تمطر السماء بل وتتأجج النار، وبعد ذلك يقول لها الحق سبحانه:

﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

فهل هذا غيظ لهم أم لا؟ هذا غيظ لهم؛ فقد قدرتم عليه وألقيتموه في النار، وبعد ذلك لم يَنْزِل مطر ليطفئ النار، والنار موجودة وإبراهيم في النار، لكن النار لا تحرقه، هذه هي عظمة القدرة الإلهية.

إذن: فما معنى ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾؟ العضل: أخذنا منه كلمة «المنع»؛ فعضلت

المرأة أي: قبضت عضلاتها فلم ينزل الوليد، وأنت ستعضلها كيف؟ بأن تمنعها من حقها الطبيعي حين مات زوجها، وأن من حقها بعد أن تقضي العدة أَنْ تتزوج من تريد أو من يتقدم لها، إن الحق سبحانه يقول: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ أي: لا تحبسوهن عندكم وتمنعوهن، لماذا تفعلون ذلك؟ ﴿لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ كأن هذا حكم آخر، لا ترثوا النساء كرهاً هذا حكم، وأيضاً لا تعضلوهن حكم ثانٍ.

ومثال ذلك: عندما يكون الرجل كارهاً لامرأته فيقول لها: والله لن أطلقك، أنا سأجعلك موقوفة ومعلقة لا أكون أنا لك زوجاً ولا أمكنك أيضاً من أن تتزوجي.

وذلك حتى تفتدي نفسها فتُبرئ الرجل من النفقة ومؤخر الصداق؛ ومن أجل ذلك يحمي الإسلام المرأة ويحرم مثل تلك الأفعال.

ولكن متى تعضلوهن؟ هنا يقول الحق سبحانه: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ لأنهم سيحبسونهن، وهذا قبل التشريع بالحد، وقال بعض الفقهاء: للزوج أن يأخذ من زوجته ما تفتدي به نفسها منه وذلك يكون بمال أو غيره إذا أتت بفاحشة من زنا أو سوء عشرة، وهذا ما يسمى بالخلع وهو الطلاق بمقابل يطلبه الزوج.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وكلمة «المعروف» أوسع دائرة من كلمة المودة؛ فالمودة هي أنك تحسن لمن عندك ودٌّ له وترتاح نفسك له، لأنك فرح به وبوجوده، لكن المعروف قد تبذله ولو لم تكره، وهذه حلت لنا إشكالات كثيرة، عندما أراد المستشرقون أن يبحثوا في القرآن ليجدوا شيئاً يدعَّون به أن في القرآن تعارضاً فيقولوا: قرآنكم يقول:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

كيف لا يواد المؤمن ابنه أو أباه أو أحداً من عشيرته لمجرد كفره، والقرآن في آية أخرى من سورة لقمان يقول:

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥].

ونقول: إن هؤلاء لم يفهموا الفرق بين المودة والمعروف، فـ«الودّ» شيء، و«المعروف» شيء آخر! الود يكون عن حُبٍّ، لكن المعروف ليس ضرورياً أن

يكون عن حُبّ، ساعة يكون جوعان سأعطيه ليأكل وألبي احتياجاته المادية، هذا هو المعروف، إنما الوُدّ هو أن أعمل لإرضاء نفسي، وساعة يعطف الرجل المؤمن على أبيه الكافر لا يعطف عليه نتيجة للوُدّ، إنما هو يعطف عليه نتيجة للمعروف؛ لأنه حتى لو كان كافراً سيعطيه بالمعروف.

ألم يعاتب الحق ـ سبحانه ـ إبراهيم عليه السلام في ضيف جاء له فلم يكرمه لأنه سأله وعرف منه أنه غير مؤمن لذلك لم يضيّفه؟ فقال له ربما سبحانه وتعالى: أمن أجل ليلة تستقبله فيها تريد أن تغير دينه، بينما أنا أرزقه أربعين سنة وهو كافر؟ فماذا فعل سيدنا إبراهيم؟ جرى فلحق بالرجل، وناداه فقال له الرجل: ما الذي جعلك تتغير هذا التغيُّر المفاجئ؟ فقال له إبراهيم: «والله إن ربي عاتبني لأني صنعت معك هذا». فقال له الرجل: أربُّكَ عاتبك ـ وأنت رسول ـ فيَّ ـ وأنا كافر به ـ فنعم الرب ربٌّ يعاتب أحبابه في أعدائه، وأسلم الرجل لله رب العالمين..

هذا هو المعروف، والحق سبحانه يأمرنا أننا يجب أن ننتبه إلى هذه المسائل في أثناء الحياة الزوجية، وهذه قضية يجب أن يتنبه لها المسلمون جميعاً كي لا يُخربوا البيوت، إنهم يريدون أن يبنوا البيوت على المودة والحب فلو لم تكن المودة والحب في البيت لخُرِبَ البيت، نقول لهم: لا، بل ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ حتى لو لم تحبوهن، وقد يكون السبب الوحيد أنك تكره المرأة لأن شكلها لا يثير غرائزك، يا هذا أنت لم تفهم عن الله؛ ليس المفروض في المرأة أن تثير غريزتك، ولكن المفروض في المرأة أن تكون مصرفاً، إن هاجت غريزتك كيماوياً بطبيعتها وجدت لها مصرفاً فأنت لا تحتاج لواحدة تغريك لتحرك فيك الغريزة؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «إذا رأى أحدكم امرأة حسناء فأعجبته فليأت أهله فإن البضع واحد ومعها مثل الذي معها».

أي: أن قطعة اللحم واحدة إن هاجت غريزتك بطبيعتها فأي مصرف يكفيك، ولذلك عندما جاء رجل لسيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ وقال: يا أمير المؤمنين أنا كاره لامرأتي وأريد أن أطلقها، قال له: أوَ لَمْ تُبنَ البيوت إلا على الحب، فأين القيم؟

لقد ظن الرجل أن امرأته ستظل طوال عمرها خاطفة لقلبه، ويدخل كل يوم ليقبلها، فيلفته سيدنا عمر إلى أن هذه مسألة وجدت أولاً وبعد ذلك تنبت في الأسرة أشياء تربط الرجل بالمرأة وتربط المرأة بالرجل.

لـذلـك يقـول الـحق سبـحـانـه : ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، أنت كرهتها في زاوية وقد تكون الزاوية التي كرهتها فيها هي التي ستجعلها تحسن في عدة زوايا؛ لكي تعوض بإحسانها في الزوايا الأخرى هذه الزاوية الناقصة، فلا تبن المسألة على أنك تريد امرأة عارضة أزياء لتثير غرائزك عندما تكون هادئاً، لا؛ فالمرأة مصرف طبيعي إن هاجت غرائزك بطبيعتها وجدت لها مصرفاً، أما أن ترى في المرأة أنها مُلهبة للغرائز فمعنى ذلك أنك تريد من المرأة أن تكون غانية فقط، وأن تعيش معك من أجل العلاقة الجنسية فقط، لكن هناك مسائل أخرى كثيرة، فلا تأخذ من المرأة زاوية واحدة هي زاوية الانفعال الجنسي، وخذ زوايا متعددة.

واعلمْ أن الله سبحانه وزع أسباب فضله على خلقه، هذه أعطاها جمالاً، وهذه أعطاها عقلاً، وهذه أعطاها حكمة، وهذه أعطاها أمانة، وهذه أعطاها وفاء، وهناك أسباب كثيرة جدّاً، فإن كنت تريد أن تكون منصفاً حكيماً فخُذ كل الزوايا، أما أن تنظر للمرأة من زاوية واحدة فقط هي زاوية إهاجة الغريزة، هنا نقول لك: ليست هذه هي الزاوية التي تصلح لتقدير المرأة فقط. ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

وانظر إلى الدقة في العبارة ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟﴾ فأنت تكره؛ وقد تكون مُحِقّاً في الكراهية أو غير مُحِقّ، إنما إن كرهت شيئاً يقول لك الله عنه: ﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ فاطمئن فأنت إن كرهت في المرأة شيئاً لا يتعلق بدينها، فاعلم أنك إن صبرت عليه يجعل الله لك في بقية الزوايا خيراً كثيراً، وما دام ربنا سبحانه هو مَن يجعل هذا الخير الكثير فاطمئن إلى أنك لو تنبهت لزاوية أنت تكرهها ومع ذلك تصبر عليها، فأنت تضمن أن ربنا سيجعل لك خيراً في نواحٍ متعددة، إن أية زاوية تغلبت على كرهك سيجعل الله فيها خيراً كثيراً.

إن الحق سبحانه يطلق القضية هنا في بناء الأسرة ثم يُعمِّم، وكان بإمكانه أن يقول: فعسى أن تكرهوهن ويجعل الله فيهن خيراً، لا؛ فقد شاء أن يجعلها سبحانه قضية عامة في كل شيء قد تكرهه، وتأتي الأحداث لتبين صدق الله في ذلك، فكم من أشياء كرهها الإنسان ثم تبيَّن له وجه الخير فيها، وكم من أشياء أحبها الإنسان ثم تبين له وجه الشر فيها، ليدلك على أن حكم الإنسان على الأشياء دائماً غير دقيق، فقد يحكم بكره شيء وهو لا يستحق الكره، وقد يحكم بحب شيء وهو لا يستحق الحب.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى يأتي بالأشياء مخالفة لأحكامك ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ فقدِّرْ دائماً في المقارنة أن الكرهَ منك وجَعْل الخير في المرأة من الله، فلا تجعل جانب الكره منك يتغلب على جانب جعل الخير من الله.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ٢٠].

فإذا ضاقت بك المسائل، بعد أن عاشرت بالمعروف ولم يعد ممكناً أن تستمر الحياة الزوجية في إطار يرضى عنه الله، وتخاف أن تنفلت من نفسك إلى ما حرم الله، ماذا تفعل؟ يقول سبحانه: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ﴾ أي: لك أن تستبدل ما دامت المسألة ستصل إلى جرح منهج الله، وعليك في هذا الاستبدال أن ترعى المنهج الإيماني مثلما أشار به سيدنا الحسن ـ رضي الله عنه ـ على الرجل الذي كان يستشيره في واحد جاء ليخطب ابنته. قال سيدنا الحسن ـ رضي الله عنه ـ: «إن جاءك الرجل الصالح فزوِّجْهُ، فإنه إنْ أحبَّ ابنتك أكرمها، وإن كرهها لم يظلمها».

والحق سبحانه يقول: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ﴾ فهذا يعني أن الرغبة قد انصرفت عن الأولى نهائياً، ولا يمكن التغلب عليها بغير الانحراف عن المنهج، وقد يحدث أن يضيق الرجل بزوجته وهو لا يعاني من إلحاح في الناحية الغريزية، فيطلقها ولا يتزوج، فما شروط المنهج في هذا الأمر؟

يقول الحق سبحانه: ﴿وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ﴾. كلمة «قنطار» وكلمة «قنطرة» مأخوذة من الشيء العظيم. وقنطار تعني: «المال». وقدروه قديماً بأنه ملء مَسْك البقرة، و«المسك» هو الجلد، فعندما يتم سلخ البقرة يصبح جلدها مثل القربة، وملء مَسْكها يسمى قنطاراً، والقنطار المعروف عندنا الآن له سمة وَزْنِيّة، والحق سبحانه حين يعظم المهر بقنطار يقول: ﴿وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا﴾ فهو يأتي لنا بمثل كبير وينهانا بقوله: ﴿فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ﴾ لماذا؟ لأنك يجب أن تفهم أن المهر الذي تدفعه ليس منساحاً على زمن علاقتك بالمرأة إلى أن تنتهي حياتكما، بل المهر مجعول ثمناً للبضع الذي أباحه الله لك ولو للحظة واحدة، فلا تحسبها بمقدار ما مكثت معك، لا، إنما هو ثمن البضع، فقد كشفت نفسها لك وتمكنت منها ولو مرة واحدة.

إذن: فهذا القنطار عمره ينتهي في اللحظة الأولى، لحظة تَمكُّنِكَ منها. ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ وهذه هي المسألة التي قال فيها سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: أخطأ عمر وأصابت امرأة، لأنه كان يتكلم في غلاء المهور؛ فقالت له المرأة: كيف تقول ذلك والله يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾؟! فقال: أصابت امرأة وأخطأ عمر.

عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه نهى ـ وهو على المنبر ـ عن زيادة صداق المرأة على أربعمائة درهم ثم نزل، فاعترضته امرأة من قريش فقالت: أما سمعت الله يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾؟ فقال: اللهم عفواً كل الناس أفقه من عمر ثم رجع فصعد المنبر فقال: «إني كنت قد نهيتكم أن تزيدوا في صدُقاتهن على أربعمائة درهم فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب».

وعن عبد الله بن مصعب أن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: «لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية من فضة، فمن زاد أوقية جعلتُ الزيادة في بيت المال»، فقالت امرأة: ما ذاك لك، قال: ولـمَ؟ فقالت: لأن الله تعالى يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾!! فقال عمر: «امرأة أصابت ورجل أخطأ».

ثم ينكر القرآن مجرد فكرة الأخذ فيقول: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ لماذا؟ لأنه ليس ثمن استمتاعك بها طويلاً، بل هو ثمن تمكنك منها، وهذا يحدث أوّل ما دخلت عليها، وإن أخذت منها شيئاً من المهر بعد ذلك فأنت آثم، إلا إذا رضيت هي بذلك، والإثم المبين هو الإثم المحيط.

ويأتي الحق سبحانه بعد ذلك بمزيد من الاستنكار فيقول: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾. إنه استنكار لعملية أخذ شيء من المهر بحيثية الحكم فيقول:

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١].

فلو أدركتم كل الكيفيات فلن تجدوا كيفية تبرر لكم الأخذ، لماذا؟ لأن الحق: قال: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾ وانظر للتعليل: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾. إذن: فثمن البُضع هو الإفضاء، وكلمة ﴿أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ كلمة من إله؛ لذلك تأخذ كل المعاني التي بين الرجل والمرأة، و﴿أَفْضَىٰ﴾ مأخوذة من «الفضاء» هو المكان الواسع، و﴿أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ﴾ يعني: دخلتم مع بعض دخولاً غير مُضيِّق.

إذن: فالإفضاء معناه: أنكم دخلتم معاً أوسع مُدَاخَلة، وحسبك من قمة المداخلة أن عورتها التي تسترها عن أبيها وعن أخيها وحتى عن أمها وأختها تبينها

لك، ولا يوجد إفضاء أكثر من هذا، ودخلت معها في الاتصال الواسع، أنفاسك، ملامستك، مباشرتك، معاشرتك، مدخلك، مخرجك، في حمامك، في المطبخ، في كل شيء حدثت إفضاءات، وأنت ما دمت قد أفضيت لها وهي قد أفضت لك كما قال الحق سبحانه أيضاً في المداخلة الشاملة:

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

أيّ شيء تريد أكثر من هذا!؟ ولذلك عندما تشتد امرأة على زوجها، قد يغضب، ونقول له: يكفيك أن الله أحل لك منها ما حرَّمه على غيرك، وأعطتك عرضها، فحين تشتد عليك لا تغضبْ، وتذكَّرْ حديث رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي».

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ والميثاق هو: العهد يؤخذ بين اثنين، ساعة سألت وليها: «زوِّجْني» فقال لك: «زوَّجتك»، ومفهوم أن كلمة الزواج هذه ستعطي أسرة جديدة، وكل ميثاق بين خلق وخلق في غير العرض هو ميثاق عادي، إلا الميثاق بين الرجل والمرأة التي يتزوجها؛ فهذا هو الميثاق الغليظ، أي: غير اللِّين، والله سبحانه لم يصف به إلا ميثاق الأنبياء فوصفه بأنه غليظ، ووصف هذا الميثاق بأنه غيظ، ففي هذه الآية ﴿أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ إفضاء، وفي آية أخرى يكون كل من الزوجين لباساً وستراً للآخر ﴿لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ لهذا كان الميثاق غليظاً، وهذا الميثاق الغليظ يحتِّم عليك إن تعثَّرت العشرة أن تتحملها وتعاملها بالمعروف، وإن تعذرت وليس هناك فائدة من استدامتها فيصح أن تستبدلها، فإن كنت قد أعطيتها قنطاراً إياك أن تأخذ منه شيئاً، لماذا؟ لأن ذلك هو ثمن الإفضاء، وما دام هذا القنطار هو ثمن الإفضاء وقد تم، فلا تأخذ منه شيئاً، فالإفضاء ليس شائعاً في الزمن كي توزعه، لا.

والحق سبحانه يقول: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ هنا يجب أن نفهم أن الحق تعالى حين يشرِّع فهو يشرع الحقوق، ولكنه لا يمنع الفضل، بدليل أنه قال:

﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء: ٤].

إذن: فهناك فرق بين الحق وما طاب لكم، والأثر يحكي عن القاضي الذي قال لقومه: أنتم اخترتموني لأحكم في النزاع القائم بينكم فماذا تريدون مني؟! ألحكم بالعدل أم بما هو خير من العدل؟ فقالوا له: وهل يوجد خير من العدل؟

قال: نعم، الفضل، فالعدل: أن كل واحد يأخذ حقه، والفضل: أن تتنازل عن حقك وهو يتنازل عن حقه، وتنتهي المسألة، إذن: فالفضل أحسن من العدل، والحق سبحانه وتعالى حين يشرع الحقوق يضع الضمانات، ولكنه لا يمنع الفضل بين الناس.

فقول الحق جل شأنه:

﴿وَلَا تَنسَوُا ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

ويقول سبحانه في آية الدَّين:

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾ [البقرة: ٢٨٢].

يأمركم الحق سبحانه أن توثّقوا الدَّين، لأنكم لا تحمون مال الدائن فحسب بل تحمون المدين نفسه، لأنه حين يعلم أن الدَّين موثق عليه ومكتوب عليه فلن ينكره، لكن لو لم يكن مكتوباً فقد تُحدثه نفسه أن ينكره، إذن: فالحق تبارك وتعالى يحمي الدائن والمدين من نفسه حين قال: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ﴾.

وقال سبحانه بعدها:

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

فقد تقول لمن يستدين منك: لا داعي لكتابة إيصال وصكٌ بيني وبينك، وهذه أريحية لا يمنعها الله فما دام قد أمن بعضكم بعضاً فليستح كل منكم وليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه.

وما دام قد جعل للفضل مجالاً مع تسجيل الحقوق فلا تنسوا ذلك. فما بالنا بالميثاق الغليظ بين الرجل والمرأة، وغلظ الميثاق إنما يتأتى بما يتطلبه الميثاق، ولا يوجد ميثاق أغلظ مما أخذه الله من النبيين ومما بين الرجل والمرأة؛ لأنه تعرض لمسألة لا تباح من الزوجة لغير زوجها، ولا من الزوج لغير زوجته. إن على الرجل أن يوفي المرأة ولا يصح أن ينقصها شيئاً إلا إذا تنازلت هي. فقد سبق أن قال الحق سبحانه:

﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤].

وما دامت النفس قد طابت، إذن: فالرضا بين الطرفين موجود، وذلك استطراق أنسي بين الرجل والمرأة. فالمهر حقها، ولكن يجب ألاّ يقبض بالفعل، فهو في ذمة الزوج، إن شاء أعطاه كله أو أخّره كله أو أعطى بعضه وأخر بعضه. ولكن حين تنفصل الزوجة بعد الدخول يكون لها الحق كاملاً في مهرها، إن كان

قد أخره كله فالواجب أن تأخذه، أو تأخذ الباقي لها إن كان قد دفع جزءاً م
كمقدم صداق.

ولكن حين تنتقل ملكية المهر إلى الزوجة يفتح الله تعالى باب الرض
والتراضي بين الرجل والمرأة فقال: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ فه
هبة تخرج عن تراض؛ وذلك مما يؤكد دوام العشرة والألفة والمودة والرحمة بي
الزوجين.

وبعد ذلك يبقى حكم آخر: هَبْ أن الخلاف استعر بين الرجل والمرأ
فماذا يكون العمل؟

في حالة كره الزوجة لزوجها ورغبتها في أن تخرج منه فلا جناح أن تفتد
منه نفسها ببعض المال لأنها كارهة، وما دامت هي كارهة، فسيضطر هو إلى ا
يأتي بزوجة جديدة، إذن: فلا مانع أن تختلع المرأة منه بشيء تعطيه له:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

الحق سبحانه وتعالى أراد أن يعطينا الدليل على أن حق المرأة يجب
يُحفظ لها، ولذلك جاء بأسلوب تناول مسألة أخذ الزوج لبعض مهر الزوجة ف
أسلوب التعجب:

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا
[النساء: ٢١].

فكأن قوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾ دليل على أنه لا يوجد وجه من وجوه الح
يبيح لك أن تأخذ منها مهرها، فساعة يستفهم فيقول: «كيف»؟ فهذا تعجب من
تحدث هذه المسة، وقلنا: إن كل المواثيق بين اثنين لا تعطي إلا حقوقاً دو
العرض، ولكن ميثاق الزواج يعطي حقوقاً في العرض، ومن هنا جاء غل
الميثاق، وكل عهد وميثاق بين اثنين قد ينصبُّ إلى المال، وقد ينصبُّ إ
الخدمة، وقد ينصبُّ إلى أنك تعطيه مثلاً المعونة، هذه ألوان من المواثيق إلا مس
العرض، فمسألة العرض عهد خاص بين الزوجين، ومن هنا جاء الميثاق الغل
الذي ينبغي على الزوجين احترامه، والقيام بواجباته خير قيام حتى تدوم الح
الزوجية، وحتى تدوم الألفة والمودة والرحمة في الأسرة ومن ثم في المجت
الإسلامي كله..

* * *

القسم الثالث

الدرس الأول

قضايا وأحكام تتعلق بالمرأة المسلمة

(الحقوق والواجبات)

حقوق وواجبات المرأة

ما من قضية أثارت جدلاً في كل بيت مسلم، وفي كل بيت غير مسلم، مثل قضية الأحكام الخاصة بالمرأة في القرآن الكريم، وما حُورِبَ الإسلام من المستشرقين، مثلما حورب بقضايا المرأة في تعدد الزوجات، وميراثها، الذي يبلغ نصف ميراث الرجل، أيضاً شهادتها، حيث إن شهادة الرجل بشهادة امرأتين، وغير ذلك من الأحكام، التي تعمدوا فيها القول بالباطل والمفاهيم الخاطئة، لإثارة الناس.

لكن فجأة، وبعد أن طحنت التجربة المرأة في أوروبا وأمريكا، وبعد أن أصيبت مجتمعاتهم بأمراض عضوية وخلقية، إذا بهم لا يجدون طريقاً إلا الطريق الإسلامي، مضطرين إليه اضطراراً، بعد أن بينت لهم التجربة النتائج المدمرة التي يمكن أن تحدث عندما يُشَرِعُ الناس لأنفسهم، ويتركون ما شرعه الله..

لقد قالوا: لا طلاق، زواج كاثوليكي، امرأة واحدة فقط، وأخذوا يتباهون أنهم وجدوا الحل الأمثل للحياة، وإذا بالكنيسة الكاثوليكية نفسها ـ التي تبنت هذا القانون ـ هي التي تلغيه تحت ضغط المشاكل الهائلة التي حدثت منه.

وقالوا لا ترضعوا أولادكم، وانشأوا شركات هائلة تصنع اللبن للطفل، مدعين أن هذا اللبن الذي يصنعونه هو أفضل من لبن الأم، الذي خلقه الله سبحانه وتعالى، وهو العليم بخلقه وما يصلح، أو ما لا يصلح لهم.

ثم مرت السنوات، وللأسف الشديد، الدول الإسلامية قلدت دول الغرب، وقلد أطباؤنا أطباءهم، ثم ماذا حدث؟ أثبتت الأبحاث أن لبن الأم، هو الذي يعطي الطفل المناعة طوال حياته، وأن البعد عن لبن الأم أنشأ أجيالاً مريضة جسدياً ونفسياً وعقلياً.

وأفاقت المجتمعات الغربية، فأخذت تصيغ قصائد المدح في لبن الأم وفوائده، وما يفعله في الطفل، وإذا بكل رسائل الدعاية، تدعو الأمهات لإرضاع أطفالهن، لأن الطفل لا يأخذ من ثدي أمه اللبن فقط، ولا الصحة فقط، ولكن يأخذ منه الحنان، والشعور بالأمان والانتماء للأسرة، وكل ما هو طيب في هذه الحياة.

ونحن لأننا نجري ونلهث وراء الحياة المادية الغربية، التي بهرتنا بقشورها، وكما لهثنا وراءهم، في بيان مزايا ألبان الأطفال التي تنتجها الشركات، لهثنا وراءهم ندعو المرأة إلى ضرورة إرضاع طفلها عامين كاملين، ونسينا القرآن الكريم الذي أمرنا بذلك منذ أربعة عشر قرناً ونسينا قول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وهكذا عاد العالم كله، مكرهاً إلى شرع الله، لم يعد عن إيمان، ولا عن اعتناق للدين، ولكنه عاد بعد تجارب عديدة وأليمة، أراد الله سبحانه وتعالى برحمته أن يقينا شرها، ولكننا تركنا حكم الله، ثم عدنا مكرهين إليه، لأن الحياة لا تستقيم بدونه.

وتحدث الغرب عن حرية الجنس، وكيف أن المرأة لا بد أن تكون لها الحرية، في أن تفعل ما تشاء، على أنها حرية شخصية، وقد وصل الحد بدولة كبريطانيا، إنها أباحت الشذوذ الجنسي، واعتبرته أمراً مشروعاً ومباحاً، ثم ماذا حدث؟!

اكتشفوا مرض الإيدز الذي لا علاج له، وإذا بأبواق الإباحة في العالم، ودعاة الحرية الشخصية وغير ذلك يقولون إنه لا علاج لهذا المرض إلا بالتمسك بالفضيلة، وأن مرض الإيدز لا يصيب الزوج وزوجته إذا ما اكتفى كل منهما بالآخر، ولكنه يصيب كل من يتجاوز هذه الحدود.

وعاد العالم يدعو إلى التزام الفضيلة والتمسك بها، وهو ما أمر به الله تبارك وتعالى، ولكن المجتمعات الغربية بعدت عنه بدعوى الحرية الشخصية، وإذا بها تعود، ليس عن إيمان كما قلت، ولكن لأنها قاست النتائج المرة لمنهج حياة البشر، وإذا بها تعود وتطالب بالفضيلة، وتحث الناس عليها، ولكنها لأسباب دنيوية، وليس لأسباب دينية.

وهكذا في كل شيء خالف الناس فيه شرع الله في أمور الدنيا، حتى نظام البنوك الذي يستخدم فيه الربا، أوجد من المشاكل الاقتصادية في العالم ما جعل الدول الغنية تزداد غنى، والدول الفقيرة تزداد فقراً، حتى وجد من كبار رجال الاقتصاد الغربيين، من يقول إن اقتصاد العالم لن يعتدل، إلا إذا كانت الفائدة تساوي صفراً، ولو أنه قرأ القرآن الكريم، لوجد أن الله تعالى قد أخبرنا بذلك منذ أربعة عشر قرناً، ولكننا نبذنا ما قاله الله، ووضعنا نظاماً بشرياً، أصاب الدنيا بالكوارث.

المرأة قبل الإسلام

هذه هي مجرد إشارات، لموضوعات سنتناولها بالتفصيل في هذا القسم، لنرد على كل ما يقال، عن أحكام المرأة في الشريعة الإسلامية، سواء كان الذين يقولونه ينتمون زيفاً إلى الإسلام، أو كانوا ممن يحاربونه علناً.

وقبل أن نبدأ الحديث، لا بد أولاً أن نستعرض كيف كانت حالة المرأة عند نزول القرآن، ثم نبين بعد ذلك كيف أن الإسلام أعاد للمرأة كرامتها وشخصيتها، وأنزلها مكانة عالية، لم تكن القوانين الوضعية في ذلك الوقت، قد وصلت ولو إلى جزء منها.

إننا أو أخذنا مثلاً قوانين اليونان نجد أن المرأة كانت تدخل ضمن ممتلكات ولي أمرها، فهي قبل الزواج، ملك لأبيها أو أخيها، أو من يلي أمرها، وهي بعد الزواج ملك لزوجها، فليس لها تصرف في نفسها، وهي لا تملك ذلك، لا قبل الزواج ولا بعده، وهي تباع لمن يشتريها، واللذي يقبض الثمن وهو ولي الأمر!.

وفي القانون الروماني، كانت المرأة تعامل كالطفل أو كالمجنون، أي لا أهلية لها، وكان لرب الأسرة أن يبيع من يشاء من النساء، ممن هن تحت ولايته، وتظل المرأة تحت سلطان ولي أمرها، سواء كان أباً أو زوجاً حتى الموت، وله حق البيع والنفي والتعذيب، بل والقتل!

وفي شريعة اليهود، تعتبر المرأة في منزلة الخادم عند بعض فرق اليهود، وتحرم الأنثى من الميراث، سواء كانت أماً أو زوجة إذا ما كان للميت ذكور، وهذا موجود في الاصحاح ٢١ من «سفر التكوين».

إن قوانين الأحوال الشخصية للاسرائيليين تقول: إذا توفي الزوج ولا ذكور له، تصبح أرملته زوجة لشقيق زوجها، أو لأخيه من أبيه، ولا تحل لغيره إلا إذا تبرأ منها ورفض الزواج بها.

وفي القانون الصيني، كانت القاعدة أن النساء لا قيمة لهن، ويجب أن يعطين أحقر الأعمال، وفي القوانين الهندية لا يحق للمرأة في أي مرحلة من مراحل حياتها أن تجري أي أمر وفق مشيئتها ورغبتها، وأن المرأة في مراحل طفولتها تتبع والدها، وفي مراحل شبابها تتبع زوجها، فإذا مات الزوج تبعت أولادها.

وفي أوروبا، كانت حالة المرأة، وقت نزول الإسلام تساوي كارثة، تباع وتشترى وتعذب، وتأخذ أشق الأعمال بأقل الأجور.

تلك لمحة سريعة، عن بعض الأحوال والقوانين، التي كانت تخضع لها المرأة قبل الإسلام، ولقد كتب الفيلسوف الإنجليزي هيربرت سبنسر في كتابه «علم

الاجتماع»: أن الرجال كانوا يبيعون الزوجات في انجلترا، فيما بين القرن الخامس، والقرن الحادي عشر الميلادي.

لقد وضعت محاكم الكنيسة قانوناً، يعطي الزوج الحق في أن يعطي زوجته لرجل آخر، لمدة محددة، بأجر أو بغير أجر! وظل هذا القانون مطبقاً حتى ألغى، وفي عام ١٩٣٣ باع إنجليزي زوجته بمبلغ خمسمائة جنيه استرليني، وألغى القضاء هذا البيع!

ولم يكن للمرأة في أوروبا، حتى فترة قصيرة، حق الحضور أمام القضاء، أو حق إبرام العقود، ولا تملك البيع أو الهبة، بغير مشاركة زوجها في العقد بموافقة مكتوبة.

وحتى عام ١٩٤٢، كان الزوج هو المتصرف في أموال زوجته، ثم عُدل هذا، بأن تتصرف الزوجة في أموالها. بعد أن تثبت إنها ليست أموالاً مشتركة بينها وبين زوجها.

على أننا ونحن نورد هذه الأمثلة، إنما نتحدث عن قليل من كثير، فنحن في هذا القسم ليس هدفنا مقارنة أوضاع المرأة في الإسلام بأوضاعها في دول العالم غير المسلمة، ولكننا نقول إنه إذا كانت المرأة قد حصلت حديثاً في أوروبا وأمريكا على حقوق ومساواة. فإن الإسلام كان أول من أعطى المرأة حقوقها، وأعاد إليها كرامتها، وأعطاها الحرية في أن ترفض أو تختار زوجها بحريتها، ولا يتم زواج الفتاة دون استئذانها وموافقتها وبشاهدين، وما أن توكل والدها، ولها أن ترفض الزوج.

إن المرأة في الإسلام تحتفظ بشخصيتها القانونية المستقلة، ولها حق التملك وحق التجارة، وقد كانت السيدة خديجة رضي الله عنها تعمل بالتجارة، وكان رسول الله ﷺ قبل زواجه منها يعمل في تجارتها، ويرعى لها أموالها.

* * *

تكامل الرجل والمرأة

وقبل أن نبدأ، في مناقشة الموضوع تفصيلاً، لا بد أن نحدد قضية الخلاف على الحقوق والواجبات بين الرجل والمرأة، ذلك أن هذا الخلاف يثور لعدم فهم طبيعة الخلق من الله سبحانه وتعالى، ذلك لأن الناس تحسب أن الرجل والمرأة خلقا متنافسين، ولكنهما في الحقيقة خلقا متكاملين، أي يكمل كل منهما الآخر، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ١ ـ ٤].

لقد أراد الله تبارك وتعالى، أن يلفتنا إلى قضية التكامل بين الرجل والمرأة، كقضية التكامل بين الليل والنهار، الليل والنهار مختلفان في الطبيعة، فالنهار يملؤه الضوء وهو وقت السعي وراء الرزق والحركة، والليل تملؤه الظلمة وهو وقت السكون والراحة والنوم.

كلاهما ـ أي الليل والنهار ـ يختلفان في طبيعة مهمتهما في الكون، ولكنهما مع ذلك متكاملان في هذه المهمة، أي يكمل أحدهما الآخر، فلو أن الله سبحانه وتعالى جعل الدنيا كلها نهاراً، لتعب الناس لأنهم لا يجدون وقتاً تسكن فيه حركة الكون، ويستطيعون الراحة فيه.

ولو أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون كله ليلاً، ما استطاع الناس الحركة ولا العمل، ولا السعي على الرزق إلا بصعوبة.

واقرأ قول الحق جل جلاله:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢].

إن الله سبحانه وتعالى، يلفتنا إلى أن مهمة الليل والنهار في الكون هي مهمة متكاملة، وليست متعاندة، أي لا يعاند بعضها بعضاً، ولكن يكمل بعضها بعضاً، وهذا واضح من حركة الحياة.

الإنسان إذا لم يسترح ويسكن ليلاً، لا يستطيع السعي والعمل نهاراً،

والإنسان الذي تضطره ظروفه مثلاً، أن يواصل العمل ليلاً ونهاراً، لا يمر عليه يومان، إلا يكون قد فقد القدرة على العمل والحركة، ولا بد أن ينام فترة توازي فترة ليل اليومين اللذين قضاهما مستيقظاً.

النوم بالليل هو الذي يعطي الراحة الحقيقية للجسم، ذلك أن حركة الحياة تهدأ ليلاً، مما يتيح للإنسان نوماً عميقاً، فضلاً عن ذلك فإن النوم ليلاً ـ كما ثبت من الأبحاث الطبية الحديثة ـ يعطي الجسد راحة لا يعطيها له نوم النهار.

كذلك لا يستطيع أحد أن يقول، إن الليل والنهار متعاندان، بل هما متكاملان، يكمل كل منهما الآخر، ولكي تستقيم الحياة، لا يستغني الإنسان عن ليل أو نهار، أيضاً الرجل والمرأة خلقهما الله سبحانه وتعالى متكاملين وليسا متعاندين، الرجل له وظيفته في السعي على الرزق، ورعاية زوجته وأولاده، وتوفير أسباب الحياة لهم. والمرأة لها مهمتها في رعاية البيت وإنجاب الأولاد، وتكون مسكناً للزوج عندما يعود إلى بيته متعباً من حركة الحياة، تستقبله بابتسامة تمسح له شقاء اليوم، ويجد كل ما يحتاجه في بيته معداً، ولذلك قال الله تبارك وتعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وهكذا حدد الله سبحانه وتعالى، المهمة المتكاملة للرجل والمرأة، فكلاهما يكمل بعضه بعضاً، لا الرجل يصلح لمهمة المرأة في انجاب الأطفال ورعاية البيت، وتربية الأولاد والعناية بهم، ولا المرأة مهمتها الأساسية أن تسعى في سبيل الرزق، لتوفر لقمة العيش للرجل. وليس هذا على مستوى الأمة الإسلامية، ولكنه القانون السائد الذي وضعه الله سبحانه في الكون كله.

لا يوجد رجل يبقى في البيت وامرأته تعوله وهو قادر على الكسب، إلا نال احتقار الناس بما فيهم زوجته، ولا توجد امرأة إلا تتمنى أن تعيش في حماية رجل يوفر لها كل شيء ويرعاها..

تلك هي سنة الله في كونه بصرف النظر عن الإيمان وعدم الإيمان. ومن تمام الحياة، أن يؤدي كل إنسان مهمته فيها، أما قلب الموازين، فلا ينجم عنه إلا الشقاء للإنسان.

ولكن ما الذي حدث؟ أخذت القضية غير مسارها، وأصبح هناك شبه معركة بين الرجل والمرأة، فلا المرأة قنعت بدورها ومهمتها، ولا الرجل رضي بمهمة المرأة في الحياة، بل كلاهما دخل في معركة متعاندة، وهذا هو الذي أوجد القضية

التي ما كان يجب أن توجد لو أن كلا منهما رضي بمهمته في الحياة.

لكن المرأة أصرت على أن تزاحم الرجل في العمل، والرجل استسلم لمزاحمة المرأة، بل ودفعها إلى ذلك، فما الذي حدث؟ حدث اختلال في المجتمع، بعض الناس يقول إن الضرورة قضت عمل المرأة، ونحن لا نتحدث هنا عن وضع شاذ، ولكننا نتحدث عن الأمور الطبيعية.

عمل المرأة أفسد مهمتها

إن قضية عمل المرأة، قد أضاعت الأجيال من الأولاد، فافتقد الابن حنان الأم ورعايتها، ونشأ في حالة اضطراب نفسي. نشهدها الآن في الأجيال الشابة التي بعدت عن حنان الأم ورعايتها، وتعليم أولادها القيم في الحياة.

قد يقال إن دور الحضانة، قد حلت هذه المشكلة، وأن المرأة يمكنها أن تترك أولادها في دور الحضانة، في رعاية مشرفات مثقفات، نقول إن هذا كلام لا يتفق مع الواقع، فلا توجد امرأة تستطيع أن تعطي حنانها، واهتمامها لمائة طفل، ذلك أنها إذا أعطت هذا الحنان والاهتمام لطفلين أو ثلاثة فإنها ستهمل باقي الأطفال، فضلاً عن أن حنان الأم عاطفة طبيعية، وضع الله سبحانه وتعالى فيها من مقومات الرعاية والحب والاهتمام ما يحتاجه الطفل، ولا يمكن لأي امرأة أن تعطي لأطفال غيرها نفس الحنان الذي تعطيه لأولادها.

ومن هنا مهما ارتقت مشرفة الحضانة، فإنها لا تستطيع أن تعطي الطفل حنان أمه، بل يبقى الشيء ناقصاً. ولعل الحيرة النفسية التي يعانيها جيل الشباب في العالم كله، إنما تعطينا صورة لما يمكن أن يحدث عندما يبتعد الطفل من حنان أمه، فهو ينشأ قاسياً عليها، فاقد الاحساس بالانتماء لها. روابط الأسرة عنده مفككة، فاقد للقيم الاجتماعية، ولشعور التضامن والانتماء وغير ذلك.

وفضلاً عن هذا كله، نكون قد حملنا المرأة فوق طاقتها، لأنها مكلفة بأعباء البيت وأعباء العمل، فهي لا تجد وقتاً لإعداد الطعام، ولذلك نجد عدداً من الزوجات يقمن بإعداد الخضار في مكاتبهن !! مشغولات وهن في العمل بما يتطلبه البيت، من طعام ورعاية وغير ذلك.

الواحدة منهن تعود من عملها متعبة لتجد أنها لا بد أن تعد الطعام، وترعى شؤون بيتها وأولادها، فإذا انتهت من هذا كله، وعاد الزوج إلى البيت، وجد زوجته في غاية الارهاق، والزوج له مطالب، وأهم هذه المطالب أن يجد سكناً في بيته، وامرأة تستقبله لتمحو من نفسه تعب النهار وشقاءه، ولكنه بدلاً من ذلك يجد

زوجة مرهقة، لا هي سكن ولا هي مستريحة الأعصاب، ولا هي قادرة على أن تستقبل زوجها بابتسامة، مهمتها قد فسدت، كل هذا لأننا خرجنا عن المفهوم الحقيقي لمهمة المرأة في الحياة.

ولو نظرنا إلى عمل المرأة لأشفقنا عليها، لأنه في هذه الحالة ستكون مهمتها أصعب وأشق من مهمة الرجل، لأن عمل الرجل هو السعي في سبيل الرزق، ثم الراحة بعد ذلك، أما عمل المرأة فهو سعي في سبيل الرزق، ثم الحمل، وأثناء الحمل المرأة تعاني..

والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

وهكذا نرى أن الحمل للأم، يجعلها تعاني، ويجعلها محتاجة إلى رعاية خاصة وقت الحمل، ولذلك فهو شيء ليس محبباً لأن فيه مكاره، فالأم الحامل ليست كالزوجة غير الحامل في نشاطها وحركتها وتمتعها بالحياة، بل تحس أنها ثقيلة في حركاتها، وكلما تقدم الحمل أحست بالثقل، لأن هناك إنساناً آخر يتكون في داخلها.

ويلفتنا الحق جل جلاله إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى:

﴿۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وهكذا نرى أن حمل المرأة يبدأ خفيفاً، ثم بعد ذلك يثقل عليها، وبهذا تصبح حركتها صعبة، ويكون العمل عليها ثقيلاً، وكلما زادت شهور الحمل، كان العمل على المرأة أكثر مشقة، والمرأة بطبيعتها مخلوق ضعيف، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤].

في هذه الآية يلفتنا الله تبارك وتعالى، إلى أن المرأة بحكم خلقها ضعيفة، وأن الحمل يزيدها ضعفاً على ضعف، إذن فهذه مشقة تتحملها المرأة بالإضافة إلى مشقة العمل في البيت وفي الوظيفة، فتزيدها إرهاقاً، حتى إذا وضعت، فهي محتاجة إلى فترة طويلة لتستعيد قواها، ولذلك فهي تلازم الفراش عدة أسابيع بعد الولادة.

ثم يأتي الطفل وهو محتاج أيضاً إلى رعاية وعناية، من رضاعة وتغيير مستمر

لملابسه الداخلية والخارجية، وإعداد الطعام له على فترات قصيرة، وتذهب الأم إلى عملها، وقلبها مشغول بطفلها، لا تستطيع أن تعمل، ولا أن تفكر تفكيراً سليماً، ولا أن تعطي انتباهها للعمل، لأنها مشغولة بشيئين، والله سبحانه لم يجعل لأحد منا قلبين في جوفه، وتعود إلى بيتها لتجد طفلها محتاجاً إلى أن تعد له أشياء، وتجد زوجها محتاجاً إلى أن تعد له أشياء، وإذا كان لها أولاد آخرون، فهم محتاجون أيضاً منها إلى أشياء تعدها لهم.

وهكذا نرى أن الحمل عليها يكون ثقيلاً جداً أكثر من حمل الرجل، وهذا يجعلها مرهقة ويخرجها عن مهمتها في الحياة، وهي أن تكون سكناً لزوجها، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

إذن السكن هنا، وهو المهمة الأساسية، للمرأة في الحياة قد ضاع، وضاع معه السلام والاستقرار في البيت والأسرة، وحملنا المرأة فوق طاقتها.

إن الإسلام، قد وضع شروطاً لعمل المرأة، ووضع مهام لا بد أن يقوم بها المجتمع ليعاونها في عملها، وهذا ما سنتعرض له إن شاء الله في درس قادم من هذا القسم، عن قصة موسى وابنتي شعيب، وكيف حددت لنا هذه القصة ظروف عمل المرأة، وواجب المجتمع نحوها.

وبإجمال نقول: إن الإسلام حين جاء رفع من مكانة المرأة، بالنسبة للأحوال التي كانت سائدة في العالم حينذاك، وإنه أعطاها حريتها وكفل لها شخصيتها المستقلة، وكفل لها كرامتها، وأن الرجل والمرأة في الحياة، يكمل كل منهما الآخر، وإنهما ليسا متعاندين، بل متساندان، وأن اختلال هذا التساند، هو الذي يوجد الشقاء في المجتمع، ويحمل المرأة فوق ما تطيق.

وسنناقش إن شاء الله بالتفصيل، الأشياء التي يكثر عنها الكلام، على أساس أنها انتقاص لحقوق المرأة في الإسلام، لنبين أنها اكتمال لهذه الحقوق.

* * *

الدرس الثاني

الحكمة من تعدد الزوجات

حكمة التعدد

إذا كنا سنناقش، بعض أحكام القرآن الكريم بالنسبة للمرأة، فإننا لا نناقشها إلا لتوضيح مفاهيمها، ولكننا لا نناقش الحكم، لأن الحكم صادر من الله سبحانه، وما دام صادراً من الله جل جلاله، فإن غاية مهمة العقل في هذه الحالة، هو التأكد أن الحكم من الله سبحانه.

إذا وصلنا إلى هذه النقطة، نكون قد وصلنا إلى نهاية مهمة العقل، فيصبح بعد ذلك التسليم والطاعة، والعيب فيمن يريد مناقشة الأديان أن يأتي بجزئيات الأوامر الدينية ويناقشها، وأحكام الله لا تناقش كجزئية، ولكنها تناقش من القمة أولاً، أهي من الله أم لا؟ أبلغها رسول الله ﷺ لنا، أم لم يبلغها؟ فإذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام قد أبلغها لنا، وهو ﷺ صادق البلاغ، تكون المناقشة قد انتهت، أما بحث جزئيات الدين لنقبل بعضه ونرفض بعضه، فهذا مرفوض تماماً، والله تبارك وتعالى يقول:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

ولهذا لا بد أن نتنبه إلى أن قضايا الدين لا تناقش كجزئيات، ليؤخذ بعضها ويترك البعض الآخر، ولكنها تناقش ككل، والعجيب أنك تجد من يكفر بالله ـ والعياذ بالله ـ يأتي ليناقشك في قضايا الدين، وهذا منطق مرفوض، لأنك ما دمت لا تؤمن، فماذا تناقش؟ إذا كنت لا تؤمن بالقمة التي شرَّعَتْ وقالت، يكون نقاشك نوعاً من العبث المرفوض، لأنك ما دمت لا تؤمن فاصنع ما شئت، فليس بعد الكفر ذنب. .

إن الناس في حياتهم الدنيوية يطبقون منطقاً، فإذا جئت إلى قضايا الدين، فإنهم يرفضون تطبيق نفس المنطق!

إذا مرض الإنسان مثلاً، غاية مهمة عقله أن يسأل ويبحث عن الطبيب الذي يثق فيه، فإذا توصل بعقله إلى هذا واختار طبيباً يمتاز بالعلم والخبرة يذهب إليه، حينئذ تتوقف مهمة العقل. .

يأتي الطبيب فيكشف عليه ثم يحدد له نظام العلاج، فيأخذه وينفذه دون مناقشة، وإذا كان جالساً مع أصدقائه، وسأله أحدهم لماذا لا تأكل كذا؟ أو لماذا لا تدخن مثلاً؟ يقول هذه أوامر الطبيب، فيسكت الجميع، لماذا؟ لأن الطبيب في مجاله، أكثر علماً منه وخبرة، وما داموا قد وثقوا فيه، وفي علمه وخبرته، ينفذون ما يقوله دون مناقشة.

والإنسان يسلم قيادته إلى من هو أكثر منه علماً في أي مجال من المجالات، ما دام قد وثق من ذلك، وأدرى الناس بالصنعة هو صانعها، وهو يعرف ما يصلحها وما يفسدها..

إنني مثلاً عندما يفسد عندي جهاز تليفزيون، لا ألجأ إلى نجار ليصلحه لي، ولكن إلى صانع الشيء، أو من تدرب على إصلاحه ليقوم بالإصلاح.

إن منطقنا في أمورنا الدنيوية هو أن نبحث في أي مجال عمن نثق في علمه ليقول لنا ما نفعل من أمور، نحن لا نعلم عنها شيئاً، أو علمنا قليل لا يمكننا من علاج المشكلة، ولكن في أمور الدين نجد بعض الناس يرفض هذا المنطق، فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلقنا، وعلمه يفوق علمنا، لأنه علم بلا نهاية، صادر من عليم حكيم، والله يقول في كتابه العزيز:

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩].

فإذا كنا نسلم زماننا، لمن هو أعلم منا من البشر، فكيف لا سلم هذا الزمام لمن هو بكل شيء عليم سبحانه وتعالى؟

ولكن بعض الناس يحاول أن يناقش الدين كجزئيات، بدلاً من أن يتقبله عن الله تبارك وتعالى، ويرد الله جل جلاله في كتابه العزيز:

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦].

والعجيب أنك تجد هذا الكلام، يأتي من الذين يكفرون بالإسلام ولا يؤمنون به، نقول لهم أنتم لستم مكلفين بهذه الأحكام حتى تناقشوها، والله سبحانه وتعالى لم يكلف إلا من آمن به، ولذلك نجد آيات التكليف في القرآن الكريم، مسبوقة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ولنقرأ قول الله تبارك وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقوله سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

إن الذين لا يؤمنون بالله غير مُكَلَّفينَ بشيء، وهم أكثر الناس جدلاً، فيما يتعلق بأحكام الله وتكاليفه..

وإذا كان لا بد أن نبدأ الحديث بهذه المقدمة، فإننا نأتي الآن إلى تعدد الزوجات في الإسلام، ذلك التعدد الذي يثير جدلاً كثير عند الناس، وخصوصاً عند غير المسلمين..

لقد فوجئت مرة وأنا أتحدث في سان فرانسسكو، أن إحدى الحاضرات وقفت وقالت لي: الإسلام يبيح تعدد الزوجات؟! قلت: نعم، يبيح للرجل أكثر من زوجة، قالت: لماذا لا يبيح تعدد الأزواج للمرأة؟ أليس عدلاً كما أباح للرجل أن تتعدد زوجاته، أن يبيح للمرأة أن يتعدد أزواجها؟

قلت: أنتم ـ وفي دول عديدة ـ هناك أماكن تعدونها لمن أراد من الشباب غير المتزوج أن يستريح جنسياً، فيها نساء يتقاضين أجراً من أجل هذه العملية، لماذا لا تعدون أماكن فيها شباب، وتذهب إليها النساء إذا أردن الراحة الجنسية؟! فسكتت المرأة ولم ترد..

قلت: لأن المرأة بطبيعتها تكره تعدد الرجال، وهي ترى أن كرامتها وعزتها أن تكون زوجة لرجل واحد، وأحياناً يموت زوجها، فترفض أن تتزوج مرة أخرى، لأنها ترفض أن تعاشر رجلاً آخر، ولذلك محافظة على كرامة المرأة لا تتزوج المرأة أكثر من رجل، ومحافظة أيضاً على الأنساب، التي تعلب دوراً هاماً في حياة الناس.

والرجل هو الذي يعول ابنه حتى يصل إلى سن الرجولة، ويصبح قادراً على أن يعول نفسه، يحرم نفسه من القرش ليعطيه لهذا الابن، ويحرم نفسه من اللقمة ليضعها في فم ابنه، ويحرم نفسه من ثوب جديد يحتاجه ليشتري لأبنه ثوباً جديداً.

هذا الرجل لو شك لحظة أن هذا الطفل ليس ابنه، انقلب عليه وربما طرده من بيته.

ونحن نرى في أحداث تقع كيف تختلف معاملة الأب لابنه أو ابنته إذا شك في أنهما ليسا من صلبه، ينقلب حبه إلى كراهية عميقة، وربما ألقى بابنه أو ابنته إلى الشارع.

ومن هنا ـ لكي يقوم المجتمع ويستمر ـ يجب أن تكون لدى الرجل كل الضمانات لصحة نسب ابنه، وهكذا أنت تطالبين بحق ترفضه المرأة الحرة، وتطالبين بحق يفسد المجتمع من أساسه.

الأساس الإباحة

والآن ماذا تقول الآية الكريمة، التي تبيح للرجل أن يتزوج بأكثر من امرأة؟ الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

وهنا نجد سؤالاً يقفز إلى الذهن، هل الأصل في التعدد الوجوب أم الإباحة؟

بمعنى، هل الإسلام يوجب أن يتزوج الرجل بأكثر من زوجة؟، أم إنه يبيح له ذلك فقط؟

طبعاً الأصل في التشريع، هو الإباحة وليس الوجوب، أي أن الإسلام لا يوجب على الرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة، ولكنه يبيح له ذلك، إذا رأى أن حياته محتاجة إلى ذلك. وفرق كبير بين الوجوب والإباحة.

إن الإسلام لا يفرض تعدد الزوجات، أي لا يفرض على الرجل أن يتزوج أكثر من امرأة، ولكنه يسمح له بذلك.

وإذا رجعنا إلى المنطق، نجده يقول لا تعدد لشيء على شيء إلا بفائض، فإذا دخلنا حجرة مثلاً، ونحن خمسة أشخاص ووجدنا فيها خمسة مقاعد، كل منا سيجلس على مقعد، فإذا وجدنا فيها عشرة مقاعد، جلس كل منا على مقعد، وأخذ مقعداً يستند عليه أو يريح قدميه فوقه، أو يضع يديه عليه.

إذن لا تعدد إلا إذا كان هناك زيادة في العدد، والمقصود بتعدد الزوجات ألا تبقى امرأة في المجتمع بلا زوج، حتى لا تحدث إنحرافات وينتشر الحرام.

هذه الزوجة ـ أي الزوجة الثانية ـ لا يمكن أن تقبل مثل هذا الزوج إلا لأنها لم تجد فرصة إلا أن تكون زوجة ثانية، فإذا كان هناك من في المجتمع لها لا تقبلي هذا الزواج، نقول له يسر لها أن تكون زوجة أولى، ولكنها اختارت أحسن الفرص بالنسبة لها، وقبلت أن تكون زوجة ثانية، إنها امرأة رأت من الخير أن تكون زوجة ثانية، أفضل من أن تبقى بلا زواج، فما تدخل المجتمع في هذا؟!

نقطة ثانية بالنسبة للزوجة الأولى، لقد رأت أنه من الأفضل لها، أن تبقى مع زوجها عن أن يطلقها، فهل من الخير أن تبقى في بيتها مصونة مكرمة؟ أو أن تفقد زوجها وتعيش بلا زوج.

إن التعدد في كثير من الأحيان، يكون حافظاً للزوجة الأولى وحافظاً للزوجة الثانية، فلماذا لم تشترط ساعة زواجها ألا يتزوج زوجها بامرأة أخرى، إن من حقها

أن تشترط في عقد الزواج ما تشاء، ومع ذلك لم نسمع عن امرأة واحدة اشترطت ذلك.

إننا إذا أخذنا احصائيات الحياة، ثم فرضنا أن عدد الإناث وعدد الذكور متساويان، فإن أحداث الحياة تأخذ من الرجال أكثر مما تأخذ من النساء، فالمعارك والحروب يتحملها الرجال، وحياة الرجل وسعيه للرزق يجعله يتعرض لمخاطر أكثر من المرأة.

ولو تساوى عدد الرجال والنساء، ثم تعرض الرجال لمخاطر الحروب للعجز أو للموت، فأين تذهب الباقيات؟ ماذا يفعلن؟ إلا إذا أردنا أن يكون المجتمع مجتمع انحلال.

وإذا أخذنا كل الأجناس التي فيها تكاثر، نجد عادة أن الذكور أقل من الإناث، إذا قمنا بتفريخ مائة بيضة، نجد أن عدد الديوك أقل بكثير من عدد الفراخ، لماذا؟ لأن الفراخ هي التي تعطينا البيض الذي نحتاجه للانتاج الجديد وللطعام.

وإذا غرسنا مائة نخلة، كم نخلة ذكر؟ وكم نخلة أنثى؟ طبعاً عدد النخل الأنثى أكثر، لماذا؟ لأنه هو الذي يعطينا الثمر، يعطينا البلح، ويعطينا البذور لانتاج نخل جديد.

وهكذا الأنثى في كل الأنواع، هي التي تعطي، والذكر مهمته التخصيب، وذكر واحد في أي نوع يمكن أن يقوم بعملية التخصيب هذه بالنسبة لعدد من الإناث.

ثم يأتي سؤال هام، للذين يشكون من تعدد الزوجات في الإسلام، هل ألزمنا الله سبحانه وتعالى أن نعدد زوجاتنا، وأن نتزوج أكثر من امرأة؟..

الله سبحانه لم يلزمنا بذلك، لقد أباح سبحانه وتعالى لنا التعدد فقط، ولنا أن نأخذ بالمباح أو لا نأخذ، فلا إثم علينا إذا لم نأخذ..

والخطأ في الضجة الحادثة حول إباحة التعدد ليس على النساء، ولكن على الرجال، إنهم هم الذين قاموا بهذه الضجة، ولم يأخذوا مع إباحة الله للتعدد حتميته في العدالة، ولو أخذوا حتمية العدالة، ولم تتأثر الزوجة الأولى في معيشتها وحياتها وأولادها، ما كانت هناك مشكلة.

إن الذي يسمع هذه الضجة، يعتقد أن مسألة تعدد الزوجات في المجتمع الإسلامي مسألة وبائية، وإن ٨٠٪ أو ٩٠٪ من الرجال المسلمين، متزوجون بأكثر من زوجة.

ولكن الاحصائيات تقول أن المتزوجين من اثنين، لا تزيد نسبتهم على ٣٪
أتعتبر هذه مشكلة أن يكون بين كل مائة رجل ثلاثة فقط متزوجون بزوجة ثانية.

هؤلاء الثلاثة ـ من كل مائة ـ ألا يمكن أن تكون عندهم مشاكل أدت إلى الزوجة الثانية، مثلاً، رجل زوجته مريضة، هل من الأفضل له أن يتزوج امرأة ثانية، أو أن يزني مع أي امرأة.

والزوجة المريضة، هل من الأفضل لها أن يتركها زوجها تماماً وقد لا يكون لها أحد يرعاها، أم يبقى ليرعاها ويقوم على شؤونها؟!

الاحصاءات تقول أن الذين يتزوجون ثلاث زوجات، هم رجل واحد بين كل ألف رجل، وأن الذي يتزوج أربع زوجات، هو رجل واحد بين كل خمسة آلاف رجل، فهل تعتبر هذه مشكلة ـ مع هذا العدد بالغ القلة ـ مشكلة تواجهها المجتمعات الإسلامية؟!

وهل تستحق هذه الضجة بما يصاحبها من تهويل، وتصوير أن كل رجل مسلم متزوج من أربع زوجات، وهو تصوير خاطئ وكاذب عن عمد وافتراء، هدفه تصوير المجتمع الإسلامي على غير حقيقته.

لقد دخلت البشرية، تجربتها مع الزواج الأبدي، أو الكاثوليكي الذي لا طلاق فيه، تجربة خاضها البشر، ووضعوا فيها مقاييسهم وأحكامهم، فهل نجحت؟ أم أن الكنيسة الكاثوليكية، التي كان يملؤها التعصب لمبدئها، وتفاخر به بين الناس هي التي اضطرت لا عن إيمان ولا عن دين، ولكن عن واقع دنيوي، ومشاكل ملأت المجتمع بلا حلول..

لقد اضطرت أن تبيح الطلاق، لأنها وجدت بواقع تجربة الحياة المريرة، التي نشأت في ظل هذا النظام، أن المجتمع لا يمكن أن يستقيم، وأن المشاكل قد ملأته وفاض بها، وأنه لا يوجد طريق أمامها باستمرار هذه الأبدية، وهي وإن أباحت الطلاق، فإنها لم تبحه اعترافاً بالإسلام، ولا أخذاً بتعاليمه وأحكامه ومبادئه، ولكن من واقع قانون التجربة والخطأ.

وهكذا أباحت الكنيسة الكاثوليكية، للرجل أن يطلق زوجته وأن يتزوج بأخرى، ولو كانت الكنيسة أخذت رأى المرأة لفضلت الكثيرات أن يبقين مع أزواجهن، مع السماح للزوج بأن يتزوج بأخرى.

ولكن التعصب هنا لمبدأ باطل، هو الذي جعل الكنيسة لا تجري مثل هذا الاستفتاء بين النساء.

إن المسألة ليست مظهرية، ولكنها قوانين لصيانة المجتمع، قوانين وضعها الله سبحانه وتعالى، وهو الخالق العليم بخلقه، لتستقيم الأمور بلا مجاملة، وبلا مباهاة، ولكن بالحق والعدل، وليصون كرامة المرأة ويكفل لها كرامتها، ولتصبح كل امرأة لها رجل يرعاها. .

إنها حل لكل مشكلة وهو كما نرى لم يُقْدِمْ عليه إلا أقل القليل، رجل أو رجلان هم الذين اتخذوا زوجة ثانية، والله أعلم بالظروف التي دفعتهم إلى ذلك، وماذا كان يمكن أن يحدث لو لم يتخذوا هذا الطريق.

بقيت بعد ذلك مشكلة أولئك الذين قالوا إن الله جل جلاله لم يبح التعدد في الزوجات، مستندين إلى الآيات الكريمة في كتاب الله العزيز:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣].

وقوله جل جلاله:

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩].

بعض المفسرين قالوا إن معنى هاتين الآيتين، أن الإسلام لا يقر التعدد، لماذا؟ لأنه اشترط في التعدد العدل بين الزوجتين، ثم قال الله جل جلاله: ﴿وَلَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ. .﴾ فهذا نفي أن الزوج يستطيع العدل وبذلك امتنع التعدد، نقول لهؤلاء إنكم لم تفهموا النص، لأن الآية الكريمة تقول: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ. .﴾ الحكم هنا بالتعدد باق ولم يبطل، ولكن هناك عدم فهم ممن فسروه.

معنى «ولن تعدلوا»

لو أن المقصود كان إبطال الحكم، لكانت الآية الكريمة قد وقفت عند قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا. .﴾ وتكون المسألة حكماً مطلقاً من الله جل جلاله، ولكن قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ. .﴾ يلفتنا إلى أن حكم التعدد ما زال باقياً، ولو كان حكم التعدد قد أبطل لما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ. .﴾ لأنه على ماذا سنحرص والعدل مستحيل، وكيف نحرص على تنفيذ حكم، أبطله الله سبحانه وتعالى؟!

إذن فمسألة الحرص في العدل، دلت على أن الحكم باق، وأن الله جل جلاله يوصينا بالحرص في التنفيذ، وبمراعاة العدل بقدر إمكان البشر، وقول الحق

تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ..﴾ يلفتنا إلى أن الله يوصينا ألا نميل نحن نحو واحدة ونترك الأخرى كالمعلقة، التي ليس لها زوج، وكيف نميل نحو واحدة، ونترك الأخرى كالمعلقة، إلا إذا كان مباحاً لنا أن نتزوج أكثر من امرأة..

إن كل من أفتى بأن معنى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ هو منع التعدد في الإسلام، أو منع الزواج بأكثر من واحدة، نقول له إن هذا الفهم خاطئ.

ويجب علينا أن نعيش في ظلال القرآن الكريم، تحت راية من نزل عليه القرآن، وعمل به وأبلغه وبيّنه، وهو رسول الله ﷺ، فلا يوجد بيننا إنسان ـ مهما علا قدره ـ يستطيع أن يدعي أنه يفهم القرآن أكثر ولا أعمق من رسول الله ﷺ؛ لأنه عليه نزل، وهو أكثرنا فهماً للقرآن، وكان منهجه محروساً برعاية السماء، والله جلا جلاله يقول في رسوله الكريم:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم: ١ ـ ٥].

إن رسول الله ﷺ، لا ينطق عن هوى في نفسه، إذا جاءه الحق من الله سبحانه وتعالى، بل له ﷺ أمانة البلاغ وأمانة التنفيذ، مصداقاً لقوله تبارك وتعالى:

﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

ولو أنه كان معنى: ﴿وَلَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ..﴾ هو تحريم الزواج بأكثر من واحدة، لكان رسول الله ﷺ، هو أول من طلق زوجاته وأبقى واحدة، ولكن لأن معنى الآية الكريمة ليس تحريم الزواج بأكثر من واحدة، بل الحرص على العدل، فقد أبقى رسول الله ﷺ زوجاته.

ولا يوجد من يستطيع أن يدعي ـ كما أسلفت ـ أنه أفهم بنصوص القرآن الكريم ومعانيه من رسول الله ﷺ، ولا نقبل مثل هذا الادعاء.

والله سبحانه وتعالى حين لفتنا إلى مسألة العدل بين النساء، يجب ألا نفهم أنه جل جلاله يريد العدالة المطلقة، فإن العدل المطلق هو لله سبحانه وحده ولكن الله يريد العدالة الإمكانية.

ما هي العدالة الإمكانية؟ عدالة في الزمن الذي يقضيه الزوج عند كل واحدة عدالة في المعيشة، فلا يسرف هنا ويقتر هناك، لا، ولكن العدالة في الحب لا يكلف بها الإنسان لماذا؟ لأنها فوق طاقته، ولكن كل امرأة وما تستطيع أن ترغب

فيها زوجها، المهم أنه يعطيها ليلتها، ويعطيها العدل في الوقت والإنفاق.

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها، كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» «يعني القلب».

إن تعدد الزوجات، أمر لم يلزمنا الله سبحانه وتعالى به، ولكنه أباحه لنا، وفرق كبير بين الإباحة والإلزام، وأنه ضرورة إجتماعية حتى لا ينتشر الانحلال، وأنه إن تم يشترط فيه العدل في النفقة والمعيشة والوقت، وأن كل النظم التي قاومت حرية الرجل في أن يتزوج امرأة أخرى، سواء طلق زوجته أو أبقاها، قد فشلت، وأن الله سبحانه وتعالى حينما أباح التعدد، إنما أعطانا النظام الذي لا ضرر منه، وأنه رغم هذه الإباحة فإن عدد الذين يتزوجون بزوجة ثانية لا يزيد على ثلاثة رجال في كل مائة رجل، وأن المتزوجين من أربع نساء، لا يزيدون على رجل واحد في كل خمسة آلاف رجل.

إن هذه المشكلة ـ من حيث الواقع ـ تكاد تكون معدومة، ولكن الذين في قلوبهم مرض يضخمونها للنيل من الإسلام، وإظهاره على غير حقيقته.

* * *

الدرس الثالث

معنى ناقصات عقل ودين

ما ملكت أيمانكم

قبل أن نبدأ الحديث عن مسألة العقل والدين في المرأة، وما هو المقصود بها؟، ومعنى ما جاء في حديث شريف: (النساء ناقصات عقل ودين) لا بد أن نتناول نقطة هامة في معنى ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ..﴾ التي جاءت في الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣].

ولقد حاول الكثيرون أن يقولوا: ما معنى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦] الآن، وهل يوجد من تنطبق عليه هذه الآية؟

نقول: إن هذه الآية تنطبق الآن على أسيرات الحرب من النساء، لكن هذه الحرب لا بد أن تكون حرباً شرعية، أي أعلنها الوالي أو الحاكم، ولا تكون مجرد غزوات أو مناوشات بين طوائف من الناس.

لقد رأينا أفلاماً تصور ماذا يحدث للأسيرات إذا وقعن في أيدي القوات الغازية، مثلما حدث في معارك الحرب العالمية الثانية وفي فيتنام، وماذا كان يحدث من اغتصاب النساء في دور العبادة، والوحشية التي كانت تتم بها هذه العملية، وإن كانت هذه الأفلام، قد استندت إلى الواقع والحقيقة، فإنها خففت منه كثيراً، لأنها لا تستطيع أن تعرضه ببشاعته، ولأن حقيقة ما يقع تفوقه أكثر الخيالات الشريرة، بشاعة وجرماً.

أراد الله سبحانه وتعالى، أن يقي المرأة من هذا كله وهو يقع، وما زال يقع، وسيظل يقع في الحروب القادمة، إن كانت مشيئة الله تقضي بأن حروباً ستتم، أراد الله برحمته أن يقي المرأة هذه الوحشية الرهيبة، فأباح لأي رجل أن يتزوجها، دون التقيد بشيء في العدد أو غير ذلك، أي أن تكون زوجة زائدة، ومتى تزوجها أصبحت لها حرمة، وأصبح لها من يحميها ويدافع عنها، واحترم الجميع هذا الزوج، فهل في هذا إهانة للمرأة، أم تكريم لها؟

وهل إذا وقعت امرأة أسيرة بين مجموعة من الجنود، وخيرت بين أن يفتكوا بها أو تتزوج أحدهم؟، فأي العرضين تختار؟ بلا تردد طبعاً تختار العرض الثاني، أي أن تكون زوجة ولها كيان، وليست فريسة يفتك بها ثم تلقى في الطريق.

إذا كانت لا توجد الآن من تنطبق عليها معنى الآية الكريمة: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ فليس معنى هذا إضعاف للنص، فالنص الشرعي موجود، إن وجدت حالة طُبِّقَ عليها، وإن لم توجد فهو موجود للتطبيق متى وجدت الحالة.

فلنفرض أن مدينة ليس بها لص واحد، هل يتساءل أهلها لماذا تم تشريع قطع يد السارق مع أنه لا يوجد من يسرق في هذه البلدة، حتى إذا سرق أحد طبق عليه، وإن لم يسرق أحد الآن، فالتشريع موجود ليطبق إذا حدثت جريمة السرقة في المستقبل..

وليس القصد من التشريع هو وقوع الجريمة، ولكن القصد منه هو منع وقوعها، فإذا قلنا إن الله سبحانه وتعالى قد قضى بقطع يد السارق أو السارقة، كما جاء في كتابه العزيز:

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

فليس، معنى هذا تحريض على السرقة، ولا تنكيل بالناس، ولكن هدفه هو منع جريمة السرقة من الوقوع، لأن السارق إذا ما استحضر العقاب، وعرف أن يده سَتُقْطَعُ، سيمتنع عن ارتكاب هذه الجريمة، كذلك القاتل إذا عرف أنه سَيُقْتَلُ، فإنه سيمتنع عن القتل، لأنه يعلم أنه سيدفع حياته ثمناً لذلك.

إن الدول التي أوقفت جريمة الإعدام بالنسبة للقاتل واستبدلتها بالسجن مدى الحياة، انتشرت فيها جرائم القتل وتعالت فيها الأصوات مطالبة بالعودة إلى عقوبة الإعدام، كردع لجرائم القتل.

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ هو تكريم للمرأة، سواء وقعت أسيرة في الحرب، أو كانت جارية كما كان يحدث في الماضي عندما كان الرق موجوداً، لتحرر ويصبح ابنها حراً وتصبح زوجة لسيدها.

وهكذا عالج الإسلام أمراض المجتمع التي كانت موجودة حين نزل القرآن، والتي قد تحدث بعد ذلك، علاجاً يحفظ للمرأة كرامتها وحريتها وعزتها وسيادتها.

العقل والدين

إننا عندما نتدبر ما جاء في حديث شريف لرسول الله ﷺ: «النساء ناقصات عقل ودين»، نجد أن البعض أخذ هذا الحديث على أنه إهانة للمرأة وَحَطٌّ من كرامتها، ومنزلتها في المجتمع، وإنه اتهام لها بنقص العقل والدين.

لكن الحقيقة غير ذلك تماماً، لأن هذا الحديث يشرح لنا طبيعة المرأة من ناحية التكوين، فالمرأة بطبيعة تكوينها تغلب عليها العاطفة، وهذا ليس عيباً، ولكنه ميزة تناسب مهمتها في الحياة، لأنه مفروض بطبيعتها أن تعطي من الحنان أكثر، ومن التفكير العقلي أقل.

إنها هي التي تحنو، وهي التي تمسح الدموع، وتضع مكانها الابتسامة، وهي التي تمسح تعب اليوم وشقاءه عن زوجها وأولادها، ولا يتم هذا بالعقل، ولكنه يتم بالعاطفة..

إن هذا لا يعني طعنا في فكر المرأة وذكائها، وإن كان يعني كشفاً عن طبيعتها، ويهمني أن ألقى ضوءاً على حدث هام كان للمرأة دور كبير في حسمه، مما يدل على رجاحة العقل وحسن التصرف، ذلك الحدث هو صلح الحديبية، ذلك الصلح الذي كان انتصاراً للدعوة الإسلامية، وبداية لنشرها في كل أنحاء الجزيرة العربية..

فما هي هذه الأحداث التي سبقت هذا الصلح؟

كان المسلمون قد أحرموا واتجهوا إلى بيت الله الحرام لأداء العمرة، ومعهم الهدْي الذي سيذبحونه عند الانتهاء من العمرة والطواف ببيت الله الحرام، وتصدى لهم الكفار، ومنعوهم من دخول مكة ومن الطواف بالبيت الحرام.

وانتهى هذا التصدي بتوقيع صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وكفار مكة، وفيه تعهد الكفار، ألا يتعرضوا للمسلمين ولا لحلفائهم، ولا لنشر الدعوة الإسلامية، ولا يتعرض المسلمون لحلفاء قريش ومن كان في حمايتها، وكان هذا أول تعهد من كفار مكة، ألا يتعرضوا للمسلمين..

إن الدعوة الإسلامية، كانت محتاجة إلى حرية الرأي، وحرية الكلمة، وعدم

التعرض لدعاة المسلمين بالقتل والتعذيب، أما نشر الدين واعتناق الإسلام، فإن الإسلام يملك من الأدلة ومن الهدى، ومن المنطق والحجة، ما يجعل كل من استمع إلى تعاليمه يعتنقه.

حينما تم توقيع صلح الحديبية، أمر رسول الله ﷺ المسلمين أن يذبحوا الهدي، ويحلوا إحرامهم، ولكن الحمية الدينية في داخلهم، والصلح الذي منعهم من الطواف ببيت الله الحرام، أشعلت ثورة في صدورهم، منعتهم أن يروا الحكمة في توقيع هذا الصلح، وكيف أن الله سبحانه وتعالى جعل في هذا الصلح إشارة لانتصار الإسلام وفتح مكة..

لقد غابت عنهم الحكمة في أن الله سبحانه وتعالى منعهم من القتال، لأن في مكة مسلمين يكتمون إسلامهم، ويبقون إيمانهم في صدورهم، وأنه لو حدث قتال في هذا الوقت، لقتل المسلمون بعضهم بعضاً وهم لا يعلمون، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

وهكذا بين الله سبحانه وتعالى للمسلمين، الحكمة في أنه منعهم من القتال يوم صلح الحديبية لأن هناك رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات في مكة يكتمون إيمانهم..

وقوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ..﴾ أي لو كانوا معروفين ويجمعهم مكان واحد بحيث يكونون مميزين عن الكفار..

وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ..﴾ أي تقتلونهم وأنتم لا تعلمون أنهم مؤمنون، وقوله سبحانه: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ..﴾ أي تشعرون بالعار والخزي، لأنكم قتلتم مؤمنين، ولذلك كانت الحكمة من عدم الإذن بالقتال يوم صلح الحديبية.

ثم يبين لنا القرآن الكريم كيف أن الله جلا جلاله، هو الذي أنزل السكينة على رسوله، وعلى المؤمنين حتى لا يقاتلوا، فيقول سبحانه:

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦].

نقول إن رسول الله ﷺ أمر المؤمنين بأن يذبحوا الهدى، ويحلوا إحرامهم، ولكن أحداً منهم لم يفعل ذلك، فدخل الرسول عليه الصلاة والسلام على زوجته أم سلمة بنت أبي أمية، وهو شديد الغضب، فقالت: مالك يا رسول الله؟ فلم يرد، فكررتها عدة مرات، حتى قال ﷺ: هلك المسلمون، أمرتهم بأن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا!! فقالت أم سلمة: يا رسول الله لا تلمهم فإن داخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح، يا نبي الله أخرج ولا تكلم أحداً منهم، وانحر هديك واحلق رأسك، ففعل رسول الله ﷺ ذلك، وقام المسلمون فنحروا وحلقوا..

وهكذا نرى أن رسول الله ﷺ أخذ برأي زوجته أم سلمة في أمر من أشق الأمور وأشدها، ولو كان عقلها ناقصاً، نقص ذكاء أو نقص استيعاب، ما نزل رسول الله ﷺ على رأيها، ولكن نقص العقل في الحديث الشريف معناه أنها تفعل أشياء يقف العقل عندها، وإنما تفعلها بالعاطفة.

ولكي نفهم معنى الحديث الشريف، لا بد أن نعرف ما هو العقل، ليفهم الناس من التسمية مهمة العقل، إن العقل مأخوذ من العقال، وهو مقود الجمل الذي لا يجعله يسير على غير هدى، إنما يخضعه لمشيئة راكبه،

الجمل لو ترك على هواه بغير عقال، لجرى هنا وهناك، وكلما رأى عشباً مثلاً انطلق إليه، يسير يميناً ويساراً، ولا يصل أبداً إلى المكان الذي يريد صاحبه أن يصل إليه، ولكن مهمة العقال أن يحكم حركة الجمل، بحيث يسير في الطريق المرسوم، الذي يوصله إلى الغاية المطلوبة، فإذا انحرف يميناً أو يساراً، استخدم راكبه العقال، ليجعله يسير في الطريق السليم، وهذه مهمة العقل، مهمته أن يكبح شهوات النفس، ويجعلها تسير في الطريق المرسوم.

أما الرجل فحياته عقلانية أكثر من المرأة، لأن مهمته هي السعي على الرزق، فلا بد أن يرتب الأشياء ترتيباً عقلياً لا مكان فيه للعاطفة، فإذا لم يكن معه إلا بضعة جنيهات حتى آخر الشهر، وجاء ابنه أو ابنته، وطلبا منه شيئاً فإنه لا يعطيهما، فإذا ألحا في الطلب انفعل عليهما، وقد يضربهما، لماذا؟ لأنه حكم عقله بما هو مطلوب منه، وأخذ الطريق الذي لا عاطفة فيه.

لنفرض أن الابن أو الابنة ذهب إلى الأم، وطلب نفس المطالب، ونزلت دموعه، ماذا يحدث؟ إذا لم يكن معها مال تقترض تذهب إلى الجارات لتشترك في جمعية، تتحايل بشكل أو بآخر، حتى تأتي لابنها أو لابنتها بما طلبوا..

المهم إنها لا تفكر بعقلها تفكيراً كاملاً، بل تندفع بعاطفتها لإرضاء أولاده حتى إنها قد تقترض، وهي لا تعرف من أين سترد القرض، أو من أين تدفع أقسا الجمعية، والمهم في هذا كله أن تفكيرها، يكون خاضعاً دائماً للعاطفة وليـ للعقل، بحيث لا ترتب الأحداث ترتيباً عقلياً. .

إننا نرى الأولاد إذا احتاجوا شيئاً، وعلموا أن أباهم لن يوافق لأي سبب م الأسباب، أسرعوا إلى الأم، هي التي تأتي لهم بالموافقة، وهي بعاطفتها تؤثر عل الأب.

وإذا أردنا أن نأخذ مثلاً آخر، لنفرض أن الأب عاد إلى بيته متعباً. يريد ينام ويستريح، وإذا بطفله الرضيع يبكي، أول شيء يفعله الأب أن يبحث ء مصلحته كما يدله عليها عقله، إنه يريد أن ينام، ولديه عمل في الغد فيذهب إل حجرة أخرى لينام.

ورغم أن هذا هو التصرف الفعلي السليم، فإن الأم لا تفعله أبداً مهما كان متعبة أو مجهدة، فإنها تبقى ساهرة بجوار ابنها، بل إنها لو كانت مرتبطة بموء هام، وهي في طريقها إلى الباب، ووجدت درجة حرارة ابنها ارتفعت ارتفاعاً كبي فجأة، الأب يذهب إلى الموعد حتى ولو كان هو يقوم مقام الأب والأم في حا وفاة زوجته، ولكن الأم مستحيل أن تفعل ذلك. .

وتستطيع أن تقيس على هذا مئات الأحداث التي تقع كل يوم، وتقارن فيـ بين موقف الرجل والمرأة، لتجد أن عاطفة المرأة أقوى من عقلها. .

لماذا؟ لأن هذه مهمتها في الحياة، ولو لم تكن العاطفة أقوى من العقل ف المرأة، لما سهرت الليالي بلا نوم بجوار ابنها المريض، ولما عاشت وتحملت لتبة مع زوجها وأولادها في الأزمات، ولما استطاعت أن تتحمل مشقة التربية وصعابها.

إن تضحية الأم من أجل أولادها، شيء لا يمكن إذا حكمنا فيه العقل يحدث، ولكن العاطفة وجدت هنا، لتؤدي المرأة مهمتها، ولذلك عندما سأل أحـ الرجال رسول الله ﷺ: من أحق الناس بحسن الصحبة؟ قال الرسول عليه الصلا والسلام: أمك، فقال الرجل: ثم مَنْ؟ فقال الرسول: ثم أمك، فقال الرجل: ثم من يا رسول الله؟ قال ﷺ: ثم أمك، وسأله الرجل ثم من؟ قال: ثم أبوك[1].

ومن مشهور الكلام: «الجنة تحت أقدام الأمهات».

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب بر الوالدين (٢٥٤٨).

قصة أم علقمة

مرض أحد شباب الصحابة واسمه علقمة، واشتد مرضه وأرسلت زوجته إلى رسول الله ﷺ إن زوجي علقمة يعاني سكرات الموت، فأرسل رسول الله عليه الصلاة والسلام عماراً وبلالاً وصهيباً، وقال لهم لقنوه الشهادة، فجاؤوا إليه فوجدوه في النزاع الأخير، فجعلوا يلقنونه الشهادة فلا يستطيع النطق بها، فعادوا إلى النبي ﷺ يخبرونه بذلك، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: هل من أبويه أحد حي؟ قيل: يا رسول الله له أم كبيرة السن، فأرسل إليها رسول الله عليه الصلاة والسلام من يقول لها إن قدرت على المسير إلى رسول الله ﷺ فاذهبي إليه، وإلا فانتظريه في المنزل حتى يأتيك، فقالت المرأة، نفسي لنفسه الفداء، أنا أحق بإتيانه..

ثم قامت فتوكأت على عصا وأتت رسول الله ﷺ، وسلمت فرد عليها السلام، وقال لها الرسول ﷺ: يا أم علقمة أصدقيني القول، وإن كذبتني جاء الوحي من الله بالحقيقة، كيف كان حال ولدك علقمة؟ قالت: يا رسول الله، كان كثير الصلاة، كثير الصيام، كثير الصدقة، قال رسول الله ﷺ: فما حالك معه؟ قالت: يا رسول الله، أنا عليه ساخطة، قال: وَلَم؟ قالت: يا رسول الله كان يؤثر زوجته عليّ، فقال رسول الله ﷺ: إن سخط أم علقمة على ولدها حجب لسان علقمة عن الشهادة.

ثم قال رسول الله ﷺ: يا بلال انطلق واجمع لي حطباً كثيراً، فقالت أم علقمة، وما تصنع به يا رسول الله؟ قال: سنحرق ابنك في النار، فقالت أم علقمة: يا رسول الله إنه ولدي، ولا يحتمل قلبي أن يحرق بالنار، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: يا أم علقمة عذاب الله أشد وأبقى، ونار الدنيا أهون من نار الآخرة، إن أردت أن يغفر الله له فارضي عنه، فوالذي نفسي بيده لا ينتفع علقمة بصلاته ولا بصيامه ولا بصدقته ما دمت عليه ساخطة، قالت: يا رسول الله فإن أُشهد الله تعالى وملائكته ومن حضرني من المسلمين إني قد رضيت عن ولدي علقمة، فقال رسول الله ﷺ: انطلق إليه يا بلال، فهل

يستطيع أن ينطق بشهادة لا إله إلا الله أم لا، فلعل أم علقمة تكلمت بما ليس في قلبها حياء مني..

وانطلق بلال فسمع علقمة، وهو ينطق بالشهادة، ومات علقمة في يومه، فحضره رسول الله ﷺ، وحضر دفنه وصلى عليه، ثم قام على قبره فقال: يا معشر المهاجرين والأنصار، من فضل زوجته على أمه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً إلا أن يتوب إلى الله عزّ وجلّ، ويحسن إليها ويطلب رضاها، فرضى الله عزّ وجلّ من رضاها، وسخط الله عزّ وجلّ في سخطها..

وصعد رسول الله ﷺ المنبر، لما رقى عتبة قال آمين، ثم رقى أخرى فقال آمين، ثم رقى عتبة ثالثة فقال آمين، ثم قال:

«أتاني جبريل عليه السلام فقال يا محمد تعس من أدرك رمضان ولم يغفر له، قل آمين فقلت: آمين. قال جبريل تعس من أدرك والديه عند الكبر ولم يدخل بهما الجنة قل آمين فقلت: آمين، قال جبريل تعس من ذُكرت عنده فلم يصل عليك قل آمين فقلت: آمين».

حوار حول المرأة

قالت أم سلمة لرسول الله ﷺ: أخبرني يا رسول الله عن قول الحق عزّ وجلّ: «حور عين»؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «حور» معناها بيض، و«عين»، أي ضخام شقر، الحوراء في منزلة جناح النسر، قالت أم سلمة: أخبرني يا رسول الله، عن قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨]، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: صفاؤهن كصفاء الحر (أي اللؤلؤ الحر) الذي في الأصداف لا تمسه الأيدي، وقالت أم سلمة: يا رسول الله أخبرني عن قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠]، فقال رسول الله ﷺ: خيرات الأخلاق حسان الوجوه، فقالت أم سلمة، فأخبرني يا نبي الله عن قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩]، قال رسول الله ﷺ: رقتهن كرقة الجلد الذي في داخل البيضة فيما يلي القشرة.

وقالت أم سلمة: أخبرني يا رسول الله عن قوله تعالى: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٧]، قال رسول الله ﷺ: «هن اللاتي قبضن في دار الدنيا عجائز رمصاً شمطاً، خلقهن الله يوم القيامة بعد الكبر فجعلهن عذارى، عُرُباً متعشقات محببات، أتراباً على ميلاد واحد، أي في سن واحدة، فقالت أم سلمة يا رسول الله، أنساء الدنيا

أفضل أم الحور العين؟، قال النبي عليه الصلاة والسلام: بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة»..

فقالت أم سلمة: يا رسول الله وبم ذلك؟ قال عليه الصلاة والسلام: «بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله عزّ وجلّ ألبس الله وجوههن النور، وأجسادهن الحرير، بيض الألوان، خضر الثياب، صفر الحلي، مجامرهن الدر، وأمشاطهن الذهب، يقلن نحن الخالدات، فلا نموت أبداً، ونحن الناعمات، فلا نيأس أبداً، ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً، ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً، طوبى لمن كنا له وكان لنا».

قالت أم سلمة: يا رسول الله، المرأة منا قد تتزوج الزوجان والثلاثة والأربعة، ثم تموت فتدخل الجنة، فمع أي الأزواج تكون؟

قال النبي ﷺ: يا أم سلمة إنها تخير، فتختار أحسنهم خلقاً، فتقول يا رب، إن هذا كان أحسن خلقاً معي، فزوجنيه. يا أم سلمة إن حسن الخلق، بخير الدنيا والآخرة.

وهكذا نرى أن قول رسول الله ﷺ: ناقصات عقل ودين معناه، أن المرأة تفعل أشياء بعاطفتها يقف العقل عندها، أما مسألة الدين فهي بحكم طبيعة خلقها، تمر عليها أيام في الدنيا لا تؤدي فيها صلاة ولا صياماً، وهذا ليس عيباً، لأن الله خلقها هكذا، فهذه طبيعتها لتؤدي مهمتها في الحياة.

إذن فالمسألة شرح لطبيعة المرأة، وليس محاولة للانتقاص منها، وإلا ما كان رسول الله ﷺ قد أخذ برأي أم سلمة في صلح الحديبية، وما كان قد قال عن عائشة رضي الله عنها: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء»[1] فقد كان وجهها رضي الله عنها يميل إلى الاحمرار.

إن من يحاول تفسير هذا الحديث النبوي الشريف على أنه طعن في المرأة، يكون قد جانبه التوفيق، ولم يفهم معنى الحديث، ولا ما هو المقصود بالنقص في العقل والدين!

إن الله سبحانه وتعالى قد جعل لكل من الرجل والمرأة مهمته في الحياة، وتم الخلق ليناسب هذه المهمة، فالرجل لأنه يسعى في سبيل الرزق، محتاج لأن

(١) انظره في «كشف الخفاء» ١/ ٢١١.

يحكم عقله وحده دون عاطفته، حتى يستطيع أن يحصل على الرزق، ويوفر للأسرة احتياجاتها.

والمرأة لأنها هي التي تحنو وتربي، وهي السكن، لا بد أن تكون عاطفتها أقوى، لتؤدي مهمتها، ومن تمام الخلق، أن يكون كل مخلوق ميسراً لما خلق من أجله.

* * *

الدرس الرابع

ميراث المرأة المسلمة

شبهة وردها

بعض الناس يتساءل: لماذا يأخذ الرجل ضعف المرأة في الميراث؟

ولماذا شهادة الرجل بشهادة امرأتين؟ أليس هذا تمييزاً للرجل على المرأة؟

هذه القضية أخذت وما زالت تأخذ جدلاً كبيراً، والذي يجادل فيها ـ كما قلنا ـ هم من غير المؤمنين، هم الذين يملأون الدنيا بالأكاذيب عن الإسلام، وعن المرأة في الإسلام، وكيف تعامل المرأة المسلمة معاملة الرقيق، وإنها بلا حقوق، وغير ذلك من الافتراءات والأكاذيب المختلقة التي يشيعونها بهدف الطعن في الإسلام.

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ [النساء: ١١].

ويقول تبارك وتعالى في محكم التنزيل:

﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ [النساء: ١٧٦].

ونحن لن نتحدث عن تلك الأنظمة غير الإسلامية التي تحرم المرأة من الميراث أو تعطي الميراث للأخ الأكبر وحده، إلى غير ذلك، لأننا لسنا محتاجين لأن نستعرض كل هذا، فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق، وهو جل جلاله الذي حكم، ونحن كمؤمنين نطيع ما أمر به الله..

إن علة الطاعة ليست في الأمر، ولكن في الآمر به، فما دام الله قد قال فقد لزم، فهو تبارك وتعالى المطاع في كل أمر، والله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وحول هذا الموضوع نذكر ـ بتوفيق الله ـ خواطرنا عن معنى الآية الكريمة: ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾.

المرأة تعيش حياتها كلها في كنف رجل مكفولة منه، مسؤول هو عنها، فإن

كانت فتاة، فالذي ينفق عليها هو والدها، وإذا فقدت والدها أنفق عليها أخوها، أو عمها أو خالها، ولذلك فهي مكفولة من رجل دائماً، فإذا تزوجت فهي مسؤولة من زوجها، هو الذي ينفق عليها، ويوفر لها مقومات حياتها، وعلى أسوأ الأحوال فهي مسؤولة عن نفسها فقط، وهي ليست مسؤولة شرعاً أن تنفق على إنسان آخر مهما كانت درجة قرابته.

لكن الرجل له وضع مختلف، إنه مسؤول عن غيره، فهو مسؤول شرعاً عن أمه وأخوته، وعندما يتزوج يصبح مسؤولاً عن زوجته، أما المرأة فيعولها وليُها قبل أن تتزوج، ويعولها زوجها بعد الزواج ثم يعولها أولادها بعد ذلك.

ولنفرض أن الأب يملك ستة أفدنة، وليس له سوى ابن وابنة، الإبن يحصل على أربعة أفدنة، والابنة تأخذ فدانين. .

في أقسى الظروف الابنة قد تضطر أن تعول نفسها فقط، ويكفيها الفدانان، وعندما تتزوج يعولها زوجها وتوفر الفدانين لما قد تحتاجه زيادة عما ينفق عليها زوجها.

أما الابن الذي أخذ أربعة أفدنة، فسيتزوج امرأة ويعولها، وتصبح الأفدنة الأربعة، لتوفير الحياة لإثنين، وليست لفرد واحد، فمن عنده أكثر من الآخر؟ المرأة طبعاً، لأنها غير مسؤولة عن أن تعول أحداً.

وإذا أخذنا المسألة بالمتقابلات، أقول لك مثلاً: أنا عندي بنت وولد، وأنت عندك بنت وولد، كل من الابنتين أخذت ثلث الميراث، وكل من الولدين أخذ ثلثي الميراث، ابنتي تزوجت ابنك، وابنتك تزوجت ابني، يصبح لكل عائلة ميراث كامل، وتكون المسألة قد تساوت.

الله سبحانه وتعالى، حينما خلق الحياة وخلق الإنسان، وضع له منهجاً ليعيش به، وهذا المنهج أنزله الله من السماء ليعطي للإنسان الحياة الآمنة الكريمة على الأرض، فقال سبحانه: إفعل كذا ولا تفعل كذا ليقي المجتمع البشري من شرور سيعانيها لو تركت المسائل لشهوات الناس وظلمهم، والدين لا يتدخل فيما ليس فيه هوى النفس، إنما يتركه للإنسان.

التجارب التي تجري في المعمل على المادة، والعلم التجريبي الذي لا تحكمه إلا التجربة المعملية، هذه التجارب لا يتدخل فيها الدين، إلا أنه يطلب الأمانة في العمل وفي النتائج.

إنك لن تجد خلافاً بين البشر أبداً في هذا العلم، لن تجد كيمياء فرنسية،

وكيمياء أمريكية، أو كهرباء سوفيتية وكهرباء إنجليزية، بل العلم واحد، تنقله الدنيا عن بعضها البعض، بل وتسرقه من بعضها البعض، وتتنافس الدول على إختطاف العلماء، وإغرائهم ليعملوا في خدمتها. .

والقرآن الكريم يعطينا مجال العلم البشري في آيتين اثنتين من آياته، فيقول الله سبحانه وتعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

الله سبحانه وتعالى حدد لنا أنه ينزل من السماء ماء، فيخرج به الثمر، هذا هو علم النبات باختلاف ألوانه، وكل ما يتعلق به، سواء كان من ألوان الثمر التي تنبت باختلاف أنواعها، أو البذرة وانتقائها، والأبحاث التي تتم لتحسينها، أو الآفات التي تصيب الزرع، وكيفية الوقاية منها، أو المخصبات التي تستخدم لزيادة المحصول، أو ما يستخدم فيه الثمر، سواء كان يؤكل أو يعصر، أو يستخرج منه الدواء، أو يكون صالحاً كعلف للماشية، وغير ذلك من كل استخدامات النبات، سواء كان لتنقية البيئة من التلوث، أو للرائحة العطرة التي يمكن أن تستخرج منه، أو للجمال والزينة، أو لكل ما يعطي النبات للحياة، من فوائد علمية تفيد الإنسان في حياته.

ولعلنا نشهد ثورة عالمية في استخدام المواد الطبيعية لعلاج الأمراض، والبعد عن الكيماويات، التي ثبت أنها تصيب الجسد البشري بأضرار أكثر من النفع. .

ولقد تقدمت أبحاث النبات الآن لدرجة كبيرة، وكشف الله جل جلاله لخلقه أسراراً كثيرة، للدور الذي يمكن أن يؤديه النبات في حياة الإنسان، فوجد أن هناك نباتاً رائحته تطرد الحشرات، وهو يستخدم الآن كمبيد حشري، ونبات رائحته تجذب الحشرات، وهو يستخدم الآن في جذب الحشرات إلى الأماكن التي يراد جذبها إليها، ونبات له فوائد طبية كبيرة بالنسبة لعلاج الكثير من أمراض البشر.

إن العلاج بالأدوية المستخلصة من مواد طبيعية، أصبح الآن هو السائد في الدول المتقدمة.

لقد ثبت أن أنقى أنواع الأنسولين وأكثرها فاعلية بالنسبة لمرض السكر، هو الأنسولين البشري، ومجالات كثيرة يعرفها أولئك المتخصصون في هذه العلوم.

نقول إن هذه الأبحاث، لا يتدخل فيها الدين يضع فيها منهجاً، لأنها تحكم

نفسها، لأنها تجارب تشاهد في المعمل، وليس مع العين أين؟ . .

ثم تمضي الآية الكريمة: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

وهذه إشارة إلى ما تحتويه الأرض من كنوز، سواء كان في الجبال التي تعطيها المعادن الموجودة فيها ألوانها، فتجد الجبال التي تحوي الحديد لونها أسود، وتجد الجبال التي تحوي المعادن الأخرى يكسبها المعدن اللون الذي تبدو به، وكذلك ما يحتويه باطن الأرض، مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى:

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ [طه: ٦].

فللإنسان أن يبحث كما يشاء، في الجبال وباطن الأرض، ويكتشف من الكنوز التي خلقها الله سبحانه وتعالى ما يستطيع، وهناك دول الآن من أغنى دول العالم، كدول البترول ـ مثلاً ـ تعيش على ما تحت الثرى، لا ما فوقه، وللإنسان أن يأخذ من المعادن التي خلقها الله سبحانه وتعالى له في الجبال وفي باطن الأرض، ما يجعله يستخدمها في صناعاته المختلفة.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ . .﴾ وهم الذين يدرسون كل ما يتعلق بالإنسان وكل ما يصيبه من أمراض، من حيث دراسة خلايا جسده وبيئته إلى غير ذلك، وكذلك الدواب والأنعام بكل أنواعها . .

والدواب هو كل ما يدب على هذه الأرض، هذه أيضاً مجال العلم البشري يكتشف فيها مكونات الدم، وما تفعله الميكروبات والجراثيم، وعلم البيئة وغير ذلك من العلوم، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ . .﴾ أي أن العلماء كلما زادت دراستهم لهذه الأشياء، أحسوا بعظمة الله في خلقه، وجليل قدرته فيما صنع، فزادت خشيتهم له، لأنهم أحسوا بعظيم القدرة وجلال الخلق.

إن الدين يتدخل، لينظم حركة الحياة فيما يخضع لأهواء الناس، في التقنين البشري الذي يحاول كل إنسان أن يتمه ليحصل منه على أكبر فائدة.

فإذا أخذنا النظريات السياسية مثلاً، أو النظريات الاقتصادية، أو القوانين التي تخضع لهوى النفس، نجد أن كل من يضع هذه القوانين، إنما يحاول أن يحصل على أكبر فائدة شخصية، دون النظر إلى العدالة أو حقوق الناس . .

إننا نجد مثلاً قوانين الدول الرأسمالية تعطي أكبر الميزات لأصحاب رأس

المال، وأقلها لغيرهم، كذلك القوانين في الدول الشيوعية، تعطي الميزات كلها لأعضاء اللجنة المركزية ولا شيء لغيرهم!

عندما يكون هناك هوى، وعندما يتدخل هذا الهوى في تقنين الأحكام لمصلحة فئة على حساب أخرى، هنا يتدخل منهج السماء، لأن الله سبحانه وتعالى رب الجميع، ﴿**لم يتخذ صاحبة ولا ولداً**﴾، وهو جل جلاله لا يطمع فيما بين أيدينا، لأن عنده سبحانه كنوز السموات والأرض، وهو المعطي بدون حساب..

إذن فالله سبحانه وتعالى حين يقنن للبشر، إنما يعطي كل ذي حق حقه دون ميل أو تمييز، فإذا قال الحق تبارك وتعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ..﴾ فيجب أن نعلم أن هذا الحكم عادل لم يقصد به تفضيل جنس على آخر، لأن الله الذي خلق الإنسان يعرف ما يصلح لمهمته في الحياة، ولذلك أعطى كل واحد على قدر تبعاته..

لقد أعطى المولى سبحانه وتعالى الذكر نصيبين، لأنه سيتزوج ويعول أنثى، وأعطى الأنثى نصيباً واحداً، لأن غاية ما ستتحمله ـ وفي أقسى الظروف ـ هو أن تقيم حياتها أو تنفق على نفسها، ولكنه ميزها ولم يرد أن يحرمها، لأنها عندما تتزوج سيكون هناك من يعولها، ومن هو مسؤول عنها، فأبقى لها نصيبها رغم أن هناك رجلاً سيعولها ويكفلها وينفق عليها. أليست هذه ميزة؟ وهل يعتبر هذا انتقاصاً من حق المرأة؟

* * *

شهادة المرأة

ثم نأتي للآية الكريمة الخاصة بالشهادة، يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

لقد ثار جدل كبيرحول هذه الآية، حتى أن بعض المشتغلات بالاعلام كتبن يقلن كيف لا تساوي شهادة امرأة حاصلة على الماجستير أو الدكتوراه، شهادة بواب العمارة التي تسكن فيها، وربما يكون أمياً لا يقرأ ولا يكتب؟ وكيف أن شهادة حاملة الدكتوراه، تساوي نصف شهادة بواب العمارة الأمي؟!

ولقد وجد هذا المنطق الخاطئ رواجاً بين الناس، حتى أن بعضهم أخذ يردده ترديداً أعمى، وهو غير فاهم لحكم الله، وكأنه يريد أن يعدل الحكم على الله سبحانه وتعالى مع أنه لا يفهم معنى ما يقوله.

إن ذلك المنطق الكاذب يجد كثيراً من الآذان التي تستمع إليه، دون أن تعيه، وتردده دون أن تفهم معناه، وإذا كنا نريد أن نضع المعاني في إطارها الصحيح السليم، فلا بد أن نفهم ما معنى كلمة شهادة؟..

كلمة شهادة مأخوذة من مشهد، أي شيء تراه بعينيك، وتراه واقعاً أمامك، وهذا المشهد أو الشيء المشهود ليس محتاجاً إلى علم، ولا إلى درجات علمية، ولا إلى عقل درس حتى درجة الدكتوراه. ولكنه محتاج إلى عين تشهد، وإلى كلمة صدق تقال، أما غير ذلك فلا..

ومن هنا فإن الملاحظة التي أبديت غير ذات موضوع، ولا تنطبق على الشهادة، لأنه ليس هناك أبحاث علمية تجري، ولا تجارب معملية تتم، ولا غير ذلك مما يقتضي ثقافة معينة لا بد أن تتوافر، وعلماً سابقاً لا بد أن يكون موجوداً..

ومن هنا يتساوى خلق الله الذين حصلوا على أعلى درجات العلم، وخلق الله الذين لم يقرأوا حرف في حياتهم، فمنطق الثقافة لا يعتد به هنا.

المسألة إذن ليست رجاحة عقل، ولكنها صدق وأمانة نقل.

وإذا نظرنا إلى طبيعة المرأة نجد أنها مخلوقة على الستر، فهي ممنوعة من مخالطة الرجال، وأنا أريد كلمة حق من المرأة: هل إذا حدثت مشاجرة في الطريق العام، هل يسوغ للمرأة أن تسرع إلى الدخول فيها، ولمعرفة ما يحدث؟ أم أنها تبتعد عنها تماماً اتقاء للأذى حتى لا تصاب بسوء؟ طبعاً هي تبتعد عنها. لماذا؟

أولاً: لأنها مخلوق ضعيف، لا قدرة لها على المنازلة أو المشاجرة، **وثانياً**: لأنها مخلوق عاطفي ستصاب بأذى في نفسيتها من مظاهر العنف والضرب في هذه المشاجرة، **وثالثاً**: لأن تعرضها لمثل الحدث، يُوجِدُ احتكاكاً عنيفاً بينها وبين الرجال مما يعرضها لخدش كرامتها وحيائها، إنها تبتعد عن المشاجرة، حتى ولو كان المتشاجر زوجها أو أخاها وتستغيث بالرجال.

المرأة ومشاكل الحياة

والمرأة بطبيعتها بعيدة عن مشاكل الحياة العامة، لأن هناك رجلاً يعولها، وهو الذي يتصدى لهذه المشاكل، وهو الذي يتداخل فيها ويحلها.

لهذه الأسباب وغيرها من الأمور التي تتعارض مع طبيعتها، فإن المرأة لا تصلح شاهدة كالرجل، لأنها لو عرفت بعض التفاصيل، غابت عنها تفاصيل أخرى، **لأنها** بطبيعتها تبتعد عن المشاكل..

ولذلك فإنه لا حجية لمن يقول، كيف لا تتعادل شهادة الأستاذة الجامعية مع شهادة البواب الأمي، لأن العقل هنا لا دخل له في القضية، ولكن صدق النقل الذي ترتب على التواجد والمشاهدة هو الذي يعنينا..

إن هذا الاعتراض قد أغفل مهمة الشهادة، وجعلها مهمة تعتمد على العقل وثقافته، بينما هي في الحقيقة تعتمد على صدق النقل والمشاهدة فقط.

وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا..﴾ فإن هذا الضلال يأتي من عدم دقة المشاهدة، ومن أن المرأة تحرص على أن تبتعد عن كل مشاحنة، أو اشتباك يحدث فيه العنف..

والله تبارك وتعالى يقول عن الشيطان: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

ويقول عن النساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨].

لماذا يفهم بعض الناس هاتين الآيتين فهماً خاطئاً، ما هو الكيد؟ إن الكيد

تدبير بخفاء، والتدبير بخفاء لا يكون إلا من ضعيف، فالإنسان القوي إذا تملك من عدوه قد يتركه، لأنه قادر على أن يأتي به في أية لحظة، فهو لوثوقه من قوته لا يهتم، وقد يترك عدوه عله يتوب، ولكن الإنسان الضعيف إذا تملك من عدوه فإنه لا يتركه أبداً، لماذا؟ لأنه لا يثق في أنه ستتاح له الفرصة، ليتملكه مرة أخرى، ولذلك فإنه متى تملكه قضى عليه إحساساً منه بعجزه، وبأن الفرصة لن تأتي مرتين.

ولأن المرأة مخلوقة ضعيفة يكون كيدها عظيماً. فهي إذا تمكنت من عدوها، فإنها لا تفوت الفرصة للقضاء عليه، لأنها لا تضمن أن تأتيها فرصة أخرى. .

ولضعف المرأة فإنها لا ترتكب جريمتها بالعنف ولا بالمواجهة، ولكنها تكيد وتتحايل، فتضع السم لضحيتها، أو توقعه بحيلة ما بحيث يتولى غيرها القضاء عليه. .

إن مظاهر العنف التي ظهرت في الأيام الأخيرة من بعض النساء ليست القاعدة ولكنها شذوذ عنها، كما أن الضجة التي أحدثتها هذه الجرائم أخذت أكبر من حجمها، لأن الشذوذ عن القاعدة هو الذي يحدث ضجة، ولكننا لو أخذنا عدد النساء اللاتي استخدمن العنف في فترة طويلة من الزمن، نجد أنهن لا يتجاوزن عدد أصابع اليدين من بين ملايين النساء، وحتى في هذه الحالة، فإن المرأة لا تأخذ طريق المواجهة، ولكنها تأخذ طريق الحيلة والكيد، بأن تستخدم مخدراً أو غير ذلك من الأشياء التي تشل حركة ضحيتها، وعلى أية حال فالشاذ من الأمور لا يقاس عليه.

* * *

«واضربوهن»
بين الأمر والإباحة

نأتي بعد ذلك إلى قول الحق سبحانه وتعالى فاضربوهن، وذلك في الآية الكريمة:

﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

بعض الناس يقول: إن ضرب النساء هو نوع من الوحشية، فكيف يأمر الله به؟ ونقول: لمن لم يفهم وغابت عنه الحكمة الإلهية في الآية الكريمة، إن الله تبارك وتعالى لم يأمر بضرب النساء، ولكنه أباحه، وفرق كبير ـ كما قلنا ـ بين الأمر والإباحة، لقد جعله مرحلة ثالثة بعد الوعظ والتذكير بشرع الله، وبعد الهجر في الفراش، مما يؤكد لنا أن المرأة هنا تكون مصرة على فعل ما يكرهه زوجها، وأن الموعظة معها لم تجد، والهجر في الفراش لم ينفع، وكل الوسائل لم تأت بنتيجة، والشرع هنا يشترط أن يكون الضرب غير مبرح، أي مجرد إيلام خفيف، بعد أن فشلت كل الطرق في إصلاحها وردها إلى الصواب.

الله سبحانه وتعالى أوجب على المرأة زوجها، فهو الذي يقوم بالانفاق عليها ورعايتها هي وأولادها، وهو يبذل في ذلك الكثير من الجهد، ويتعرض للكثير من المضايقات، بحيث يعود إلى بيته متعباً منهكاً، لا يحتمل مزيداً من المتاعب والعناد..

إن من واجب الزوجة في هذه الحالة، أن تكون سكناً لزوجها، تزيل عنه إرهاق الحياة ومتاعبها، ولكن أن تزيد متاعبه وتعانده، فإن ذلك يجعل الحياة بالنسبة له مستحيلة، ويؤثر على عمله ورزقه. والضرب ليس معناه الكراهية، ولكن معناه إظهار عدم الرضا عن شيء يحدث، ويسبب ألماً نفسياً للرجل، يقابله بألم بدني خفيف.

قد يقول بعض الناس، إن ضرب الزوج لزوجته معناه الكراهية. ونقول

لهؤلاء: ألا يضرب الأب ابنه؟ أيكره الأب ابنه الذي هو قطعة منه؟ طبعاً لا، بل إنه لا يحب شيئاً في الدنيا أكثر من ابنه، ولكنه يريد مصلحته، وقد يسبب له ألماً خفيفاً ليقيه من آلام كثيرة سيتعرض لها لو استمر في الطريق الخاطئ الذي يمشي فيه.

إن المجتمعات الإسلامية هي أقل المجتمعات إيذاء للنساء، لأن الشرع الحنيف يحض الأب والزوج على الترفق بهن لضعفهن وقلة حيلتهن، أما في أوروبا وأمريكا فإن الأزواج يضربون زوجاتهم ضرباً مبرحاً لدرجة أنه بدأت تنشأ هناك جمعيات لحماية الزوجات من ضرب الأزواج!، والله سبحانه وتعالى قد جعل بين الأزواج والزوجات مودة ورحمة، وذلك مصداقاً لقوله تبارك وتعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

هذه المودة والرحمة هي الرابطة بين الزوج وزوجته أوجدها الله، لذلك لا تجد من هو أكثر تسامحاً من الزوج مع زوجته، أو الزوجة مع زوجها، يحدث بينهما الكثير، وبعد ساعة أو أقل، تجدهما نسياً ما حدث، وعادا إلى الحب والصفاء، ورسول الله ﷺ يقول:

«استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً»[1].

وهكذا نرى أن الضرب ليس علامة الكراهية، ولكنه قد يكون علامة حب، وأنه ما دام غير مبرح فإنه يسبب ألماً بسيطاً، وأن الإنسان قد يلجأ إلى ضرب خفيف مع من يحب، لأنه يحب مصلحته، ويهمه أمره.

والمرأة بطبيعتها تتفهم ذلك من زوجها وتعرف أن غضبه عليها ومعاقبته لها، سرعان ما يتلاشى ويزول بزوال أسبابه تدوم بينهما العشرة وكأن شيئاً لم يكن.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣١)، ومسلم في الرضاع، باب الوصية بالنساء (١٤٦٨).

الدرس الخامس

الحكمة من الحجاب والنقاب

الحرية ليست مطلقة

سألتني صحفية إنجليزية لماذا يمنع الدين الاسلامي المرأة من أن ترتدي ما تشاء؟ لماذا يقيد حريتها في أن تختار ثيابها؟ وترتدي ما تحب؟. أليست هذه حرية شخصية للمرأة؟

قلت: قبل أن أجيب على هذا السؤال، لا بد أن نتفق على نقطة هامة، هي أنه ليس لإنسان يعيش في مجتمع ما يسمى بالحرية المطلقة، فلا بد أن تكون حريته حرية نسبية لا تعتدي على حريات الآخرين، وبعيداً عن مخالفة الدين وتعاليمه.

هل تستطيعين أنت أن تفعلي ما تريدين؟ إذا أردت أن تمشي في الطريق العام بدون ملابس على الاطلاق، فهل يمكنك ذلك بدعوى أنك حرة تفعلين ما تشائين؟!..

إذا أردت أن تستمعي إلى موسيقى عالية بعد منتصف الليل، فهل تستطيعين أن تستمعي إلى الراديو في أعلى صوت؟ أو إذا أردت أن تصلحي شيئاً في منزلك والناس نيام، فهل تستطيعين إحضار النجار أو النقاش ليفعل ما يشاء؟..

هل تستطيعين إذا دخلت أحد المحال أو البنوك ووجدت صفاً طويلاً من الناس يقف، هل تتجاهلين الصف وتكونين أول الواقفين؟..

هل تستطيعين أن تتركي سيارتك وسط الطريق، أو في مكان ممنوع فيه الانتظار لأنك حرة، ومن حريتك أن تضعي سيارتك في المكان الذي تريدينه؟ بل هل تستطيعين أن تتجاوزي بسيارتك السرعة المسموح بها، وهل تستطيعين أن ترتكبي فعلاً فاضحاً أمام الناس، لأن ذلك من حريتك؟..

وأستطيع أن أمضي إلى ألوف الأمثلة، لأنه لا يوجد شيء اسمه الحرية المطلقة في أي مجتمع من المجتمعات، ولكنها حرية نسبية، تعطيك من التصرف الذي تريدينه ما ليس فيه اعتداء على حرية الآخرين، فإذا حدث اعتداء على هذه الحرية، فإن المجتمع يتدخل ليوقفك عند حدك قائلاً: هذا ليس من حريتك لأنك اعتديت على حرية الآخرين..

الطريق الوحيد لكي تتمتعي بالحرية المطلقة، هو أن تذهبي إلى مكان لا

يعيش فيه أحد، مكان تعيشين فيه وحدك، دون أن يكون فيه آخرون، حينئذ تستطيعين أن تتمتعي بحريتك كما تشائين، فما دام لا يوجد أحد حولك، ولا أحد من الناس يراك، فإنك تستطيعين أن تفعلي ما تشائين..

هذا بعيد عن منطق الدين، وبعيد عن منهج السماء، فإذا كان هذا هو منطق الحياة في الكون، فكيف تريدين من منهج الله أن يخلق مجتمعاً من الفوضى الذي يضيع فيه كل شيء.

الله سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم:
﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

ويقول جل جلاله في كتابه العزيز:
﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ﴾ [النور: ٣١].

هذا هو حكم الله سبحانه وتعالى بالنسبة للمرأة، وهو إخفاء الزينة التي تلفت الأنظار.

الحجاب لماذا؟

وبداية أحب أن أقول، إن من اختار الدين، فعليه أن يقبل أحكام هذا الدين، حتى ولو كانت هذه الأحكام تقيد حريته في افعل ولا تفعل، لأن تقييد الحرية هنا، هو لخير الإنسان وليس شراً له..

إن هذه الأحكام جاءت من الله سبحانه وتعالى وهو أعلم بنا من أنفسنا، فإذا كانت تقيد حركتنا، فهي تعطينا الخير، وتذهب عنا السوء، فلا يوجد دين بلا منهج، إلا أن يحاول الإنسان أن يرضي غريزة التدين فيه، وفي نفس الوقت يفعل ما يشاء، فيعبد الأصنام أو الشمس، أو غير ذلك مما لا يقيده بمنهج في الحياة، ، فيخلص نفسه من تعاليم الله ليفعل ما يشاء، وفي هذه الحالة يكون قد كفر ـ والعياذ بالله ـ لأنه لا يريد منهجاً سماوياً يقيد حريته.

والمرأة التي تتضرر من الحجاب بزعم أنه يقيد من حريتها بستر ما أمر الله من مفاتنها، عليها ألا تعترض على منح هذه الحرية لغيرها، فإن أباحت لنفسها أن تتزين وتكشف عن مفاتنها، لتجذب إنساناً وتفتنه، فعليها ألا تعترض على قيام غيرها بكشف زينتها ومفاتنها لتجذب زوج هذه المرأة أو ابنها.

إن الهدف هو صيانة المجتمع كله من الفتنة، وإبقاء للاستقرار والأمن بالنسبة للمرأة، حتى لا يخرج زوجها من بيته وهي لا تعلم ستفتنه امرأة أخرى فيتزوجها، أم أنه سيعود إلى بيته؟

إن الله سبحانه وتعالى قد وضع من القواعد والضوابط ما يمنع الفتنة للمرأة والرجل حفاظاً لاستقرار الأسرة وأمنها وأمانها، وحرم أي شيء يمكن أن تكون فيه فتنة من امرأة لرجل غريب عنها، ولذلك حرم إبداء الزينة إلا لمحارم المرأة، حرمه الله تبارك وتعالى في قوله:

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٣١].

وهؤلاء الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة هم من محارم المرأة التي لا تحرص على إبداء زينتها أمامهم، وحتى إذا فعلت، فإن هذه الزينة لا تثير في نفوسهم أية شهوة، إما لأنهم لم يبلغوا السن التي يحسون فيها بالشهوة، وإما أنهم تعدوا هذه المرحلة تماماً، بل إن الله سبحانه وتعالى حرم على النساء أن يضربن بأرجلهن كنوع من التحايل لاظهار الزينة التي أخفتها الثياب، وذلك بتعمد اهتزاز الجسم لتظهر مفاتنها، وقال الحق جل جلاله:

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

كل هذا قد يفهمه البعض على أنه تقييد لحرية المرأة، ولكنه في الحقيقة حماية لها..

لو أن الله سبحانه وتعالى لم يفرض الحجاب، لكان على المرأة أن تطالب به، لأنه أكبر تأمين لها ولحياتها، ذلك أن نضارة المرأة موقوتة، وفترة جمالها ـ لو حسبناها ـ فلن تزيد على خمسة عشر عاماً، ثم بعد ذلك تبدأ في الذبول..

هب أن امرأة بدأت في الذبول وزوجها ما زال محتفظاً بنضارته، قادراً على الزواج، وخرج إلى الشارع ووجد فتاة في مقتبل العمر وفي أتم نضارتها وقد كشفت عن زينتها، ماذا سيحدث؟!

إما أن يفتن بهذه الفتاة ويترك زوجته ويتزوجها، وإما أنه عندما يعود إلى المنزل يلحظ الفرق الكبير بين امرأته وهذه الفتاة، فيزهد في زوجته، ويبدأ في الانصراف عنها..

لكن لو حجبت النساء مفاتنهن عن الرجال، لصارت كل منهن آمنة من فقدان زوجها، ومن تغير نفسه من ناحية زوجته، ولظلت محتفظة بحبه لها وإقباله عليها، لماذا لأن الجمال نمو، والنمو في المخلوقات والنبات والحيوان والإنسان لا يدركه المتتبع له، ولذلك تجد الرجل وله ولد ينظر إليه كل يوم، فلا يمكن أن يلحظ أنه يكبر، ولكن لو غاب عنه شهراً، يتجمع نمو الشهر كله وهو بعيد عنه، وعندما يعود يحس بأنه قد كبر..

والفلاح مثلاً إذا جلس بجوار الزرع، لا يلحظ نموه ولا يراه، فإذا غابة عنه فترة لاحظ هذا النمو..

الرجل مع زوجته كذلك، فهو عندما يتزوجها وهي عروس تكون في أبهى زينتها ونضارتها،، لكن لأنه يراها كل يوم، فإنه لا يلحظ فيها أي تغيير، وتكبر وتذهب نضارتها وجمالها من أمامه شيئاً فشيئاً، دون أن يلاحظ هذا الذبول، بل تظل في عينيه هي نفس العروس الجميلة التي زفت إليه..

ولكن إذا رأى امرأة غيرها، أصغر منها ولا تزال في قمة نضارتها، بدأت المقارنة وأحس بالتغيير، وأثر ذلك في نفسه..

ولذلك ونحن نرى أمهاتنا بعد أن كبرن وملأت وجوههن التجاعيد، لا نشعر بهذا، بل نجد في أمهاتنا نضارة لا نشبع من النظر إليها.

فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد حجب المرأة من أن تستلفت الأنظار إليها بالكشف عن زينتها، وهو قد حجب غيرها ممن هن أصغر وأجمل وأكثر نضارة من أن يستلفتن أنظار زوجها فيعرض عنها..

والعجيب أن المرأة لا تلتفت إلى هذه الحكمة، وهي أن الحجاب حماية لها، ولزوجها ولبيتها، بل تأخذ المسألة على أساس من الحرية الجوفاء، ناسية أن هذا التقييد إنما شُرِّعَ لحمايتها.

والعقاب في الشرع في كل الحالات، لا يبدأ إلا عند النزوع إلى عمل شيء، فأنت ترى وردة جميلة، انظر إليها كما شئت فليس في ذلك إثم ولا حساب، وتمتع برائحتها كما شئت، فليس هناك إثم ولا حساب، إلا أن تمد يدك لتقطعها، حينئذ تكون قد اعتديت..

وأنت ترى فرساً جميلة، انظر إليها كما شئت، وتمتع بالنظر إليها كما تريد، فلا إثم عليك، إلا أن تحاول أن تركبها دون إذن صاحبها، وهكذا كل ما في الدنيا من جمال، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل : ٨].

زينة لمن؟ ألصاحبها فقط؟ الآية جاءت بالزينة على إطلاقها، ولهذا فهي زينة لصاحبها، ولمن أراد أن ينظر إليها ويتمتع بجمالها، كل ما في الكون من جمال، انظر إليه كما تشاء، فليس هذا محرماً، إلا المرأة، فالنظرة إليها محرمة، من المرأة للرجل، ومن الرجل للمرأة، والنظر إليها والتأمل في جمالها من غير زوجها إثم، وكذلك الرجل بالنسبة للمرأة، نظر المرأة للرجل وتأملها في ملامح رجولته إثم، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

وقوله جل جلاله:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١].

* * *

النظرة محرمة، لماذا؟

لماذا حُرِّمت النظرة بين الرجل والمرأة؟ ولم تُحَرَّمْ بالنسبة لباقي مخلوقات الكون؟! ، لأن النظرة هي بداية النزوع بالنسبة للرجل والمرأة، وما دامت النظرة قد بدأت، فأنت لا تستطيع أن تتحكم في نفسك، بالنسبة لما يمكن أن يحدث بعد ذلك . .

النظرة قد أوجدت تغييراً يقودك إلى المعصية، ولذلك نجد مثلاً عندما حرم الله سبحانه وتعالى على آدم وحواء أن يأكلا من الشجرة المحرمة في الجنة، لم يقل لهما لا تأكلا من هذه الشجرة، بل قال جل جلاله:

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

لماذا لم يقل الله سبحانه وتعالى: لا تأكلا من هذه الشجرة، لأنه أراد أن يحميهما من إغراء المعصية، فلو أنه قال لهما لا تأكلا من هذه الشجرة، ربما جلسا إلى جوارها، فأغراهما لون ثمارها أو شكل هذه الثمار، أو الرائحة المنبعثة منها، ولذلك قال لهما سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ ليقيهما الاغراء الذي يمكن أن يوقعهما في المعصية، وكما يقول رسول الله ﷺ:

«إن لله محارم فلا تقربوها، فمن حام حول الحَمِى أوشك أن يقع فيه»[١].

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام: «إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها، وفرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها»[٢].

إذن فتحريم النظر بين الرجل والمرأة، حماية لكليهما، وقالت أم سلمة: كنت عند رسول الله ﷺ، وعنده ميمونة فأقبل ابن أم مكتوم وكان أعمى، ذلك بعد أمرنا بالحجاب، فقال رسول الله ﷺ: احتجبا منه، فقلنا يا رسول الله: أليس أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: أعمواوان أنتما!! ألستما تبصران؟.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢)، ومسلم في المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩).

(٢) أخرجه الدارقطني في «سننه» وانظره في «مشكاة المصابيح» برقم (١٩٧).

والله جل جلاله يقول:

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

على أننا لا بد أن نلتفت إلى حقيقة هامة، هي أن الله سبحانه وتعالى يريد أن تعتدل الموازين في كونه، ويريد للعقل الذي ميز الله به الإنسان أن يعطى حرية الاختيار دون أية مؤثرات، حتى تستقيم الأمور في الكون، وإظهار المرأة لمفاتنها يجعل الميزان يختل، لماذا؟..

لأن المرأة إذا تعمدت اغراء رجل غريب بزينتها والكشف عن جسدها، تتدخل في عمل العقل، لأنه في هذه الحالة، قد يتخذ قراراً ويعلم أنه باطل لينال من هذه المرأة أو يرضيها، وكلنا يعلم تأثير النساء في الصفقات التي تحدث في العالم كله، وكيف أنهن يتخذن كوسيلة للإغراء ليقضي الإنسان بغير الحق، ويختل ميزان الحكم.

كل هذا موجود في شركات عالمية كبيرة تستخدم إغراء المرأة لتتم أعمالاً وصفقات مشبوهة، ما كانت لتتم لو أن الميزان كان معتدلاً، والعقل هو الحكم الوحيد في هذه المسائل من أمور الدنيا.

والغريب أنك تجد بعض الرجال أشد تحمساً ودفعاً للمرأة لإبداء زينتها وعدم التحجب وإلى الاختلاط بالرجل..

ونحن نقول لهؤلاء الرجال: إن الله قد وضع لكم القانون الذي يحمي زوجاتكم وبناتكم، فإذا كنتم تدفعون بعض النساء للتبرج، فأنتم قد وضعتم - باستباحتكم النظر إلى زوجات وبنات غيركم - المبدأ لينظر المجتمع كله إلى زوجاتكم وبناتكم، إن الله قد حماكم من هذا، ولكنكم استبحتموه فلا تلوموا إلا أنفسكم إذا انحرفت الزوجة أو الابنة..

بل من الغريب، أن بعض الأمهات يمنعن بناتهن من الحجاب ويقاومن هذا بدعوى أنه يقلل فرص الفتيات من الزواج، نقول لهن متى كان الزواج ابتذالاً؟ ومتى كان الزوج يبحث عن فتاة متبرجة ليأتمنها على عرضه وسمعته وكرامته؟ إن الإنسان يبحث عن الفتاة المتدينة، التي تصونه وتحفظه إذا غاب في عرضه وماله وأولاده، ولا يبحث عن فتاة متبرجة تعرض مفاتنها على الناس..

ونقول لكل أم تتخذ هذا السبيل: إن القصاص في هذه المسألة يتم في الدنيا، فالزوجة التي تبرز مفاتنها للناس، أو تمنع ابنتها من التحجب، ستجد

القصاص إما في زوجها أو في ابنها، وستجده في فتاة صغيرة تخطف الزوج منها، أو في فتاة تخطف ابنها في أولى سنوات عمره، فتفسد عليه حياته وتضيع مستقبله..

وهكذا لا يعتقد أحد أنه وهو يحارب شرع الله، ويحارب دين الله، سيكون المنتصر أبداً، بل يبعث الله من يفسد عليه حياته ويملأها بالشقاء.

على أننا قبل أن ننتهي من الحديث عن الحجاب، فلا بد من كلمة حول الحجاب والنقاب، وما دامت المسألة تدور كلها على ألا تكون المرأة فتنة للرجال، ولا دعوة لهم إلى المفسدة، فإننا ـ ومع الخط العام ـ نقول: إن كان وجه المرأة جميلاً، جمالاً فتاناً، يمكن أن يأتي بتأثير على كل من يراها، ففي هذه الحالة يجب أن تستر وجهها، أما المرأة العادية، فلا ضرورة لأن تستر وجهها وكفيها، ولذلك أقول عن النقاب، إن النقاب لا مفروض ولا مرفوض..

لقد تحدثنا في هذا الدرس عن الحجاب بالنسبة للمرأة، وكيف أنه لصالحها ولأمنها، وليحفظ لها بيتها وزوجها، وأنه من مصلحة المرأة ـ قبل غيرها ـ أن يكون الحجاب عاماً، وألا يختلط الرجال والنساء، وإن المرأة التي تسمح لنفسها، بأن تفتن أزواج غيرها بدعوى الحرية أو غير ذلك، لا بد أن تسمح لغيرها بأن تخطف منها زوجها، ورسول الله ﷺ يقول: «تنكح النساء لأربع: لمالها، وجمالها، وحسبها، ودينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[1].

* * *

(١) أخرجه البخاري في النكاح، باب الأكفاء في الدِّين (٥٠٩٠)، ومسلم في الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين (١٤٦٦).

الدرس السادس

عمل المرأة

عمل يناسب تكوينها

قبل أن نتحدث عن حكم عمل المرأة في الإسلام، لا بد أن نتناول حديث رسول الله ﷺ يقول فيه: «استوصوا بالنساء خيراً فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج. فاستوصوا بالنساء خيراً»[1].

بعض الناس يأخذ هذا الحديث على أنه انتقاص من شأن المرأة وإهانة لها، والحقيقة أنه كما فُسِرَ حديث: «ناقصات عقل ودين»، بما لا يتفق مع واقعه، كذلك فُسِّرَ هذا الحديث بما لا يتفق مع واقعه. فالضلع مخلوق في صورة مقوسة، ليؤدي مهمته في الحياة، لأنه لو استقام لما أدى مهمته في أن يحمي الصدر.

إذن ففي خلقه اعوج يعني أنه خلق صالحاً لأن يؤدي مهمته في الحياة، وأن يحافظ على الصدر ويحميه من أن يصاب بسوء.

والمرأة مخلوق يملؤه الحنان، ليحافظ على أثمن شيء في الوجود وهو الأولاد، فإذا أردت أن تعدله، لا ينفع ويتحطم..

المرأة مهمتها عاطفية، لأنها تعاشر ابنها من ساعة الحمل إلى أن يبلغ مبلغ الرجولة، ولذلك فهي عندما تسير وهي حامل، تسير بحساب، وتتحرك بحساب، تخاف على ابنها، وإذا تعرضت لخطر فقد لا تدفع الأذى عن رأسها أو أو عينيها، ولكن أول ما تدفع عنه الأذى هو بطنها الذي تحمل فيه طفلها..

وكما بيننا فإن قول رسول الله: «ناقصات عقل ودين»، هو إخبار لنا بأن المرأة قد خلقت وطبيعة عقلها تساعدها على تمام أداء مهمتها كزوجة وأم.

الرجل والمرأة متشابهان، ولكنهما مختلفان عند توزيع الطاقات، الرجل محتاج إلى عقل لا يتأثر بالعاطفة، والمرأة محتاجة إلى عاطفة لا يقتلها العقل..

ومن تمام كمال خَلْق المرأة، أنها خلقت من ضلع أعوج، لتحنو على طفلها

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣١)، ومسلم في الرضاع، باب الوصية بالنساء (١٤٦٨).

وتربيه، وعندها الصبر الكبير الذي منحها الله إياه لتقدر على هذه المهمة الشاقة، وهي سعيدة ومسرورة بما تفعله، وهي تحنو على طفلها الأيام الطويلة دون ملل، ودون ضيق وبنفس راضية..

لقد عرفنا أن العوج في الضلع ليس عيباً ولكنها ميزة، تماماً كالسنارة التي نصطاد بها السمك، من تمام أداء مهمتها أنها معوجة، ولو أن إنساناً جاء فجعلها مستقيمة، فلن تؤدي مهمتها، ولن تصطاد سمكة واحدة.

ذلك توضيح أردت أن أقوله حتى لا يساء فهم هذا الحديث، فالاعوجاج هنا من تمام الخلق، ومن تمام كمال مهمة المرأة في الحياة وليس عيباً فيها.

نأتي بعد ذلك إلى الحديث عن عمل المرأة في الإسلام، وكما قلنا لو نظرنا إلى عمل المرأة لأشفقنا عليها، لأننا سنجد أن عملها أصعب وأشق من عمل الرجل، لأن عمل الرجل محصور في طلب الرزق، ثم راحة بعد ذلك، أما هي فعملها يبدأ عندما تعود إلى البيت بعد يوم عمل شاق في وظيفتها، لتجد أمامها أطفالها وزوجها وبيتها، كل منهم يطلب طلباً.

قد يقال إن المرأة في الريف تعمل في الحقل وفي المنزل، نقول نعم، ولكنها تعمل مع بنات جنسها، أو أشقائها أو محارمها، وكلهم يعمل معها. فإذا كانت يوماً متعبة أعانوها، وإذا كان العمل كثيراً، فهي يمكن أن تعود إلى بيتها متى شاءت، والعمل في البيت في الريف عمل جماعي، تتعاون فيه المرأة مع جاراتها وصديقاتها، كل منهن تساعد الأخرى، ولا يكون العمل شاقاً أو متعباً.

متى يباح العمل؟

إن عمل المرأة في الإسلام بينه لنا القرآن الكريم في قصة شعيب وموسى عليهما السلام، وتعالوا نتأمل القصة ونتدبر فيها..

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص: ٢٣].

إن فموسى عليه السلام قد خرج من مصر خائفاً، لأنهم تآمروا على قتله بعد أن ضرب واحداً فقتله خطأ..

وفي هذا يروي لنا الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ

ٱلنَّـٰصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٢٠، ٢١].

خرج موسى عليه السلام من مصر إلى فلسطين، وبعد أن عبر صحراء سيناء، وصل إلى بئر مَدْيَن، وجد جمعاً من الناس يسقون ماشيتهم، كل يزاحم ليسقي ماشيته أولاً..

لاحظ موسى عليه السلام أنه يقف بعيداً عنهم امرأتان تريدان السقيا ولا تستطيعان، تمنعان ماشيتهما من أن تذهب إلى البئر لترتوي، ولفت هذا المنظر انتباه موسى، كيف أن هاتين الفتاتين جاءتا لتسقيا الماشية؟ وكيف أنهما تمنعان ماشيتهما من الذهاب إلى الماء والإرتواء، وتقدم إليهما ليسألهما ما هي حكايتهما..

ويروي لنا القرآن الكريم هذه القصة في قوله تعالى:

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٣].

عندما سألهما موسى عليه السلام، ما هي حكايتكما؟ اتضحت له الضرورة التي دفعت بهما للخروج من البيت، والاختلاط بالرجال عند البئر، فأبوهما شيخ كبير، لا يستطيع أن يسوق الماشية إلى البئر لترتوي، وهما يقومان بهذا العمل، فكأنهما لا عائل لهما يستطيع أن يتولى السقيا عنهما، ولذلك اضطرتا إلى أن تقوما بالسقيا بأنفسهما.

ولكن انظر إلى الضمانات، التي يجب أن تتوافر، عندما تضطر المرأة للخروج لعمل ضروري..

أولاً خرجت الفتاتان معاً ولم تخرج واحدة منهما بمفردها فقط، مع أن أباهما شيخ كبير.

إن المنطق يقضي بأن تخرج واحدة منهما وتبقى الثانية مع أبيها كبير السن لتخدمه وتلبي طلباته في البيت، ولكنهما خرجتا معاً لتراقب كل منهما الأخرى، حتى لا تخرج واحدة بمفردها، وتذهب إلى أي مكان، ثم تعود وتقول كنت أسقي الماشية..

ورغم أن الفتاتين ابنتا نبي الله شعيب، إلا أن ذلك لم يشفع لهما في الثقة الزائدة التي تفتح الباب لإغواء الشيطان، ولذلك خرجتا معاً ـ كما قلنا ـ لتكون كل منهما في رقابة الأخرى.

والشيء الثاني أنهما عندما اضطرتا إلى الخروج لعمل لم تزاحما الرجال، بل وقفتا بعيداً تمنعان ماشيتهما من السقيا حتى ينصرف الرعاة، وهذا يعطينا المبدأ الثاني، وهو أنه إذا اضطرت المرأة للخروج للعمل، فلا يجب أن تزاحم الرجال، بل تبقى حتى ينصرفوا ولا تكون هناك مزاحمة. وهكذا نعرف أن ضرورة العمل لا يجب أن تجعل المرأة تزاحم وتختلط.

* * *

المجتمع
الإسلامي يعاون المرأة

ماذا حدث بعد ذلك؟ يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

إن موسى عليه السلام، عندما وجدهما امرأتين بلا رجل مضطرتان للعمل، قام هو بالمهمة، فأخذ الماشية وسقاها بدلاً عنهما، وهذه هي مهمة المجتمع الإسلامي، إنه إذا اضطرت المرأة للخروج للعمل، على الرجل أن يقضي لها مهمتها بسرعة، فهذه هي المهمة الإيمانية التي قام بها موسى عليه السلام.

وأذكر عندما سافرت إلى السعودية في عام ١٩٥٠، كنت راكباً السيارة مع صديقي الشيخ عبد المعطي الكعكي - رحمه الله - في طريقنا للعمل، وفجأة أوقف السيارة، ونزل منها واتجه إلى باب بيت، وكان أمام الباب لوح من الخشب، وعليه عجين خبز، ومغطى بقطعة من القماش - فحمل اللوح الذي عليه العجين، ووضعه في السيارة، فسألته عما فعل، فقال لي: عندما تجد لوح عجين أمام منزل مغلق، تعرف أن رب البيت غير موجود، وأنه لا يوجد في البيت إلا النساء، فأي سائر في الطريق يأخذ لوح العجين إلى المخبز، ثم يعود به إلى مكانه بعد أن يتم خبزه.

هذه هي مهمة المجتمع الإيماني، معاونة المرأة التي لا عائل لها في أداء ضرورياتها، دون أن يجبرها على أن تخرج وتختلط بالرجال..

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ..﴾ يبين لنا أن موسى عليه السلام، رغم أنه كان محتاجاً إلى المال، ولم يكن معه شيء، إلا أنه سقى للفتاتين مجاناً دون أن يتقاضى أجراً عن ذلك.

إذن فعمل المرأة عند الضرورة له شروط، فالضرورة التي اقتضت خروجهما أن أباهما شيخ كبير، والعمل تم على قدر الضرورة، فلم يزاحما الرجال، بل انتظرتا حتى يسقي الرعاة وينصرفوا..

إن المهمة الإيمانية للمجتمع، هي مساعدة المرأة بدون أجر ومجاناً، على أن

تقضي عملها وتنصرف، ولذلك فإن موسى عليه السلام سقى لهما ـ كما قلت ـ بدون أجر رغم أنه كان محتاجاً للمال.

ماذا حدث بعد ذلك؟ عادت الفتاتان إلى الأب الشيخ، ولم تكتما عنه قصة ما حدث، بل أخبرتاه بالقصة، ولو أنهما عشقتا الخروج ومغادرة البيت، لأخفيتا عنه هذه القصة لتخرجا كل يوم لسقاية الماشية، ولكن لأنهما فعلتا ذلك وهما كارهتان، أخبرتا والدهما بما حدث، فماذا كان المقابل؟

يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥].

ولأن موسى عليه السلام سقى للفتاتين ولم يأخذ منهما أجراً، ولم يكلمهما، هذا السلوك جعل نبي الله شعيب يحس أن موسى عليه السلام فيه إيمان وأمانة، لهذا أرسل واحدة فقط من بنتيه لكي تستدعي هذا الرجل الأمين لكي يعطيه أجره.

ولو أن موسى عليه السلام نظر إليهما أو حدثهما، أو حاول أن يبدأ كلاماً معهما، أو قال أريد أجري، لبعث شعيب بالفتاتين معاً، ولكن أمانة موسى جعلت هناك ثقة فيه، وإحساساً بأنه إنسان مؤمن وَمُؤتَمن وأمين، وجاءت الفتاة بعد أن دعا موسى ربه: ﴿**وقال رب إني لما أنزلت إلَيّ من خير فقير**﴾، فاستجيبت الدعوة وجاءه من سيدفع له أجر السقاية، وعندما ذهب موسى إلى بيت شعيب عليهما السلام، جلس معه شعيب بنفسه ليختبره ويختبر إيمانه وأمانته.

وسأله ما هي قصتك؟ وهنا يروي لنا القرآن الكريم:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

أي أن شعيب، بعد أن استمع إلى قصة موسى واختبر صدقه وأمانته، طمأنه وَهَدَّأَ من روعه، وهنا جاءت الفرصة للفتاتين، ما يدلنا على أنهما كانتا تخرجان وهما كارهتان، وكان موسى عليه السلام هو الفرصة لكي تتخلصا من هذا العمل ومن الخروج.

إن موسى رجل قوي وأمين، وأنه يمكن أن يقوم عنهما بمهمة العمل مقابل أجر دون أن تخافا عدم أمانته، أو عدم قدرته على العمل، اقترحت إحدى الفتاتين على أبيها، أن يستأجره ليقوم بالسقاية.

مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى:

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

وهكذا في البداية، جذب موسى انتباه الفتاتين ووالدهما بأدبه وأمانته وأنه سقى لهما بلا أجر، وأنه عندما جاء موسى واختبره الأب بنفسه ووثق منه، وجدت الفتاتان الفرصة في ألا تخرجا للسقاية، وتستأجرا موسى لذلك.

ولكن كيف عرفت ابنة شعيب أن موسى قوي وأمين؟ عرفت أنه قوي، لأنه زاحم الرعاة ورفع حجراً ضخماً كان موضوعر فوق البئر، وعرفت أمانته، لأنه لم ينظر إلى أي منهما، ولم تلحظ أي منهما عليه أي مسلك، يمكن أن يشينه.

نبي الله شعيب، أخذ المسألة بمنطق إيماني، وقال لنفسه كيف أستأجر رجلاً يعيش مع ابْنَتَيَّ في نفس البيت، إن المسألة ستكون في غاية الخطورة. فكان الحل لهذا كله، هو أن يعرض على موسى أن يتزوج إحدى الفتاتين، وبذلك تكون الأخرى محرمة عليه، ويستطيع موسى أن يعيش في البيت حياة طبيعية، وقال له كما يروي لنا القرآن الكريم:

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ﴾ [القصص: ٢٧].

أي أن شعيباً عرض عليه الزواج، من واحدة من بنتيه، ولكن موسى لم يكن يملك مالاً، وفطن شعيب إلى ذلك، فحدد المهر بالعمل فترة من الوقت، وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ﴾ [القصص: ٢٧].

وهذا يدلنا على أن مبدأ الأخذ والرد، والمفاصلة في المهر كان موجوداً، هذه هي قصة موسى وابنتي شعيب التي أعطتنا حدود عمل المرأة، فعمل المرأة لا يكون إلا للضرورة، إنه لا عائل لها، والضرورة على قدرها، فلا مزاحمة مع الرجال..

ومهمة المجتمع الإيماني هو مساعدة المرأة على قضاء حاجتها الضرورية مجاناً، وهدف المرأة هو أنها تبحث عن وسيلة لتريحها من العمل والخروج.

وعمل المرأة يوجد في البيت فراغاً كبيراً، وإذا كانوا يقولون إن المرأة هي نصف المجتمع فكيف لا تعمل؟ نقول إن عمل المرأة قد أفسد المجتمع كله وليس نصفه، فالطفل محتاج إلى أمه احتياجاً كبيراً، فعندما يولد هو محتاج إلى لبن الأم.

إن العالم كله الآن يصرخ بالعودة إلى الرضاعة الطبيعية بعد أن عرفوا معنى أن يرضع الابن من ثدي أمه، إن هذا أمر هام جداً بالنسبة للتكوين النفسي للطفل،

وإن تفرغ الأم لطفلها، يجعل الطفل يحس بالأمن والأمان طوال حياته، وقد يستطيع الأب أن يأتي لطفله بعشرين خادمة، ولكنه لن يستطيع أن يأتي له بقلب أم واحدة ترضعه حنان الأمومة، ذلك أن الابن، وهو يرضع لبن الأم يصبح جزءاً منها . .

لذلك حرم الله سبحانه وتعالى زواج الاخوة في الرضاعة، لأن تكوينهم أصبح واحداً، اللبن الذي تكونت منه أجهزة وخلايا الطفل، هو الذي تكونت منه أجهزة وخلايا إخوته في الرضاعة، ولكننا الآن فقدنا هذا كله.

وصدق شوقي رحمه الله حين قال:

ليس اليتيمُ من انتهى أبواه ... مِنْ هَمِّ الحياةِ وَخَلّفاه ذليلاً

إن اليتيمَ هو الذي تَلْقَى له ... أُمًّا تَخَلَّتْ أو أباً مشغولاً

الأم الآن تخلت عن أولادها، ثم يأتي من يحدثك عن عقوق الأبناء، نقول له قبل أن تتحدثوا عن عقوق الأبناء اسألوا أنفسكم أين الحنان الذي رآه الابن من أبويه، وماذا رأى من أمه؟ إنها تركته طوال اليوم في الشارع بلا رعاية ولا عناية، والمرأة التي تقول اخرج للعمل، معناه أنها قد تخلت عن أولادها، وعن مهمتها في البيت، والمرأة التي تشكو إنها تعمل طوال النهار، عندما تعود للمنزل تصبح جثة هامدة، لا تستطيع تحمل أي عمل آخر، وهي إما أن تكون أما وربة بيت، أو امرأة عاملة . .

ولو تتبعت أي امرأة تعمل، تجد أنها تصر على ذلك في شبابها، فإذا كبرت تطلب إجازة بنصف المرتب، أو تحاول التخلص من الوظيفة، ولكنها طالما تسمع كلمات الاعجاب فإنها تصر على العمل، وعموماً فإن أحداث الحياة، ستضطر الناس اضطراراً أن يعودوا إلى الصواب ويعرفوا أن مهمة المرأة الأولى في بيتها، وبين زوجها وأولادها، وأن العمل الذي تقوم به في البيت، أهم مئات المرات من العمل الذي تقوَم به خارج البيت.

وفي أمريكا تعقد النساء الامريكيات، مؤتمرات الآن للمطالبة بعودة المرأة لبيتها وتربية أولادها، لأن المجتمع هناك قد وصل إلى درجة من الشقاء بالنسبة للجيل الجديد من الشباب والشابات، تنذر بانهيار كل شيء.

* * *

على أننا قبل أن ننتهي من هذا الكتاب، لا بد أن نتحدث بإيجاز عن معنى الآية الكريمة:

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

الناس تفهم معنى القوامة، على أساس أنه تملك وتفضيل، ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً، فالقائم على الأمر، هو الذي يجعل كل حركته من أجله..

والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

أي أن الله سبحانه وتعالى، يرعى كل نفس، ويدبر لها رزقها وأمور حياتها، والقيام ضد القعود ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ..﴾ يعني متحركين في الحياة من أجل النساء لكفالتهن، وتوفير المال والطعام ومطالب الحياة لهن، أي أن القيام هنا معناه أنه مسؤول عنها، وعن توفثير مطالبها هي وبيتها وأولادها..

وقوله تعالى: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ..﴾ لم يحدد الله سبحانه وتعالى مَنْ المفضل على مَنْ! فكان الرجال لهم تفضيل في نواح معينة، والنساء لهن تفضيل في نواح معينة، كل مفضل بما يضمن له أداء مهمته في الحياة.

وهناك خطأ آخر، هو أن المرأة ليس لها استقلال ذاتي في الإيمان، وإن من حق زوجها أن يدفعها إلى المعصية، نقول أن هذا غير صحيح، وقد قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١٠، ١١].

وهكذا نرى أن زوجتي نبيين لم يستطع زوجاهما أن يدخلا في قلبيهما الإيمان!!

وزوجة فرعون الذي نصب نفسه إلهاً يُعْبَدُ في الأرض، لم يستطع أن يدخل في قلب زوجته الكفر، مما يدل على أن هناك استقلالاً إيمانياً تاماً للمرأة.

ونأمل أن يكون الله قد وفقنا إلى إلقاء الضوء على بعض ما جاء في القرآن الكريم عن المرأة، وأن يكون في هذا رد على كل متطاول على الإسلام افتراء أو اجتراء عليه، وهو سبحانه وتعالى السميع المجيب.

وإن تفرغ الأم لطفلها، يجعل الطفل يحس بالأمن والأمان طوال حياته، وقد يستطيع الأب أن يأتي لطفله بعشرين خادمة، ولكنه لن يستطيع أن يأتي له بقلب أم واحدة ترضعه حنان الأمومة، ذلك أن الابن، وهو يرضع لبن الأم يصبح جزءاً منها..

لذلك حرم الله سبحانه وتعالى زواج الاخوة في الرضاعة، لأن تكوينهم أصبح واحداً، اللبن الذي تكونت منه أجهزة وخلايا الطفل، هو الذي تكونت منه أجهزة وخلايا إخوته في الرضاعة، ولكننا الآن فقدنا هذا كله.

وصدق شوقي رحمه الله حين قال:

ليس اليتيمُ من انتهى أبواه ... مِنْ هَمِّ الحياةِ وَخَلّفاه ذليلاً
إن اليتيمَ هو الذي تَلْقَى له ... أُمًّا تَخَلَّتْ أو أباً مشغولاً

الأم الآن تخلت عن أولادها، ثم يأتي من يحدثك عن عقوق الأبناء، نقول له قبل أن تتحدثوا عن عقوق الأبناء اسألوا أنفسكم أين الحنان الذي رآه الابن من أبويه، وماذا رأى من أمه؟ إنها تركته طوال اليوم في الشارع بلا رعاية ولا عناية، والمرأة التي تقول اخرج للعمل، معناه أنها قد تخلت عن أولادها، وعن مهمتها في البيت، والمرأة التي تشكو إنها تعمل طوال النهار، عندما تعود للمنزل تصبح جثة هامدة، لا تستطيع تحمل أي عمل آخر، وهي إما أن تكون أما وربة بيت، أو امرأة عاملة..

ولو تتبعت أي امرأة تعمل، تجد أنها تصر على ذلك في شبابها، فإذا كبرت تطلب إجازة بنصف المرتب، أو تحاول التخلص من الوظيفة، ولكنها طالما تسمع كلمات الاعجاب فإنها تصر على العمل، وعموماً فإن أحداث الحياة، ستضطر الناس اضطراراً أن يعودوا إلى الصواب ويعرفوا أن مهمة المرأة الأولى في بيتها، وبين زوجها وأولادها، وأن العمل الذي تقوم به في البيت، أهم مئات المرات من العمل الذي تقوَم به خارج البيت.

وفي أمريكا تعقد النساء الامريكيات، مؤتمرات الآن للمطالبة بعودة المرأة لبيتها وتربية أولادها، لأن المجتمع هناك قد وصل إلى درجة من الشقاء بالنسبة للجيل الجديد من الشباب والشابات، تنذر بانهيار كل شيء.

* * *

على أننا قبل أن ننتهي من هذا الكتاب، لا بد أن نتحدث بإيجاز عن معنى الآية الكريمة:

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

الناس تفهم معنى القوامة، على أساس أنه تملك وتفضيل، ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً، فالقائم على الأمر، هو الذي يجعل كل حركته من أجله..

والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

أي أن الله سبحانه وتعالى، يرعى كل نفس، ويدبر لها رزقها وأمور حياتها، والقيام ضد القعود ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ..﴾ يعني متحركين في الحياة من أجل النساء لكفالتهن، وتوفير المال والطعام ومطالب الحياة لهن، أي أن القيام هنا معناه أنه مسؤول عنها، وعن توفثير مطالبها هي وبيتها وأولادها..

وقوله تعالى: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ..﴾ لم يحدد الله سبحانه وتعالى مَنْ المفضل على مَنْ! فكان الرجال لهم تفضيل في نواح معينة، والنساء لهن تفضيل في نواح معينة، كل مفضل بما يضمن له أداء مهمته في الحياة.

وهناك خطأ آخر، هو أن المرأة ليس لها استقلال ذاتي في الإيمان، وإن من حق زوجها أن يدفعها إلى المعصية، نقول أن هذا غير صحيح، وقد قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١٠، ١١].

وهكذا نرى أن زوجتي نبيين لم يستطع زوجاهما أن يدخلا في قلبيهما الإيمان!!

وزوجة فرعون الذي نصب نفسه إلهاً يُعْبَدُ في الأرض، لم يستطع أن يدخل في قلب زوجته الكفر، مما يدل على أن هناك استقلالاً إيمانياً تاماً للمرأة.

ونأمل أن يكون الله قد وفقنا إلى إلقاء الضوء على بعض ما جاء في القرآن الكريم عن المرأة، وأن يكون في هذا رد على كل متطاول على الإسلام افتراء أو اجتراء عليه، وهو سبحانه وتعالى السميع المجيب.

فهرس المحتويات